مغامرات

سـفير عـربـي

في إسكانديناڤيا منذ ألف عام

تأليف

أحمد عبدالسلام البقالي

انطلاقاً من رسالة ابن فضلان، لسامي الدهان

وأكلة الأموات، لمايكل كرايتن

مكتبة العبيكان

ح مكتبة العبيكان، ١٤٢٤هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

البقالي، أحمد عبدالسلام

مغامرات سفير عربي في إسكندينافيا منذ ألف عام./ أحمد عبدالسلام البقالي. ـ الرياض، ١٤٢٤هـ

٢٧٠ص؛ ٥,١٤ × ٢١ سم

ردمك ١ ـ ٣٨٣ ـ ٤٠ ـ ١٩٦٠

١ ـ القصص التاريخية. ـ المغامرات أ. العنوان

ديوي ٨١٣,٠٨٧ ١٤٢٤/٣٠١٤

ردمك ١ ـ ٣٨٣ ـ ٤٠ ـ ١٩٦٠ رقم الإيداع: ١٤٢٤/٣٠١٤

الطبعة الأولى

١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م

الناشر

مكتبة العبيكان

الرياض - العليا - طريق الملك فهد مع تقاطع العروبة

ص.ب ٦٢٨٠٧ الرمز ١١٥٩٥

هاتف ٤٦٥٤٤٢٤ فاكس ٤٦٥٠١٢٩





قصتي مع ابن فضلان

أحمد عبدالسلام البقالي

إلى جانب «مقهى باريس»، في قلب مدينة طنجة يوجد بائع كتب مستعملة يقف عنده المارة ورواد المقهى من المثقفين بجميع اللغات.

أمام هذ البائع بدأت قصتي مع ابن فضلان.

لفت انتباهي كتاب جيب على غلافه صورة بالألوان لرجل عربي وسيم، في يده ورقة ملفوفة ومعقودة بشريط، يبدو عليها أنها خريطة أو وثيقة، وإلى جانبه رجل أوروبي أشقر، ضخم الجثة، يلبس ملابس الفرو الإسكندنافية ويحمل في يده ساطوراً بشفرتين.

عنوان الكتاب: «أَكَلَة الأموات» «EATERS OF THE DEAD».

الكاتب: «مايكل كرايتن» «MICHAEL CRITCHON» وتحت الاسم بخط أصغر: مؤلف كتاب «سرقة القطار الكبرى».

وخلف الكتاب قرأت الجملة التالية التي كانت حافزي لشراء الكتاب:

«منذ ألف سنة اختطف الفايكنج (الإسكندافيون) عالماً عربياً اسمه ابن فضلان، وأخذوه معهم إلى بلادهم غير المتحضرة

بالشمال. وكان هو رقيقاً، حاضر البديهة، ومن سكان المدن المسالمين. أما مختطفوه فكانوا همجاً، متوحشين، وعشاق حرب.

«وقصة رحلة ابن فضلان مع الفايكنج ـ وتبادل المعلومات التدريجي بينه وبينهم، والشك الذي تحول إلى احترام ـ قصة مثيرة حقاً، قصةُ شَجاعةٍ وإنسانية، تصل إلى ذروة الروعة حينما ينضم ابن فضلان إلى مختطفيه في قتالهم ضد المخلوقات المرعبة المكسوة بالشعر التي تزحف خارجة من كهوفها لتقتل وتأكل ضحاياها.»

ووصفت جريدة «الديلي تلغراف» اللندنية الكتاب بأنه: «من أروع روايات السنة».

وما كدت أنتهي من قراءة المقدمة الرصينة التي كتبها (كرايتن) حتى أدركت أنني أمام عمل عظيم وقصة إنسانية بالدرجة الأولى، والتفاتة حضارية من كاتب مقتدر نحو الأمة العربية والإسلامية في أزهى عصورها، مقارنة بشعوب أوروبا في القرون الوسطى، رغم ما أضاف إليها الكاتب من خياله. افتتح «مايكل كرايتن» مقدمة الرواية بقوله:

«يعتبر مخطوط ابن فضلان أقدم تسجيل معروف، كتبه شاهد عيان، عن حياة ومجتمع «الفايكنج» الإسكندنافيين؛ فهو وثيقة فريدة من نوعها، تصف بدقة متناهية أحداثاً وقعت منذ

أكثر من ألف سنة، ولم يصلنا المخطوط كاملاً عبر تلك الفترة الزمنية الهائلة فله هو الآخر قصة لا تقل غرابة عن النص نفسه.

مصدر المخطوط

« في يونيو ٩٢١م أرسل الخليفة العباسي المقتدر عضواً من بلاطه هو أحمد بن فضلان، كسفير لملك البلغار، وغاب ابن فضلان مدة ثلاث سنوات دون أن ينجز مهمته[١]، فقد اعترض طريقه جماعة من الاسكندينافيين أخذوه معهم قسراً، وكانت له معهم مغامرات.

«وحين عاد ابن فضلان أخيراً إلى بغداد سجل تجاربه في شكل تقرير رسمي للخليفة. وقد اختفى ذلك المخطوط الأصلي منذ زمن طويل. ولأجل إعادة كتابته كان لابد من الاعتماد على قطع بقيت محفوظة في مصادر متأخرة.

«وأهم هذه المصادر هو معجم (ياقوت: ابن عبدالله) الجغرافي الذي كتب في القرن الثالث عشر الميلادي، والذي تضمن مجموعة من المقتطفات الحرفية من مخطوط ابن فضلان الذي كان قد مرَّ عليه ثلاثمائة سنة حينئذ. ولابد من الاعتقاد

(١) السفير الحقيقي كان «نذير الحُرَمي». وقد ندب ابن فضلان لقراءة الكتاب عليه، وتسليم ما أهدى إليه كما يقول ابن فضلان بنفسه.

بأن (ياقوت) نقل عن النسخة الأصلية. ورغم ذلك فقد تُرجمت تلك الفذلكات وأعيدت ترجمتها عشرات المرات من طرف العديد من الباحثين المتأخرين.

«وقد اكتُشِفت قطعة من المخطوط في (روسيا) سنة ١٨١٧م، ونُشِرت بالألمانية في أكاديمية (سان بيتر سبورغ) سنة ١٨٢٣ . وتتضمن هذه القطعة بعض المقاطع التي سبق أن نشرها (ج. ل. رازموسين) سنة ١٨١٤ . وقد اشتغل (رازموسين) على مخطوط وجده في (كوبنهاغن)، ضاع منذئذ، وكان مجهول الأصل.

«وكانت هناك ترجمات إنجليزية وفرنسية وسويدية، ولكنها جميعاً كانت فظيعة الأخطاء ولا تتضمن أي جديد.»

«وفي سنة ١٨٧٨م تم العثور على مخطوطين جديدين بين مجموعة الكتب القديمة الخاصة بـ (السير/ جان إيمرسون) (Sir John Emerson)، السفير البريطاني بالقسطنطينية، ويظهر أن (السير جان) كان أحد الجمَّاعين الذين يتجاوز حماسُهم للجمع اهتمامَهم بمحتوى ما يجمعونه. وقد وُجد المخطوطان بعد وفاته، ولا أحد يعرف من أين حصل عليهما ، ولا متى.

وأحدهما كتاب جغرافي بالعربية «لأحمد الطوسي»، مؤرخ بـ ١٠٤٧ ميلادية.

وهذا يجعل مخطوط «الطوسي» أقرب زمنياً من أي مخطوط آخر إلى أصل ابن فضلان الذي يعتقد أنه كتب حوالي سنة ٩٢٤ ـ ٩٢٦م. ورغم ذلك فالباحثون يعتقدون أن كتاب الطوسي أقل المصادر جدارة بالثقة، فهو مليء بالأخطاء والتناقضات الواضحة. ورغم أنه يأخذ الكثير عمَّن يسميه بابن الفقيه الذي زار بلاد الشمال، فإن الكثير من المؤرخين يترددون في قبول مادته.

أما المخطوط الثاني فهو (لأمين الرازي). ويرجع تاريخه التقريبي إلى ١٥٨٥ـ ١٥٩٥م. وهو مكتوب باللاتينية، ومترجم، حسب كاتبه، رأساً من الأصل العربي لابن فضلان. ويحتوى مخطوط الرازي على بعض المعلومات عن (الأتراك الأغُوز)؛ وعلى فقرات تتعلق بالمعارك مع غيلان الضباب، لا توجد في مصادر أخرى.

وفي سنة ١٩٣٤ عُثِر على نص مترجم إلى لاتينية العصر الوسيط في دير (كسيموس) قرب (تسالونيكا) شمال شرق اليونان. ويتضمن مخطوط كسيموس تعاليق إضافية عن علاقة ابن فضلان بالخليفة، وتجاربه مع غيلان الضباب ببلاد الشمال. ولا يعرف شيء عن كاتب مخطوط (كسيموس) ولا عن تاريخه.

تحقيق الرسالة

وتعتبر مهمة جمع وتصفية وتحقيق هذا العدد الكبير من النصوص الممتدة عبر أزيد من ألف سنة، والمكتوبة بالعربية واللاتينية والألمانية والفرنسية والدانمركية والسويدية والإنجليزية، مهمة شاقة، ولا يستطيع القيام بها إلا شخص واسع المعرفة، عظيم الطاقة، وقد وجد ذلك الشخص في سنة ١٩٥١م. فقد تولى الأستاذ (بير فراوس دولوس) (PER FRAUS DOLUS) الأستاذ الفخري المتقاعد للأدب المقارن بجامعة (اوسلو) بالنرويج، مهمة جمع كل المصادر المعروفة، وبدأ مهمة الترجمة الضخمة التي شغلته حتى وفاته سنة ١٩٥٧م.

وقد نشرت بعض أجزاء ترجمته في مجلة (محاضر متحف «أوسلو» الوطني ١٩٥٩ ـ ١٩٦٠م). إلا أنها لم تُثِرْ أي اهتمام في الأوساط العلمية، ربما لتوزيع المجلة المحدود.

وقد كانت ترجمة (فراوس ـ دولوس) حرفية تماماً، ففي مقدمته للترجمة يلاحظ أن «من طبيعة اللغات أن الترجمة الجميلة لا تكون دقيقة، وأن الترجمة الدقيقة تجد جمالها بلا مساعدة».

ويقول (مايكل كرايتن): «لقد قمت بتعديلات طفيفة عند إعدادي لترجمة (فراوس ـ دولوس) الكاملة والمحشاة. فحذفت بعض الفقرات المكررة، وهي مشار إليها في النص. وغيرت ترتيب الجمل بحيث يبدأ كلام كل شخص يروي عنه ابن فضلان بمقطع جديد، حسب الحوار العصري. وحذفت العلامات المميزة للأسماء العربية، وأخيراً أعدت ترتيب الجمل بحيث أصبحت من الناحية اللغوية واضحة».

ابن فضلان:

يحدثنا ابن فضلان بصوت واضح رغم مرور أزيد من ألف سنة على رسالته، ورغم عدد الناقلين والتراجمة الذين تناولوا الرسالة بأكثر من اثنتي عشرة لغة، مع ما تتضمنه تلك اللغات من تقاليد ثقافية.

ونحن لا نكاد نعرف شيئاً عنه شخصياً. فالظاهر أنه كان متعلماً. ومن خلال مغامراته نستنتج أنه لم يكن كبير السن. وهو يذكر أنه كان من أقرباء الخليفة المقتدر، وأنه لم يكن يضمر للخليفة أي تقدير. (ولم يكن وحده في هذا، فقد تم عزل المقتدر مرتين، وقتل في النهاية على يد أحد رجاله).

بغداد في عصر ابن فضلان:

ونحن نعرف الكثير عن مجتمع ابن فضلان. فقد كانت بغداد، مدينة السلام، في القرن العاشر، أزهى المدن حضارة على

الأرض. وكان يعيش داخل أسوارها أكثر من مليون نسمة. وكانت مركز النشاط التجاري، والإشعاع الثقافي، ومسرحاً رائعاً للجمال، والأناقة، والإشراق. كانت أسوارها تحوي البساتين العطرة، والمآوي الظليلة الناعمة، والثروات الطائلة التي تأتيها من أطراف الإمبراطورية الشاسعة.

وكان عرب بغداد مسلمين شديدي التمسك بدينهم، ولكنهم كانوا متفتحين على شعوب تختلف عنهم في المظهر، والعادات، والمعتقدات. وفي الحقيقة كان العرب أقل الشعوب إقليمية في العالم، في ذلك العصر. وهذا جعل منهم ملاحظين ممتازين للثقافات الأجنبية.

ومن الواضح أن ابن فضلان كان ملاحظاً ذكياً، فقد كان يهتم بجزئيات الحياة اليومية، وبعقائد من يلتقي بهم من الناس، وقد صدمه الكثير مما شاهد فوصفه بأنه سوقي أو فاحش، أو همجي؛ ولكنه لا يضيع وقتاً كثيراً في التعبير عن سخطه، بل يعود إلى ملاحظاته الدقيقة بمجرد إبداء عدم رضاه، ويحكي ما يرى بصراحة، ودون تعفف.

وطريقة ابن فضلان في الرواية قد تبدو غريبة بالنسبة للحساسية الغربية، فهو لا يحكي القصة بالطريقة التي اعتاد الغربيون عليها؛ فالغربيون يميلون إلى نسيان أن إحساسهم

القصصي صادر عن تقاليد الحكاية الشفوية - أي في فرقة تمثيل أمام جمهور غالباً ما كان قلقاً أو متضايقاً، أو يغلب عليه النعاس بعد وجبة ثقيلة، فأقدم قصص الغرب «كالإلياذة»، و«بيووُلف» و«أنشودة رولاند»، كان الهدف منها أن يغنيها مطربون مهمتهم الأساسية هي التسلية.

ولكن ابن فضلان كان كاتباً، ولم يكن قصده الأساسي التسلية، ولم يكن يهدف إلى تمجيد زعيم في محضره، ولا تركيز أسطورة في المجتمع الذي يعيش فيه، بالعكس فقد كان سفيراً يكتب تقريراً، ونبرته كانت نبرة جابي ضرائب، وعالم انثروبولوجي، وليس نبرة ممثل أو رَاوِي أساطير. وفي الواقع كان غالباً ما يهمل العناصر الأشد إثارة في حكايته حتى لا تؤثر على أسلوبه الواضح المتزن.

وفي بعض الأحيان يكون هذا التجرد مصدر حنق للقارئ الذي لا يدرك عظمة ابن فضلان كمشاهد. فقد جرت العادة بين الرحالة، بعد ابن فضلان بمئات السنين، أن يكتبوا حكايات غاية في الغرابة، ضاربة في الخيال عن عجائب ما رأوْا في أسفارهم من حيوانات ناطقة، ورجال ذوي ريش، وكائنات أسطورية كالبهيموت ووحيد القرن، ومنذ مائتي سنة فقط ملأ كُتَّاب أوربيون، معروفون باتزانهم، مذكراتهم بكثير من الهراء عن قردة البابون الذين شنُّوا حرباً على المزارعين في إفريقيا.

أما ابن فضلان فلم يَرْجُم بالغيب أبداً، وكل كلمة كتبها تنطق بالصدق، وكلما كتب شيئاً سمعه من غيره، حرص على أن يقول ذلك. وهو حريص كذلك على إثبات ما شاهده بنفسه؛ وذلك سبب استعماله العبارة: «رأيت بعيني» مرات متعددة.

وهذا الصدق المطلق الذي يتصف بن ابن فضلان، هو الذي جلعل، في النهاية روايته مرعبة بهذا الشكل. فقد قص حكايته مع «أغوال الضباب»، أكلة لحوم البشر، بالعناية نفسها بالتفاصيل، وبالحذر والشك نفسهما اللذيْن يميزان الأجزاء الأخرى من المخطوط.

وعلى أي حال، فللقارئ أن يحكم بنفسه». انتهى كلام كرايتن.

ماذا فعل العرب:

واستغربت من أن يكون ابن فضلان أقام الدنيا وأقعدها هكذا في أوربا دون أن ينتبه العرب إليه.

وبدأت أبحث. ولحسن حظي عثرت على تحقيق وتعليق قام به الكاتب السوري الراحل الدكتور سامي الدهان، لرسالة ابن فضلان[1].

وسعدت جداً لكون الرسالة نالت ما تستحقه من الاعتبار.

---

(١) الكتاب «٢» من سلسلة «المختار من التراث العربي» الصادر عن مجمع اللغة العربية بدمشق، سنة ١٩٥٩، في ١٩٦ صفحة. الطبعة الثانية سنة ١٩٧٨م.

وقرأت مقدمة المحقق التي ملأت نصف الكتاب[1]، وكيف أن صاحب الفضل في تنبيهه إليها كان العلامة الرئيس (محمد كرد علي)، رحمه الله. وكان هذا بدوره قد تنبه إلى الرسالة عن طريق مقال لمستشرق ألماني صدر بمجلة «مجرية» باللغة الألمانية.

ويقول الدكتور الدهان في مقدمته للرسالة: «ولم أدر سر توجيهي إلى المقال، فإذا بالرئيس يحدثني عن أهمية هذه الرسالة، وعن حاجة المثقفين العرب إلى قراءتها، واستخراج العبر منها، وإكبار الأجداد في همتهم، وسعيهم، وثقافتهم».

ويضيف أن رسالة ابن فضلان ربما كانت المصدر الوحيد لتاريخ روسيا، وبلغاريا، وتركيا، وفي تلك الحقبة الغامضة من القرن العاشر الميلادي.

ولو كان اطّلع على الأصل الأول لعرف أن رسالة ابن فضلان كانت وما تزال المصدر الأول لتاريخ دول الشمال الأوربي، فمنذ ألف سنة كانت القراءة والكتابة شيئاً مجهولاً تماماً بالنسبة للاسكندنافيين».

ويفرح الدكتور الدهان بالثقة التي وضعها فيه الرئيس الجليل (محمد كرد علي) ولكنه ما كاد يواجه المهمة حتى وجدها مهمة مستحيلة.

---

(١) ٩٤ صفحة من أصل ١٩٦ صفحة.

ورغم ذلك صمد الدكتور الدهان للتحدي، وأخرج ما عثر عليه من صفحاتها بمساعدة صديق روسي اسمه «نيكيتا اليسف»، وبعد أن كاد يثنيه اليأس عن مهمته.

إلا أنني حين انتهيت من قراءة ما كتبه الدكتور الدهان أصبت بخيبة أمل؛ فما عثر عليه الدكتور الدهان وحققه لم يتعد جزءاً بسيطاً من الرسالة الأصلية.

وأحسست مرة أخرى، وبعد أن كنت استرحت، بعبء نقل العمل الكامل إلى العربية ينزل على كاهلي. فما جمعه وحققه «بير فراوس ـ فولوس» بجامعة (أوسلو) ورتبه الكاتب الإنجليزي «مايكل كرايتن»، في شكل رواية يفوق بمراحل ما حققه الدكتور الدهان.

والغريب في الأمر أن الدكتور الدهان، والبروفيسور (فراوس ـ دولوس) بدءا العمل في الرسالة في السنة نفسها ١٩٥١م، ودون أن يعلم أحدهما بعمل الآخر.

ويبقى الآن التوفيق بين العملين وأخراجهما في مجلد واحد باللغة العربية.

وهذا هو موضوع هذا السفر الجديد.

ورعياً للأمانة العلمية، رأيت أن أثبت هنا مجموع ما استطاع الدكتور الدهان استخلاصه من مراجع الرسالة التي كانت بين يديه بما فيها الحواشي والشروح التي تدل على الجهد المضني الذي بذله - رحمه الله - في هذا العمل: وأقول ما استطاع استخلاصه لأن المخطوطات التي نقل عنها كانت في غالب الأحيان مبتورة، ومتآكلة أو غير واضحة في بعض الأماكن، فكان يكتفي بما يستطيع الحصول عليه.

وللسبب نفسه رأيت الاحتفاظ بترتيب الدكتور الدهان إلى نهايته، رغم أن مغامرة ابن فضلان الإسكندينافية حدثت قبل لقائه بملك الصقالبة. وهو يشير إلى ذلك في مقدمة الفصل المعنون بـ: (السفر إلى البلد البعيد).

وأهم ما يمتاز به ما نقله الدكتور الدهان احتفاظه بأسلوب ابن فضلان المشرق الواضح، وتعليقاته هو - الدهان - وشروحه لكثير من المفردات وأسماء الأماكن، وكذلك إثباته لصور بعض صفحات الرسالة التي نقل عنها، الشيء الذي أغفله مايكل كرايتن في كتابه، كان أجدر به أن يثبته، خصوصاً خريطة رحلة ابن فضلان في أسكانديناقيا القديمة، ومقارنتها بخريطة لتلك البلاد اليوم.

وكم تمنيت لو عثرت على الأصل العربي الذي ترجم منه فريق الأستاذ (بير فراوس دولوس) إذن لنقلته للقارئ العربي

بأسلوبه الأصلي، ولما اضطررت إلى ترجمته عن الإنجليزية بأسلوب مخالف لأسلوب ابن فضلان.

وسيجد القارئ هذا التفاوت واضحاً بعد خروجه مما نقلته عن الدكتور الدهان، إلى ما ترجمته عن مايكل كرايتن، ابتداء من فصل «بعد جنازة الأسكندينافيين».

وفي نظري، إن ما لم يصل إليه الدكتور الدهان من رسالة ابن فضلان هو أهم كثيراً، وأعظم تشويقاً وإثارة من وجهة النظر الروائية، والتاريخية، والعلمية على السواء؛ ففيه تبدأ المغامرة الإسكندينافية الحقيقية.

ولحسن الحظ أن ما نقله كرايتن عن فراوس دولوس يبدأ حيث ينتهي ما عثر عليه الدكتور الدهان. فالكاتبان، إذن يَكملان بعضهما البعض.

أما ما ينقص الرسالة فهو جزؤها الآخر الذي لم يعثر عليه الدهان ولا دولوس ويبدأ بإبحار ابن فضلان في رحلة عودته إلى وطنه بعد تشويق ومماطلة طويلة من الملك (روثغار). وتنتهي الرسالة بالضبط عند مشاهدة ابن فضلان لشيء في البحر لا ندري ما هو.

ولن يتم هذا العمل إلا إذا تم العثور على أصل الرسالة بكامله بأسلوب ابن فضلان، بما فيه وصوله إلى مدينة السلام.

الرحيل عن مدينة السلام

بسم الله الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء، سيدنا ومولانا محمد، صلى الله عليه وسلم وبارك إلى يوم الدين.

وبعد، فهذا كتاب أحمد بن فضلان، بن العباس، بن الرشيد، ابن حماد مولى محمد بن سليمان، رسول المقتدر إلى ملك الصقالبة، يحكي فيه ما رأى في أرض الترك، والخزر، والصقالبة، والروس، وسكان الشمال، وتاريخ ملوكهم وتصرفاتهم في شؤون حياتهم.

«لما وصل كتاب (ألمِش بن يالطوار)، ملك الصقالبة، إلى أمير المؤمنين المقتدر يسأله فيه البعثة إليه ممن يفقهه في الدين، ويعرفه شرائع الإسلام، ويبني له مسجداً، وينصب له منبراً ليقيم عليه الدعوة له في بلده، وجميع مملكته، ويسأله بناء حصن يتحصن فيه من الملوك المخالفين له، فأجيب إلى ما سأل من ذلك.

وكان السفير له (نذير الحرمي) ولم يكن أمير المؤمنين المقتدر، كما يعرف الكثير، خليفة قوياً عادلاً، بل كان خليعاً ينساق

وراء الشهوات، وينخدع بملق وثناء رجال بلاطه الذين كانوا يستغفلونه، ويسخرون منه كثيراً وراء ظهره، ولم أكن أنا من حاشيته ولا ممن يتمتعون بعطفه، وذلك للسبب الآتي:

ابن قارن:

في مدينة السلام كان يعيش تاجر عجوز يدعى (ابن قارن)، وكان واسع الغنى، ولكنه كان بخيلاً خبيثاً، وكان حريصاً على أمواله وعلى زوجته الشابة التي لم يرها أحد أبداً، والتي يُحكى عنها أنها أجمل مما يتصوره الخيال.

«وذات يوم بعث بي الخليفة لأسلم رسالة (لابن قارن)، فذهبت إلى داره، وطلبت الدخول برسالتي وخاتمي. ولم أعرف حتى اليوم مضمون الرسالة ولكن ذلك لا يهم.

«ولم يكن التاجر العجوز بالدار، فقد كان مسافراً في تجارة، فشرحت للحارس مهمتي، وقلت له لابد أن أنتظر عودة سيده، لأن الخليفة أمرني أن أسلمه الرسالة يداً بيد. وعندئذ فتح لي الباب، وأدخلني بعد مرور وقت طويل، نظراً لكثرة الأقفال والأرتجة التي كانت على الباب كما هي العادة في أبواب البخلاء، وانتظرت طول اليوم حتى جُعتُ وظمئت دون أن يقدم لي أحد من خدم التاجر الخبيث ما يسد الرمق، أو يروي الظمأ.

وفي قـيظ الظهـيـرة، حين هدأ كل شيء من حـولـي، ونام الخدم، أخذتني سنة من النوم، وحينئذ رأيت أمامي مشهداً ناصع البياض لامرأة شابة وجميلة.

ومـرت الظهـيـرة بسـرعـة فـإذا بنا نسـمـع صـوت ابن قـارن صاحب البيت عائداً من سفره. وفي الحال قامت الزوجة وذهبت دون أن تنطق بكلمـة، وتركـتني أرتب مـلابسي في عـجلة. وكـاد يمسك بي لولا ما أخَّر دخوله إلى منزله من كثرة الأقفال والأرتاج، ورغم ذلك فـقـد حـدجني بنظرة ارتيـاب حين وجـدني في الغـرفـة المجـاورة، وسـألني لماذا كنت هناك وليس بالسـاحـة، حـيث يجب أن ينتظر حملة الرسائل، فأجبت بأنني كنت جائعاً ومتعباً فبحثت عن الطعام والظل فلم يصدق. فشكاني إلى الخليفة الذي أعرف أنه سُرَّ في باطنه، ولكن اضطر إلى إظهار الجد أمام الحاضرين.

وبهذا، حين طلب ملك الصقالبة وفداً من الخليفة أشار عليه (ابن قارن) الخبيث بإيفادي أنا، وهكذا أرسلت.

وكـان السـفـيـر الذي بعث الخليـفـة لملك الصـقـالبـة هو (نذير الحـرمي). فَنُدِبت أنا لقـراءة الكتـاب عليه، وتسليم مـا أهدي إليـه، والإشـراف على الفـقـهـاء والمعلمين، وسـبَّبَ (هكذا) له بـالمال المحمـول إليه لبنـاء مـا ذكرناه، وللجـراية على الفـقـهاء والمعلمين، على الضيعة المعروفة (بأرتَخُشمِثَّين)، من أرض خوارزم من ضياع (ابن الفرات).

«وكان الرسول إلى المقتدر من صاحب الصقالبة رجلاً يقال له (عبدالله بن باشتو الخزري)، وكان رجلاً ثقيلاً فارغاً مهذاراً[1] والرسول من جهة السلطان (سوسن الرسي)، مولى (نذير الحرمي) و(تكين التركي) و(بارس الصقلبي)، (وكانا مرشدينا في الرحلة) وأنا معهم على ما ذكرت ـ فسلمت إليه الهدايا، له ولامرأته، ولأولاده، وإخوته وقواده، وأدوية كان كتب إلى نذير يطلبها».

فرحلنا من مدينة السلام يوم الخميس لإحدى عشرة ليلة خلت من صفر سنة تسع وثلاثمئة[2]. فأقمنا بالنهروان[3] يوماً واحداً، ورحلنا مجدين حتى وافينا الدسكرة[4] فأقمنا بها ثلاثة أيام، ثم رحلنا قاصدين لا نلوي على شيء حتى صرنا إلى حلوان[5] فأقمنا بها يومين.

---

(١) لم يورد الدهان هذا الوصف.

(٢) ذكرنا في المقدمة أن هذا التاريخ يوافق ٢١ حزيران (يونيه) سنة ٩٢١ ميلادية.

(٣) النهروان: أكثر ما يجري على الألسنة في ضبطها بكسر النون، وهي كورة واسعة بين بغداد وواسط من الجانب الشرقي كما في ياقوت: ٤ / ٨٤٦ .

(٤) الدسكرة: في ياقوت: ٢ / ٥٧٥ قرية كبيرة بنواحي نَهرِ الملك من غربي بغداد.

(٥) حلوان (بالضم ثم السكون) حلوان العراق في آخر حدود السواد مما يلي الجبال من بغداد كما في ياقوت ٢ / ٣١٧ .

وسرنا منها إلى قرميسين[1] فأقمنا بها يومين، ثم رحلنا فسرنا حتى وصلنا إلى همذان[2] فأقمنا بها ثلاثة أيام.

ثم سرنا حتى قدمنا ساوة[3] فأقمنا بها يومين، ومنها إلى الري[4] فأقمنا بها أحد عشر يوماً ننتظر أحمد بن علي أخا صعلوك[5]؛ لأنه كان بخوار الري[6].

---

(١) قرميسين: (بالفتح ثم السكون) تعريب (كرمان شاه)، بلد معروف بينه وبين همذان ثلاثون فرسخاً. قرب الدينور، وهي بين همذان وحلوان على طريق الحاج. عذبة الماء كما في ياقوت ٤ / ٦٩، فابن فضلان كان يسلك طريق الحاج.

(٢) همذان: مدينة بالجبل، وصفها ياقوت ٤ / ٩٨١ وتحدث عن بردها الشديد في حكايات طويلة.

(٣) ساوة: ذكرها ياقوت ٣ / ٢٤ وقال: إنها مدينة حسنة بين الري وهمذان في وسط، بينها وبين كل واحدة من همذان والري ثلاثون فرسخاً.

(٤) الري: ذكرها ياقوت ٢ / ٨٩٢ وقال: إنها قصبة بلاد الجبال، بينها وبين نيسابور (١٦٠) فرسخاً، وهي من أعلام المدن، محط الحاج على طريق السابلة، قرب طهران الحالية.

(٥) جاء في التواريخ أنه أحمد بن علي صعلوك، قلد أعمال المعاون بأصبهان وَقُمّ، وكان يلي الري. انظر تجارب الأمم ج ٥ . ٥٠، وصلة عريب: ٢٧ وابن جرير الطبري: ١٢ / ٢٧ .

(٦) خوار: بضم أوله، ذكرها ياقوت ٢ / ٤٧٩ وقال: إنها مدينة كبيرة من أعمال الري، بينها وبين سمنان للقاصد إلى خراسان، بينها وبين الري نحو عشرين فرسخاً.

ثم رحلنا إلى خوار الري فأقمنا بها ثلاثة أيام، ثم رحلنا إلى سمنان[١]. ثم منها إلى الدامَغان[٢]، وصادفنا بها ابن قارن[٣] من قبل الداعي [٤] فتتكرنا في القافلة، وسرنا مجدين حتى قدمنا نيسابور[٥] وقد قتل ليلي بن نعمان[٦] فاصبنا بها حمويه كوسا[٧] صاحب جيش خراسان.

---

(١) سِمنان: بكسر السين عند أهل الحديث، ذكرها ياقوت ٣ / ١٤١ وقال: إنها بلدة بين الري ودامغان، وبعضهم يجعلها من قومس، كثيرة الأشجار والأنهار والبساتين.

(٢) دامغان: بفتح الميم والغين، ذكرها ياقوت ٢ / ٥٣٩ وقال: إنها بلد كبير بين الري وقومس، كثيرة الفواكه. انظر كذلك ابن حوقل ٢ / ٣٨٠ .

(٣) ذكر المؤرخون أحد أجداده وهو المازيار بن قارن، وهو هنا العباس بن قارن، انظر ياقوت ٣ / ٢٨٣، والطبري ٣ / ١٠٧٠ طبعة أوروبا.

(٤) هو الحسن بن القاسم الحسني الداعي، ذكرته المصادر لأهميته، ومنها مروج الذهب طبعة باريس ج / ٩ / ٦ وابن الأثير ط: غ المنيرية ج / ٦ ص ١٤٨، ودائرة المعارف الإسلامية، وتجارب الأمم ج / ٥ / ٣٦، وزامباور في الترجمة العربية ٢ / ٢٩٣ .

(٥) نيسابور: بفتح النون، مشهورة، ذكرها ياقوت ٤ ، ٨٠٧ وقال: مدينة عظيمة بينها وبين الري ١٦٠ فرسخاً.

(٦) قتل ليلي بن النعمان قبل قليل، فقد جاء في تجارب الأمم ٥ / ٧٦ لحوادث سنة ٣٠٩هـ (وفيها دخل رسول صاحب خراسان برأس ليلي بن النعمان الديلمي الذي خرج بطبرستان وقد كان ليلي أحد قواد أولاد الأطروش العلوي، وكانت إليه ولاية جرجان، استعمله عليها الحسين بن القاسم الداعي سنة ٣٠٨هـ كما في ابن الأثير: ٦ / ١٦٧).

(٧) حمويه بن علي ذكرته التواريخ في أكثر من مكان، وقد حكم سمرقند سنة ٣٠١هـ كما في ابن الأثير ج / ٦ / ١٤٠، وفي المقدسي - ط: أوروبا ص ٣٣٧ أنه كان صاحب جيش نصر بن أحمد بن إسماعيل، وفي ابن الأثير بعد ذلك ٦ / ١٤٩: (فتوجه إليها من بخارى حمويه بن علي في عسكر ضخم لمحاربتها).

ثم رحلنا إلى سرخس[1]، ثم منها إلى مرو[2]، ثم منها إلى قشمهان[3] وهي طرف مفازة آمل[4] فأقمنا بها ثلاثة أيام نريح الجمال لدخول المفازة.

ثم قطعنا المفازة إلى آمل، ثم عبرنا جيحون وصرنا إلى آفريز[5] رباط طاهر بن علي.

---

(١) سَرخَس: (بفتح أوله وسكون ثانيه وفتح الخاء)، ويقال بالتحريك، ذكرها ياقوت ٣ / ٧١ فقال: إنها مدينة قديمة من نواحي خراسان، كبيرة بين نيسابور ومرو في وسط الطريق بينها وبين كل واحة منهما ست مراحل.

(٢) مرو: مشهورة، ذكرها ياقوت ٤ / ٥٠٧ وقال: إنها أشهر مدن خراسان، وبين مرو ونيسابور سبعون فرسخاً، ومنها إلى سرخس ثلاثون.

(٣) قشمان: لم نقع عليه في ياقوت بهذا الضبط، ولعلها (كشمهين) كما ضبطها أبو الفداء في تقويم البلدان صفحة ٤٤٦ فقال: (وبلاد خراسان كشمهين، قال المُهَلَّبي: وهي قرية من أعمال مرو الشاهجان على خمسة فراسخ منها وعلى طرف المفازة) وضبطها ياقوت ٤ / ٢٧٨ فقال: (بالضم ثم السكون وفتح الميم وياء ساكنة وهاء مفتوحة ونون (كشمهين)، قرية كانت عظيمة من قرى مرو على طرف البرية آخر عمل مرو لمن يريد قصد آمل). فالفرق بينهما هو الياء بعد الهاء.

(٤) آمل: بضم الميم، ذكرها ياقوت ١ / ٦٩ فقال: إنها مشهورة في غرب جيحون على طريق القاصد إلى بخارى من مرو، بينهما وبين شاطئ جيحون نحو ميل، ويقال لها آمل المفازة، لأن بينهما وبين مرو (رمالاً صعبة، المسلك، ومفازة أشبه بالمهلك). انظر ابن حوقل ٢ / ٣٨١ حيث يقول: إن آمل أكبر مدن طبرستان، وهي مستقر ولاتها، وهي أكبر من قزوين.

(٥) آفريز: تقع على مقربة من نهر جيحون بعد آمل كما في بلدان الخلافة الشرقية تأليف لسترنج في الخريطة مقابل صفحة ٤٧٦ من الترجمة العربية.

ثم رحلنا إلى بيكند[١]، ثم دخلنا بُخَـــارا[٢] وصـــرنا إلى الجيهاني[٣] وهو كاتب أمير خراسان، وهو يدعى بخراسان الشيخ العميد، فتقدم بأخذ دار لنا وأقام لنا رجلاً يقضي حوائجنا ويزيح عللنا[٤] في كل ما نريد، فأقمنا أياماً.

ثم أستأذن لنا على نصر أحمد[٥] فدخلنا إليه وهو غلام أمرد، فسلمنا عليه بالإمرة، وأمرنا بالجلوس، فكان أول ما بدأنا به أن قال: «كيف خلفتم مولاي أمير المؤمنين؟ ـ أطال الله بقاءه وسلامته في نفسه وفتيانه وأوليائه ـ» فقلنا: بخير، قال: «زاده الله خيراً».

---

(١) بيكند: بالكسر وفتح الكاف وسكون النون، ذكرها ياقوت ١ / ٧٩٧ وقال: إنها بلدة بين بخارى وجيحون على مرحلة من بخارى، كانت كبيرة وبها رباطات كثيرة نحو ألف، خربت منذ زمان.

(٢) بخارا: من أعظم المدن، ذكرها ياقوت ١ / ٥٧١ فقال: إنه يعبر إليها من آمل الشط، بينها وبين جيحون، اليوم من أشهر مدن أوزبكستان من الولايات السوفيتية.

(٣) أبو عبدالله محمد بن أحمد الجيهاني، ذكره ابن العديم في كتابه بغية الطلب المخطوط ١ / ٢١ قال: «هو وزير صاحب خراسان كان له كتاب المسالك والممالك ضاع، وقام مكانه كتاب البلدان لابن الفقيه الهمذاني كما يقول ابن النديم سلخه من كتابه».

(٤) أزاح العلة: تقال خاصة في الجنود الذين يحتاجون إلى أمر فتقضى حاجاتهم.

(٥) نصر بن أحمد بن نصر الساماني، أحد الملوك المشهورين في السامانية، وهو صاحب خراسان، كان في الثامنة من عمره حين قتل أبوه، حكم من سنة ٣٠١ إلى ٣٣١هـ.

ثم قرئ الكتاب عليه بتسلم أرتَخُشْمِثَيْن من الفضل بن موسى النصراني، وكيل ابن الفرات، وتسليمها إلى أحمد بن موسى الخوارزمي، وإنفاذنا والكتاب إلى صاحبه بخوارزم بترك العَرَضِ[1] لنا، والكتاب بباب الترك ببذرقتنا[2] وترك العرض لنا.

فقال: «وأين أحمد بن موسى»؟ فقلنا: «خلفناه بمدينة السلام ليخرج خلفنا لخمسة أيام فقال: «سمعاً وطاعة لما أمر به مولاي أمير المؤمنين أطال الله بقاءه».

واتصل الخبر بالفضل بن موسي النصراني وكيل ابن الفرات فأعمل الحيلة في أمر أحمد بن موسى، وكتب إلى عمال المعاون[3] بطريق خراسان من جند سرخس إلى بيكند: «أن اذكوا العيون على أحمد بن موسى الخوارزمي في الخانات والمراصد[4]، وهو

---

(١) العرض: كل شيء سوى الدراهم والدنانير من المتاع.

(٢) بذرقة: اتخاذ الدليل أو الحراس كما في تكملة معاجم العرب لدوزي ١ / ٦٠، وهذا يعني أن نحرس البعثة بجنود يحمونها وهي Escorte بالأفرنجية، وفي شرح القاموس أن بذرقة تكون بالذال المعجمة معاً، وأنها مركبة من (بد) و(داه) والمعنى الطريق الرديء، فارسية معربة.

(٣) عامل المعاون، أو صاحب المعاون، أو عامل المعونة، وهو قائد الشرطة أو الأمن كما في تكملة معاجم العرب لدوزي ٢ / ١٩٢ .

(٤) المرصد: مركز جنود الجمارك والحراس للحدود والأمن في معجم دوزي ١ / ٥٣٣ والراصد: هو الجندي المكلف بحراسة الحدود وأمن الطرق وسؤال المسافرين وأذكى على الرجل العيون: أرسل عليه الطلائع.

رجل من صفته ونَعْته، فمن ظفر به فليعتقله إلى أن يرد عليه كتابنا بالمسألة». فأخذ بمرو واعتقل.

وأقمنا نحن ببخارا ثمانية وعشرين يوماً، وقد كان الفضل بن موسى أيضاً واطأ عبدالله بن باشتو وغيره من أصحابنا يقولون: «إن أقمنا هجم الشتاء وفاتنا الدخول، وأحمد بن موسى إذا وافانا لحق بنا».

ورأيت الدراهم ببخارا[1] ألواناً شتى، منها دراهم يقال لها الغطريفية[2]: وهي نحاس وشبهٌ وصُفر[3] يؤخذ منها عدد بلا وزن، مئة منها بدرهم فضة. وإذا شروطهم في مهور نسائهم «تزوج فلان ابن فلان، فلانة بنت فلان على كذا وكذا ألف درهم غطريفية» وكذلك أيضاً شراء عقارهم وشراء عبيدهم، لا يذكرون غيرها من الدراهم. ولهم دراهم أُخر صُفّر وحده، أربعون منها

---

(١) تحدث ياقوت عن الدراهم ببخارا كذلك فقال: ١ / ٥١٩: «وكانت معاملة أهل بخارا في أيام السامانية بالدراهم ولا يتعاملون بالدنانير فيما بينهم، فكان الذهب كالسلع والعروض، وكانت لهم دراهم يسمونها الغطريفية من حديد، وصفر، وآنك، وغير ذلك من جواهر مختلفة، وقد ركبت في تجوز هذه الدراهم إلا في بخارا ونواحيها وحدها». انظر الحضارة الإسلامية لمتز بالعربية ٢ / ٣١٧ والإصطخري: ٣١٤ ـ ٣٢٣ .

(٢) الدراهم الغطريفية أو الغطارفة وهي دراهم كانت معتبرة جداً في بخارَى ضربها غطريف بن عطاء عامل خرسان بعهد الرشيد، والدرهم يساوي ستة دوانق والدانق يساوي اثني عشر قيراطاً. انظر تكملة معاجم العرب لدوزي ٢ / ٢١٦ . والمصادر السابقة المذكورة.

(٣) الشبّه، محركة: النحاس الأصفر كالشبه بكسر الشين وسكون الباء، والصفر مثلها.

بدانق، ولهم أيضاً دراهم صفر يقال لها السمرقندية، ستة منها بدانق.

فلما سمعت كلام عبدالله بن باشتو وكلام غيره يحذرونني من هجوم الشتاء رحلنا من بخارا راجعين إلى النهر، فتكارينا سفينة إلى خوارزم، والمسافة إليها من الموضع الذي اكترينا منه السفينة أكثر من مئتي فرسخ، فكنا نسير بعض النهار، ولا يستوي لنا سيره كله من البرد وشدته، إلى أن قدمنا خوارزم، فدخلنا على أميرها محمد بن عراق خوارزم شاه فأكرمنا وقربنا وأنزلنا داراً.

فلما كان بعد ثلاثة أيام أحضرنا وناظرنا في الدخول إلى بلد الترك وقال: «لا آذن لكم في ذلك ولا يحل إليَّ ترككم تُغرِّرون بدمائكم، وأنا أعلم أنها حيلة أوقعها هذا الغلام - يعني تكين - لأنه كان عندنا حداداً وقد وقع على بيع الحديد ببلد الكفار وهو الذي غر نذيراً وحمله على كلام أمير المؤمنين وإيصال كتاب ملك الصقالبة إليه.

والأمير الأجل - يعني أمير خراسان - كان أحق بإقامة الدعوة لأمير المؤمنين في ذلك البلد لو وجد محيصاً[1]، ومن بعد، فبينكم وبين هذا البلد الذي تذكرون ألف قبيلة من الكفار.

---

(١) المحيص: في الأصل المهرب. يقال: حاص عن الشر يحيص حيصاً وحيصاً ومحيصاً: عدل وحاد عنه. والمحيص: المحيد وفي القرآن الكريم: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾.

وهذا تمويه على السلطان، وقد نصحتكم. ولابد من الكتاب إلى الأمير الأجل حتى يراجع السلطان ـ أيده الله ـ في المكاتبة، وتقيمون أنتم إلى وقت يعود الجواب».

فانصرفنا عنه ذلك اليوم، ثم عاودناه، ولم نزل نرفق به ونداريه ونقول: «هذا أمر أمير المؤمنين وكتابه فما وجه المراجعة فيه»؟ حتى أذن لنا، فانحدرنا من خوارزم[1] إلى الجرجانية، وبينها وبين خوارزم في الماء خمسون فرسخاً.

ورأيت دراهم خوارزم مزيفة، ورصاصاً ويوفاً وصفراً[2]، ويسمون الدرهم طازجة[3] ووزنه أربعة دوانيق ونصف. والصيرفي

---

(١) يقول ياقوت ٢ / ٤٨٠: إن خوارزم ليس اسماً للمدينة، إنما هو اسم للناحية بجملتها، فأما القصبة العظمى فقد يقال لها اليوم الجرجانية، وأهلها يسمونها كركانج. ويقول ياقوت في الجرجانية ٢ / ٥٤: إنها مدينة عظيمة على شاطئ جيحون، وهي كركانج فعربت إلى الجرجانية. وقد رآها ياقوت سنة ٦١٦هـ فوصف بردها الشديد وقال: إنه يسكنها قوم من الأتراك والتركمان لأيامه. ويجدر أن ننبه إلى أن ياقوت بدأ ينقل هنا عن ابن فضلان حرفاً حرفاً.

(٢) الزائف: هو الدرهم الرديء والمردود لغش فيه، جمعه زيوف، وكان للعملة الزائفة ثمنها المحدد جهاراً وتسمى المزيفة؛ لأن الفضة تذاب مع الزئبق ـ انظر كلمة زبق عند الجوهري والحضارة الإسلامية لمتز ٢ / ٣١٩ ومجلة G.R.A.S مقال آمدروز سنة ١٩٠٦م صفحة ٤٧٩ .

(٣) طازجة: النقية الخالصة، وهي معرب تازة، كما في المُعَرَّب للجواليقي: ٢٢٩ .

منهم يبيع الكعاب[1] والدوامات والدراهم. وهم أوحش الناس كلاماً وطبعاً، كلامهم أشبه شيء بصياح الزرازير[2]، وبها قرية على يوم يقال لها أردكو[3]، أهلها يقال لهم الكردلية، كلامهم أشبه شيء بنقيق الضفادع وهم يتبرأون من أمير علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ في دبر كل صلاة.

فأقمنا بالجرجانية أياما، وجمد نهر جيحون من أوله إلى آخره، وكان سمك الجمد سبعة عشر شبرا[4]، وكانت الخيل والبغال والحمير والعجل تجتاز عليه كما تجتاز على الطريق وهو ثابت لا يتخلخل، فأقام على ذلك ثلاثة أشهر.

---

(١) الكعاب: جمع كعب وهو الدانق الصغير كما في معجم دوني ١ / ٤٧٨ ومعجم LANE.

(٢) التشبيه بصياح الزرازير: فقديماً شبه النابغة الشيباني صوت العجم بمثل ذلك فقال: (ديوانه طبعة دار الكتب ١٩٣٢ص: ٥٣):

اصوات عجم إذا قاموا بقريتهم ... كما تصوت في الصبح الخطاطيف

(٣) لم نقف على موقف القرية أو اسم أهلها في المصادر، فلعلهما مصحفتان.

(٤) وصف ياقوت نهر جيحون ٤ / ١٧١ وذكر تجمده فقال: «حتى يصير ثخنه نحو خمسة أشبار». ولذلك كذب ابن فضلان هنا وقال: ٢ / ٤٨٤ «وهذا كذب منه فإن أكثر ما يجمد خمسة أشبار وهذا يكون نادراً فأما العادة فهو شبران أو ثلاثة، شاهدته وسألت عنه هل تلك البلاد»: والعجيب أن السمك عند ابن فضلان هنا هو سبعة عشر شبراً، وينقل ياقوت فيقول تسعة عشر شبراً.

فرأينا بلداً ما ظننا إلا أن باباً من الزمهرير قد فتح علينا منه، ولا يسقط فيه الثلج إلا ومعه ريح عاصف شديدة[1]، وإذا أتحف الرجل من أهله صاحبه وأراد برّه قال له: «تعال إليَّ حتى نتحدث فإن عندي ناراً طيبة».

هذا إذا بالغ في بِرِّهِ وصلته، إلا أن الله تعالى قد لطف بهم في الحطب وأرخصه عليهم. حِملُ عجلة من حطب الطاغ[2] بدرهمين من دراهمهم تكون زهاء ثلاثة آلاف رطل.

ورسم سؤالهم أن لا يقف السائل على الباب، بل يدخل إلى دار الواحد منهم فيقعد ساعة عند ناره يصطلي ثم يقول: (بكند) يعني الخبز[3]، فإن أعطوه شيئاً أخذ وإلا خرج.

وتطاول مقامنا بالجرجانية، وذاك إنا أقمنا بها أيامًا من رجب وشعبان وشهر رمضان وشوال، وكان طول مقامنا من جهة

---

(١) ويعلق ياقوت على هذا الكلام كذلك فيقول ٢ / ٤٨٥ «قلت وهذا أيضاً كذب فإنه لولا ركود الهواء في الشتاء في بلادهم لما عاش فيها أحد».

(٢) فسر ياقوت الكلمة فقال: «الطاغ وهو الغضا» وهي تركية معربة، ولكن ياقوت يضيف ٢ / ٤٨٠ «قلت: وهذا أيضاً كذب، لأن العجلة أكثر ما تجر عليها ما اختبرته وحملت قماشاً لي عليه ألف رطل».

(٣) يعلق ياقوت كذلك فيقول: «قلت أنا وهذا من رسمهم صحيح، إلا أنه في الرستاق دون المدينة شاهدت ذلك» ثم يختصر ياقوت ما عند ابن فضلان من وصف البرد، وقال : إنه نفسه أراد أن يكتب هناك فجمد المداد، ووضع الشربة على شفتيه فالتصقت لجمودها.

البرد وشدته، ولقد بلغني أن رجلين ساقا اثني عشر جملاً ليحملا عليها حطبًا من بعض الغياض فنسيا أن يأخذا معهما قداحة وحراقة[1] وأنهما باتا بغير نار فأصبحا والجمال موتى لشدة البرد.

ولقد رأيت لهواء بردها بأن السوق بها والشوارع لتخلو حتى يطوف الإنسان أكثر الشوارع والأسواق فلا يجد أحداً ولا يستقبله إنسان. ولقد كنت أخرج من الحمام، فإذا دخلت إلى البيت نظرت إلى لحيتي وهي قطعة واحدة من الثلج حتى كنت أدنيها إلى النار.

وقد كنت أنام في جوف[2] بيت، وفيه قبة لبود[3] تركية، وأنا مدثر بالأكيسة والفرى[4] فربما التصق خدي على المخدة.

ولقد رأيت الجباب بها تكسي البوستينات[5] من جلود الغنم لئلا تتشقق وتتكسر فلا يغني ذلك شيئاً.

---

(١) الحراقة بالضم : ما يقع فيه السقط عند القدح من خرقة أو نبج أو نحوهما. والنبج أصول البردي إذا جف وهي كالحراق. والقداحة: حجر القدح. وقيل: الحديدة التي يقدح بها.

(٢) الجوف من البيت وغيره: داخله. جمعه أجواف.

(٣) اللبد: كل شعر أو صوف متلبد، سمى به للصوق بعضه ببعض، جمعه ألباد ولبود وهو كذلك بساط من صوف.

(٤) لعلها الفراء جمع فروة وهي شيء نحو الجبة بطانته يبطن بجلود بعض الحيوانات كالأرانب والثعالب والسمور، وقيل: هي كساء يتخذ من أوبار الإبل.

(٥) يرى ده خويه أنها (بوست)، ودرزي (بوستين) وهي من الجلد الغليظ كالعباءة أو المعطف الكبير.

ولقد رأيت الأرض تنشق فيها أودية عظام لشدة البرد، وأن الشجرة العظيمة العادية لتنفلق بنصفين لذلك.

فلما انتصف شوال من سنة تسع وثلاثمئة أخذ الزمان في التغيير، وانحل نهر جيحون، وأخذنا نحن فيما نحتاج إليه من آلة السفر، واشترينا الجمال التركية، واستعملنا السُّفَر[1] من جلود الجمال لعبور الأنهار التي نحتاج أن نعبرها في بلد الترك، وتزودنا الخبر والجاورس[2] والنمكسوذ[3] لثلاثة أشهر.

وأمرنا من كنا نأنس به من أهل البلد بالاستظهار[4] في الثياب والاستكثار منها. وهوَّلوا علينا الأمر وعظموا القصة. فلما شاهدنا ذلك كان أضعاف ما وُصف لنا، فكان كل رجل منا عليه قرطق[5]، وفوقه خفتان[6]

---

(١) السفر: جمع سفرة وهي المركب أو السفينة.

(٢) الجاروس: حب معروف يؤكل مثل الدهن، معرب (كاروس) وهو ثلاثة أصناف أجودها الأصفر، وهو يشبه بالأرز، ويدر البول، ويمسك الطبيعة، وكذلك كما جاء في تاج العروس.

(٣) النمكسوذ: بفتح النون والميم وسكون الكاف: لحم مجفف من غير تقديد. انظر تكملة المعاجم لدوزي ٢ / ٧٢٦، ودمخوية في المكتبة الجغرافية ٤ / ١٦٨ .

(٤) استظهر الرجل: احتاط.

(٥) قُرطَق: بالضم فالفتح ثم فتح الطاء، معرب (كرته) وهو قميص أو معطف قصير يصل إلى منتصف الجسم كما في معجم دوزي للملابس: ٣٦٢ .

(٦) خفتان: استعمله القدماء بما نستعمل اليوم القفطان أي (الجاكيت) وهو صدرية تحت الثياب، وقد حل محل الملابس العربية. انظر معجم الملابس لدوزي: ١٧٣ وفراي: ٣٢ .

وفوقه بوستين وفوقه لبادة[1] وبرنس[2] لا تبدو منه إلا عيناه، وسراويل طاق[3]، وار مبطن وران[4]، وخُف كِيمُخت[5]، وفوق الخف خف آخر، فكان الواحد منا إذا ركب الجمل لم يقدر أن يتحرك لما عليه من الثياب.

وتأخر عنا الفقيه والمعلم والغلمان[6] الذين خرجوا معنا من مدينة السلام فزعاً من الدخول إلى ذلك البلد. وسرت أنا والرسول وسلف له، والغلامان تكين وبارس.

---

(١) اللبادة، بالضم وتشديد الباء: ما يلبس من اللبود وقاية من المطر والبرد.

(٢) برنس: هو في القاموس كل ثوب رأسه منه، دراعة كان أو جبة أو ممطراً، وهو معطف طويل له قلنسوة تلتصق به وتغطي الرأس كما في معجم الملابس لدوزي: ٧٤ .

(٣) السراويل: لباس يستر النصف الأسفل من الجسم، فارسي معرب، وهي مؤنثة وقد تذكر، جمعها سراويلات، وقيل السراويل جمع سروال أو سروالة. انظر الحضارة الإسلامية لمتز ٢ / ١٨٦ والطلق: ضرب من الثياب بغير جيب يلبسه المولود غالباً. وقيل: هو الطيلسان، ولكنه هنا فيما نرى أنه بغير بطانة.

(٤) ران: نوع من الأحذية جمعه رانات. (كذا شرحه المحقق ولعل المؤلف يريد نوعا من لباس الرجل مما يسمى اليوم بالجورب أو جورب لا قدم له كالكدتر كما اصطلح عليه مجمع اللغة العربية بدمشق، معجم متن اللغة).

(٥) كِيمُخْت، بكسر الكاف وسكون الياء وضم الميم، فارسي: نوع من الجلد لعله من جلد الخيل كما في تكملة المعاجم لدوزى ٢ / ٥٠٦ .

(٦) لم يذكر أسماء هؤلاء في بدء الرحلة، ولا نعرف من هم ولا مهمتهم، وهل في البعثة فقيه غير ابن فضلان؟

فلما كان في اليوم الذي عزمنا فيه على المسير قلت لهم: «ياقوم، معكم غلام الملك، وقد وقف على أمركم كله، ومعكم كتب السلطان، ولا أشك أن فيها ذكر توجيه أربعة آلاف دينار المسيبية[1] له، وتصيرون[2] إلى ملك أعجمي فيطالبكم بذلك» فقالوا: «لا تخش من هذا فإنه غير مطالب لنا». فحذرتهم وقلت: «أنا أعلم أنه يطالبكم» فلم يقبلوا.

واستدفّ[3] أمر القافلة، واكترينا دليلاً يقال له قلواس من أهل الجرجانية ثم توكلنا على الله ـ عز وجل ـ وفوضنا أمرنا إليه.

ورحلنا من الجرجانية يوم الإثنين لليلتين خلتا من ذي القعدة سنة تسع وثلاثمئة، فنزلنا رباطاً يقال له زمجان[4]، وهو بباب الترك، ثم رحلنا من الغد فنزلنا منزلاً يقال له جيت، وجاءنا الثلج حتى مشت الجمال إلى ركابها فيه، فأقمنا بهذا المنزل يومين.

---

(١) المسيبية: في ياقوت ١ / ٥١٩ عن بخارا: «وكانت سكتها تصاوير، وهي من ضرب الإسلام. وكانت لهم دراهم أُخر تسمى المسيبية والمحمدية».

(٢) لم يشرح ابن فضلان في تفصيل نية القوم في إخفاء الدراهم أ وفي اقتسامها وحجبها عن الملك ولكن السياق يدل على ذلك.

(٣) استدف الأمر: أي استتب واستقام، وهي بالدال والذال، واستدف هنا: تهيأ وأمكن وتسهل.

(٤) الرباطات كثيرة، ولم نقع على اسم هذا الرباط.

ثم أوغلنا في الترك لن نلوي على شيء، ولا يلقانا أحد، في برية قفر، بغير جبل.

فسرنا فيها عشرة أيام، ولقد لقينا من الضر والجهد والبرد الشديد وتواصل الثلوج الذي كان برد خوارزم عنده مثل أيام الصيف، ونسينا كل ما مر بنا، وأشرفنا على تلف الأنفس.

ولقد أصابنا في بعض الأيام برد شديد، وكان تكين يسايرني[1] وإلى جانبه رجل من الأتراك يكلمه بالتركية، فضحك تكين وقال: (إن هذا التركي يقول لك: أي شيء يريد ربنا منا؟ فقلت له: (قل له يريد منكم أن تقولوا (لا إله إلا الله) فضحك وقال: (لو علمنا لفعلنا).

ثم صرنا بعد ذلك إلى موضع فيه من حطب الطاغ شيء عظيم، فنزلناه وأوقدت القافلة واصطلوا، ونزعوا ثيابهم ونشروها.

ثم رحلنا، فما زلنا نسير في كل ليلة من نصف الليل إلى وقت العصر أو إلى الظهر بأشد سير يكون وأعظمه ثم ننزل.

فلما سرنا خمس عشرة ليلة وصلنا إلى جبل عظيم، كثير الحجارة وفيه عيون تتجرف عبره وبالحفرة تستقر الماء.

---

(١) سايره: جاراه وسار معه.

الأتراك الغزية

فلما قطعناه أفضينا إلى قبيلة من الأتراك يعرفون بالغزية[1] وإذا هم بادية، لهم بيوت شعر، يحلون ويرتحلون، ترى منهم الأبيات في كل مكان، ومثله في مكان آخر على عمل البادية وتنقلهم، وإذا هم في شقائهم مع ذلك كالحمير الضالة لا يدينون لله بدين، ولا يرجعون إلى عقل، ولا يعبدون شيئاً، بل يسمون كبراءهم أرباباً. فإذا استشار أحدهم رئيسه في شيء قال له: (يارب إيش أعمل في كذا وكذا؟) وأمرهم شورى بينهم، غير أنهم متى اتفقوا على شيء وعزموا عليه جاء أرذلهم وأخسهم فنقض ما قد اجمعوا عليه.

وسمعتهم يقولون: (لا إله إلا الله، محمد رسول الله) تقرباً بهذا القول إلى من يجتاز بهم من المسلمين لا اعتقادا لذلك.

---

(١) في ياقوت ١ / ٨٤٠: «وذكر أحمد بن محمد الهمذاني عن أبي العباس عيسى ابن محمد المروزي قال: لم نزل نسمع بالأمم التي من وراء النهر وغيرها من الكور الموازية لبلاد الترك الكفرة الغزية والتغزغزية والخزلجية».

وفي الأصطخري، طبعة ليدن ص: ٩ : «وديار الأتراك متميزة، فأما الغزية فإن حدود ديارهم ما بين الخزر وكيماك» وفي دائرة المعارف الإسلامية ٢ / ١٧٨ لبرتولد أن الغز سكنوا منذ القرن الرابع قرب بخارا ومشوا على أطراف الفولغا وإلى الدانوب وعمروا شرقي أوروبة. والسلجوقيون جاؤوا من الغز.

وإذا ظلم أحد منهم أو جرى عليه أمر يكرهه رفع رأسه إلى السماء وقال: (بير تنكري)، وهو بالتركية (الله الواحد) لأن (بير) بالتركية (واحد) و(تنكري) الله بلغة الترك.

ولا يستنجون من غائط ولا بول، ولا يغتسلون من جنابة ولا غير ذلك، وليس بينهم وبين الماء عمل خاصة في الشتاء، ولا تستتر نساؤهم من رجالهم ولا من غيرهم.

وليسوا يعرفون الزنا، ومن ظهروا منه على شيء من فعله شقوه بنصفين وذلك أنهم يجمعون بين أغصان شجرتين ثم يشدونه بالأغصان ويرسلون الشجرتين فينشق الذي شد إليهما.

وقال بعضهم، وسمعني أقرأ قرآنًا، فاستحسن القرآن وأقبل يقول للترجمان قل له: (لا تسكت). وقال لي هذا الرجل يوماً على لسان الترجمان: (قل لهذا العربي: ألربنا عز وجل امرأة؟) فاستعظمت ذلك وسبحت الله واستغفرته، فسبح واستغفر كما فعلت. وكذلك رسم التركي، كلما سمع المسلم يسبح ويهلل قال مثله.

ورسوم تزويجهم، وهو أن يخطب الواحد منهم إلى الآخر بعض حرمه، إما ابنته أو أخته، أو بعض ما يملك أمره على كذا وكذا ثوب خوارزمي، فإذا وافقه حملها إليه.

وربما كان المهر جمالاً أو دواب أو غير ذلك، وليس يصل الواحد إلى امرأته حتى يوفي الصداق الذي قد وافق وليها عليه، فإذا وفاه إياه جاء غير محتشم حتى يدخل إلى المنزل الذي هي فيه، فيأخذها بحضرة أبيها وأمها وأخواتها فلا يمنعونه من ذلك.

وإذا مات الرجل وله زوجة وأولاد تزوج الأكبر من ولده بامرأته إذا لم تكن أمه. ولا يقدر أحد من التجار ولا غيرهم أن يغتسل من جنابة بحضرتهم إلا ليلاً من حيث لا يرونه. وذلك أنهم يغضبون ويقولون: (هذا يريد أن يسحرنا لأنه قد تفرس[1] في الماء) ويغرمونه مالاً.

ولا يقدر أحد من المسلمين أن يجتاز ببلدهم حتى يجعل له منهم صديقاً ينزل عليه، ويحمل له من بلد الإسلام ثوباً، ولامرأته مقنعة[2] وشيئاً من فلفل وجاورس، وزبيب، وجوز. فإذا قدم على صديقه ضرب له قبة، وحمل إليه من الغنم على قدره، حتى يتولى المسلم ذبحها؛ لأن الترك لا يذبحون، وإنما يضرب الواحد منهم رأس الشاة حتى تموت.

---

(١) تفرس الرجل: إذا تثبت وتأمل ونظر، في الأصل.

(٢) المقنعة: غطاء من قماش يحمله الرجل والمرأة على رأسهما، ولعلهما برقع على وجه النساء كما في معجم الملابس لدوزي: ٣٦٦ . وفي ابن بطوطة .: باريس ٢ / ٣٨٨ في الحديث عن البلغار في الفولغا قوله: (وعلى رأس الوزيرة والحاجبة مقنعة حرير مزركش الحواشي بالذهب والجوهر).

وإذا أراد الرجل منهم الرحيل وقد قام عليه شيء من جماله ودوابه، أو احتاج إلى مال ترك ما قد قام عند صديقه التركي، وأخذ من جماله ودوابه وماله حاجته ورحل، فإذا عاد من الوجه الذي يقصده قضاه ماله، ورد إليه جماله ودوابه.

وكذلك لو اجتاز بالتركي إنسان لا يعرفه ثم قال: (أنا ضيفك وأنا أريد من جمالك ودوابك ودراهمك). دفع إليه ما يريد. فإن مات التاجر في وجهه ذلك وعادت القافلة لقيهم التركي وقال (أين ضيفي)؟ فإن قالوا: (مات) حط القافلة ثم جاء إلى أنبل تاجر يراه فيهم فحل متاعه وهو ينظر، فأخذ من دراهمه مثل ما له عند ذلك التاجر بغير زيادة حبة، وكذلك يأخذ من دوابه وجماله وقال: (ذلك ابن عمك وأنت أحق من غرم عنه). وإن فرَّ فعل أيضاً ذلك الفعل، وقال له: (ذلك مسلم مثلك: خذ أنت منه). وإن لم يوافق المسلم ضيفه في الجادة سأل عن بلاده: (أين هو)؟ فإذا أرشد إليه سار في طلبه مسيرة أيام حتى يصير إليه ويرفع ماله عنه، وكذلك من يهديه له.

وهذه أيضاً سبيل التركي إذا دخل الجرجانية سأل عن ضيفه فنزل عليه حتى يرتحل، ومتى مات التركي عند صديقه المسلم، واجتازت القافلة وفيها صديقه قتلوه وقالوا: (أنت قتلته بِحَبسك

إياه، ولو لم تَحبسه لما مات). وكذلك إن سقاه نبيذاً[1] فتردى[2] من حائط قتلوه به، فإن لم يكن في القافلة عمدوا إلى أجلّ من فيها فقتلوه.

فأول من لقينا من ملوكهم ورؤسائهم (ينال الصغير)[3] وكان قد أسلم ـ فقيل له: (إن أسلمت لم ترأسنا) فرجع عن إسلامه. فلما وصلنا إلى الموضع الذي هو فيه قال: (لا أترككم تجوزون لأن هذا شيء ما سمعنا به قط، ولا ظننا أنه يكون).

فرفقنا به إلى أن رضي بخفتان جرجاني يساوي عشرة دراهم، وشقه بلي بَاف[4]، وأقراص خبز وكف زبيب، ومئة جوزة. فلما دفعنا هذا إليه سجد لنا. وهذا رسمهم، إذا أكرم الرجل الرجل سجد له. وقال: لولا أن بيوتي نائية عن الطريق لحملت إليكم غنماً وبُرا»[5]. وانصرف عنا وارتحلنا.

---

(١) النبيذ: ما نبذ من عصير ونحوه، سمي به لأنه ينبذ أي: يترك حتى يشتد، ويلقى في الجرة حتى يغلي، جمعه أنبذه. وفي التاج: يقال للخمر المعتصر من العنب نبيذ.

(٢) تردى: سقط.

(٣) هو في تواريخهم (كجك ينال)، وهو ولي العهد. انظر مفاتيح العلوم للخوارزمي صفحة ٧٣.

(٤) البلي باف: لباس للمرأة، وفي أحسن التقاسيم للمقدسي ط أوروبة ص: ٣٢٣ (وأما التجارات فترتفع من نيسابور ثياب البيض الحفية والبيباف، والعمائم الشهجانية الحفية والمقانع).

(٥) البر بالضم: القمح، والواحدة برة.

فلما كان من غد لقينا رجل واحد من الأتراك، دميم الخليقة، رث الثياب، قميء المنظر، خسيس المخبر، وقد أخذنا مطر شديد فقال: «قفوا» فوقفت القافلة بأسرها ـ وهي نحو ثلاثة آلاف دابة وخمسة آلاف رجل ـ ثم قال: «ليس يجوز منكم أحد» فوقفنا طاعة لأمره. فقلنا له: «نحن أصدقاء كوذركين» فأقبل يضحك ويقول: «من كوذركين؟ أنا أخرى على لحية كوذركين» ثم قال: «بكند» يعني الخبز بلغة خوارزم، فدفعت إليه أقراصاً فأخذها وقال: «مروا، قد رحمتكم».

قال: وإذا مرض الرجل منهم، وكان له جوار وعبيد خدموه، ولم يقربه أحد من أهل بيته، ويضربون له خيمة ناحية من البيوت، فلا يزال فيها إلى أن يموت أو يبرأ، وإن كان عبداً أو فقيراً رموا به في الصحراء وارتحلوا عنه.

وإذا مات الرجل منهم حفروا له حفرة كبيرة كهيئة البيت، وعمدوا إليه فألبسوه قرطقه، ومنطقته، وقوسه، وجعلوا في يده قدحاً من خشب فيه نبيذ، وتركوا بين يديه إناء من خشب فيه نبيذ، وجاؤوا بكل ماله فجعلوه معه في ذلك البيت، ثم أجلسوه فيه فسقفوا البيت عليه، وجلعوا فوقه مثل القبة من الطين، وعمدوا إلى دوابه، على قدر كثرتها، فقتلوا منها مئة رأس إلى مائتي رأس إلى رأس واحد، وأكلوا لحومها إلاّ الرأس، والقوائم

والجلد والذنب، فإنهم يصلبون ذلك على الخشب، وقالوا: «هذه دوابه يركبها إلى الجنة». فإن كان قتل إنساناً، وكان شجاعاً، نحتوا صوراً من خشب على عدد من قتل، وجلعوها على قبره وقالوا: «هؤلاء غلمانه يخدمونه في الجنة».

وربما تغافلواعلى قتل الدواب يوماً أو يومين فيحثهم شيخ من كبارهم فيقول: «رأيت فلاناً ـ يعني الميت ـ في النوم فقال لي: «هوذا تراني وقد سبقني أصحابي، وشُقِّقَت رجلاي من اتِّباعي لهم، ولست ألحقهم، وقد بقيت وحدي». فعندها يعمدون إلى دوابه فيقتلونها ويصلبونها عند قبره، فإذا كان بعد يوم أو اثنين، جاءهم ذلك الشيخ وقال: «قد رأيت فلاناً، وقال: «عرف أهلي وأصحابي أني قد لحقت من تقدمني واسترحت من التعب»[١].

قال: والترك كلهم ينتفون لحاهم إلا أسبلتهم [٢]. وربما رأيت الشيخ الهرم منهم وقد نتف لحيته وترك شيئاً منها تحت ذقنه وعليه البوستين، فإذا رآه إنسان من بعد لم يشك أنه تيس.

(١) تعليق مايكل كرايتن: يعتقد (فرزان)، وهو أحد غلاة المعجبين بابن فضلان، أن هذه الفقرة تكشف عن «حساسية لا يتمتع بها إلا أنثربولوجي حديث. لا يسجل عادات قوم فقط، بل حتى الآليات الكامنة وراء تلك العادات. فالمعنى الاقتصادي لقتل خيل قائد قوم رحل يعادل تقريباً ضريبة الموت في العصر الحديث، والتي ترمي إلى تأخير تراكم الثروة الموروثة في يد عائلة ما، ورغم أنها مطلوبة دينياً، فلابد أنها كانت مكروهة، كما هو الحال معها اليوم. ويبين ابن فضلان بدقة كيف كانت تفرض تلك الضريبة على الكاره لها».

(٢) أسبله وسبال: جمع سبلة وهو الشارب.

وملك الترك الغزية يقال له (يبغو)[1]، وهو اسم الأمير، وكل من ملك هذه القبيلة فبهذا الاسم يسمى، ويقال لخليفته كوذركين، وكذا كل من يخلف رئيساً منهم يقال له: كوذركين.

ثم نزلنا بعد ارتحالنا من ناحية هؤلاء بصاحب جيشهم. ويقال له: «اترك بن القطغان»، فضرب لنا قباباً تركية، وأنزلنا فيها، وإذا له ضبنة[2] وحاشية وبيوت كبيرة وساق إلينا غنماً، وقاد دواب، لنذبح الغنم ونركب الدواب، ودعا هو جماعة من أهل بيته، وبني عمه فقتل لهم غنماً كثيرة.

وكنا قد أهدينا إليه هدية من ثياب وزبيب وجوز وفلفل وجاورس، فرأيت امرأته وقد كانت امرأة أبيه، وقد أخذت لحماً ولبناً وشيئاً مما أتحفناه به، وخرجت من البيوت إلى الصحراء، فحفرت حفيرة، ودفنت الذي كان معها فيها، وتكلمت بكلام، فقلت للترجمان: «ما تقول؟» قال: «تقول هذه هدية للقطغان أبي أترك، أهداها له العرب». فلما كان في الليل دخلت أنا والترجمان إليه وهو في قبته جالس، ومعنا كتاب (نذير الحُرَمي) إليه يأمره فيه بالإسلام ويحضه عليه، ووجه إليه خمسين ديناراً فيه عدة

---

(١) يبغو لقب الكثير من ملوك الأتراك.

(٢) ضبنة هي على وزن فرحة: العيال يضبطهم الرجل في كنفه وناحيته يقال: خرج في ضبنته، أي في أهله وعياله.

دنانير مسيب وثلاثة مثاقيل مسك، وجلود أديم، وثياب مروية[1] وقطعنا له منها قُرطَقَين، وخف أديم، وثوب ديباج، وخمسة أثواب حرير، فدفعنا إليه هديته، ودفعنا إلى امرأته مقنعة وخاتماً.

وقرأت عليه الكتاب فقال للترجمان: «لست أقول لكم شيئاً حتى ترجعوا، وأكتب إلى السلطان بما أنا عازم عليه». ونزع الديباجة التي كانت عليه ليلبس الخلع التي ذكرنا، فرأيت القرطق الذي تحتها وقد تقطع وسخاً، لأن رسومهم أنْ لا ينزع الواحد منهم الثوب الذي يلي جسده حتى ينتَثِر قطعاً، وإذا قد نتف لحيته كلها وسباله، فبقي كالخادم، ورأيت الترك يذكرون أنه أفرسهم. ولقد رأيت يوماً، وهو يسايرنا على فرسه، إذ مرت وزة طائرة فأوتر قوسه، وحرك دابته تحتها، ثم رماها فإذا هو قد أنزلها.

فلما كان في بعض الأيام وجَّه خلفَ القواد الذين يلونه وهم: «طرخان وينال، وابن أخيهما، وايلغزه، وكان طرخان أنبلهم وأجلّهم، وكان أعرج أعمى أشل، فقال لهم: «إن هؤلاء رسل ملك العرب إلى صهري ألمش بن شلكي، ولم يخير لي أن أطلقهم إلاَّ عن مشورتكم». فقال طرخان: «هذا شيء ما رأيناه قط، ولا سمعنا به، ولا اجتاز بنا رسول سلطان مذ كنا نحن وآباؤنا[2]، وما

---

(١) نسبة إلى مرو.

(٢) ولعل هذا دليل آخر على أن بعثة ابن فضلان هي الأولى من نوعها، وأن رجالها هم أول من وطئ البلاد وزارها من قبل بغداد.

أظن إلا أن السلطان قد أعمل الحيلة ووجه هؤلاء إلى الخزر ليستجيش بهم علينا، والوجه أن يقطع هؤلاء الرسل نصفين نصفين، ونأخذ ما معهم».

وقال آخر منهم: «لا بل نأخذ ما معهم ونتركهم عراة يرجعون من حيث جاؤوا». وقال آخر: «لا، ولكن لنا عند ملك الخزر أسراء فنبعث بهؤلاء نفادي بهم أولئك». فما زالوا يتراجعون بينهم هذه الأشياء سبعة أيام، ونحن في حالة الموت حتى أجمع رأيهم على أن يخلوا سبيلنا ونمضي، فخلعنا على طرخان خفتاناً مرويا وشقتين بلي باف، وعلى أصحابه كل واحد قرطقاً، وكذلك على ينال، ودفعنا إليهم فلفلاً وجاورس وأقراصاً من خبز وانصرفوا عنا.

ورحلنا حتى صرنا إلى نهرَ يغندي[1] فأخرج الناس سُفَرَهم[2] وهي من جلود الجمال فبسطوها، وأخذوا بالأثاث من الجمال التركية؛ لأنها مدورة فجعلوها في جوفها حتى تمتد، ثم حشوها بالثياب والمتاع فإذا امتلأت جلس في كل سفرة جماعة من خمسة وستة وأربعة وأقل وأكثر، ويأخذون بأيديهم خشب الخدنك[3]

---

(١) هو نهر ياغندي أويندي كما في مقالة المستشرق فراي ص ٢٦ إذا برسمه JA-GINDI وهو الآن نهر ZAYINDI فرع لنهر كيم EMBA .

(٢) قوارب جلد.

(٣) الخدنك: هو خشب الحر الأبيض كما في دوزي.

فيجعلونه كالمجاديف، ولا يزالون يجدفون والماء يحملها وهي تدُور حتى نعبر. فأما الدواب والجمال فإنه يصاح بها فتعبر سباحة، ولابد أ ن تعبر جماعة من المقاتلة ومعهم السلاح قبل أن يعبر شيء من القافلة ليكونوا طليعة للناس خيفة من الباشغرد[١] أن يكبسوا الناس وهم يعبرون. فعبرنا يغندي على هذه الصفة التي ذكرنا، ثم عبرنا بعد ذلك نهراً يقال له جام[٢] ثم اذل[٣] ثم اردن[٤] ثم وارش[٥] ثم اختى[٦] ثم وتبا[٧] وهذه كلها أنهار كبار.

ثم صرنا بعد ذلك إلى البجناك[٨] وإذا هم نزول على ماء شبيه بالبحر غير جار، وإذا هم سمر شديدو السمرة، وإذا هم محلقو اللحية، فقراء خلاف الغزية، لأنِّي رأيت من الغزية من يملك عشرة آلاف دابة، ومائة ألف رأس من الغنم، وأكثر ما ترعى

---

(١) الباشغرد: يقول ياقوت ١ / ٤٦٨ إن الباشغرد هم باش جردا وباش قرد من الأتراك، وهم شر هذه الأقوام، ثم يتحدث عنهم فينقل عن ابن فضلان كما سنرى بعد قليل.

(٢) جام: يرى «فرَاى» أنه نهر جيم، وسنأخذ عنه تحقيقاته في الأنهار التالية كما جاء في مقاله بالإنجليزية.

(٣) هو الآن نهر سجير.

(٤) هو الآن نهر اوبيل.

(٥) هو الآن نهر زاكسباي على الأغلب.

(٦) لعله اليوم نهر كالداغايتي.

(٧) لعله اليوم فرع من نهر آشي صاي.

(٨) البجاك: قبيلة من الأتراك.

من الغنم ما بين الثلج تبحث بأظلافها تطلب الحشيش، فإذا لم تجده قضمت الثلج فسمنت غاية السمن، فإذا كان الصيف وأكلت الحشيش هزلت، فنزلنا على البجناك يوماً واحداً.

ثم ارتحلنا فنزلنا على نهر جيخ[١] وهو أكبر نهر رأيناه، وأعظمه، وأشده جرية.

ولقد رأيت سفرة انقلبت فيه فغرق من كان فيها، وذهبت رجال كثير من الناس، وغرقت عدة جمال ودواب، ولم نعبره إلا بجهد.

ثم سرنا أياماً وعبرنا نهر جاخا[٢]، ثم بعده نهر ارخر[٣] ثم باجاغ[٤] ثم سمور[٥] ثم كنال[٦] ثم نهر سوخ[٧] ثم نهر كنجلو[٨].

*****

---

(١) رأى بعض المستشرقين أنه فرع جيحون.
(٢) نهر جاخا أو جاخان اسمه الآن جاغان، كما يرى فراي.
(٣) نهر ارخر لعله تالفوكا بين الأورال والفلولغا.
(٤) نهر باجاغ هو الآن موشا فرع للفولغا.
(٥) نهر سمور هو الآن سامار أو سمار.
(٦) نهر كينل.
(٧) هوسوك.
(٨) لعله الآن كوندورشا.

الأتراك الباشغارد

ووقفنا في بلد قوم من الأتراك يقال لهم الباشغرد، فحذرناهم أشد الحذر؛ وذلك أنهم شر الأتراك وأقذرهم، وأشدهم إقداماً على القتل، يلقى الرجل الرجل فيفرز[1] هامته ويأخذها ويتركه، وهم يحلقون لحاهم، ويأكلون القمل، يتتبع الواحد منهم درز قرطقه[2] فيقرض القمل بأسنانه، ولقد كان معنا منهم واحد قد أسلم، وكان يخدمنا فرأيته وجد قملة في ثوبه فقصعها[3] بظفره وقال لما رآني (جيد).

ومنهم من يزعم أن له اثني عشر رباً: للشتاء رب، وللصيف رب، وللمطر رب، وللريح رب، وللشجر رب، وللناس رب، وللدواب رب، وللماء رب، ولليل رب، وللنهار رب، وللموت رب، وللأرض رب، والرب الذي في السماء أكبرهم، إلا أنه يجتمع مع هؤلاء باتفاق، ويرضى كل واحد منهم بما يعمل شريكه. تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

---

(١) بمعني فسخ وشق وكسر.

(٢) الارتفاع الذي يحصل في الثوب إذا جمع طرفاه في الخياطة.

(٣) قصع القملة بظفره أو بين ظفريه: قتلها.

ورأينا طائفة منهم تعبد الحيّات، وطائفة تعبد السمك، وطائفة تعبد الكراكي[1] فعرَّفوني أنهم كانوا يحاربون قوماً من أعدائهم فهزموهم، وأن الكراكي صاحت وراءهم ففزعوا وانهزموا بعدما انتصروا فعبدوا الكراكي لذلك، وقالوا: «هذه ربنا وهذه فعالاته هزم أعداءنا»، فهم يعبدونها لذلك.

قال: وسرنا من بلد هؤلاء فعبرنا نهر جرمشان[2] ثم نهر أورن[3] ثم نهر أورم[4] ثم نهر باييناخ[5] ثم نهر وتيغ[6] ثم نهر نيسانه، ثم نهر جاوشيز[7]. وبين النهر والنهر ـ مما ذكرنا ـ اليومان والثلاثة والأربعة، وأقل من ذلك وأكثر.

فلما كنا من ملك الصقالبة[8] وهو الذي قصدنا له على مسيرة يوم وليلة، وجه لاستقبالنا الملوك الأربعة الذين تحت يده، وإخوته وأولاده، فاستقبلونا ومعهم الخبز، واللحم، والجاورس، وساروا معنا.

---

(١) طائر يقرب من الوز، ابتر الذنب، رمادي اللون، يأوي إلى الماء أحياناً.

(٢) ذكره فراي: ٢٧ GIRIMSAN.

(٣) هو الآن نهر أورانURAN .

(٤) هو الآن نهر أورهمUREM.

(٥) يري زكي وليدي انه نهر ماينا MAYNA.

(٦) هو الآن نهر اوتكاUTKA من الروسية UDGA كما يري كوفالفسكي.

(٧) يرى فراي أنه أكتاى.

(٨) انظر تقويم البلدان: ٢١٦، نخبة الدهر حيث يحددان موقع بلغار أو بلار.

فلما صرنا منه على فرسخين تلقانا هو بنفسه، فلما رآنا نزل فخر ساجداً شكراً لله جل وعز، وكان في كمه دراهم فنثرها علينا، ونصب لنا قباباً فنزلناها.

وكان وصولنا إليه يوم الأحد لاثنتي عشرة ليلة خلت من المحرم سنة عشرة وثلاثمائة، فكانت المسافة من الجرجانية إلى بلده سبيعين يوماً، فأقمنا يوم الأحد، ويوم الإثنين، ويوم الثلاثاء، ويوم الأربعاء، في القباب التي ضربت لنا حتى جمع الملوك والقواد وأهل بلده ليسمعوا قراءة الكتاب.

فلما كان يوم الخميس واجتمعوا، نشرنا المطردين اللذين كانا معنا، وأسرجنا الدابة بالسرج الموجه إليه. وألبسناه السواد[1] وعمَّمنَاه. وأخرجت كتاب الخليفة، وقلت له: «لا يجوز أن نجلس والكتاب يقرأ»، فقام على قدميه هو ومن حضر من وجوه أهل مملكته، وهو رجل بدين بطين[2] جداً.

وبدأت فقرأت صدر الكتاب، فلما بلغت منه: «سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو». قلت: «رد على أمير المؤمنين السلام» فردوا جميعاً بأسرهم، ولم يزل الترجمان يترجم لنا حرفاً حرفاً، فلما استتممنا قراءته كبروا تكبيرة ارتجت لها الأرض.

---

(١) من المعلوم أن السواد هو شعار العباسيين.

(٢) البطين: العظيم البدن.

ثم قرأت كتاب الوزير حامد بن العباس[1] وهو قائم ثم أمرته بالجلوس فجلس عند قراءة كتاب نذير الحرمي، فلما استتمته نثر أصحابه عليه الدراهم الكثيرة، ثم أخرجت الهدايا من الطيب والثياب واللؤلؤ لَهُ ولامرأته، فلم أزل أعرض عليه وعليها شيئاً حتى فرغنا من ذلك، ثم خلعت على امرأته بحضرة الناس، وكانت جالسة إلى جنبه، وهذه سنتهم وزِيُّهم، فلما خلعت عليها نثرت النساء عليها الدراهم، وانصرفنا.

فلما كان بعد ساعة وجه إلينا فدخلنا إليه، وهو في قبته، والملوك عن يمينه، وأمرنا أن نجلس عن يساره، وإذا أولاده جلوس بين يديه، وهو وحده على سرير مغشى بالديباج[2] الرومي، فدعا بالمائدة فقدمت، وعليها اللحم المشوي وحده.

فابتدأ هو فأخذ سكيناً وقطع لقمة وأكلها، وثانية، وثالثة، ثم احتز قطعة دفعها إلى سوسن الرسول، فلما تناولها جاءت مائدة

---

(١) حامد بن العباس: كان يتولى أعمال السواد، ثم وَزَرَ للمقتدر، وكان كريماً مفضلاً متجملاً سريع الطيش، كما يقول ابن الطقطقي في الفخري ص: ٣١٥ط: أوروبة وزر عام ٣٠٦ ـ ٣١١هـ، اشتغل بالتجارة، ثم عظم شأنه، ولما ولي الوزارة كان في الثمانين من العمر، ولم يكن نصيبه من الوزارة إلا اللقي والخلعة، وكان المدير للأمور علي بن عيسى الذي كان وزيراً من قبل. انظر الحضارة الإسلامية (لمتز) بالترجمة العربية.

(٢) الديباج الرومي: الحرير الرومي، مشهور معروف بجوته في القرن الرابع، وكان يجلب إلى بلدا المسلمين من فرنسا غالباً، كما أن ابن الفقيه ص:٢٧٠ والحضارة الإسلامية ٢ ص: ٣٠١ .

صغيرة فجعلت بين يديه، وكذلك الرسم، لا يمد أحد يده إلى الأكل حتى يناوله الملك لقمة، فساعة يتناولها قد جاءته مائدة، ثم ناولني فجاءتني مائدة، ثم قطع قطعة وناولها الملك الذي عن يمينه فجاءته مائدة، ثم ناول الملك الثاني فجاءته مائدة، ثم ناول الملك الرابع فجاءته مائدة، ثم ناول أولاده فجاءتهم الموائد.

وأكلنا كل واحد من مائدته لا يشركه فيها أحد، ولا يتناول من مائدة غيره شيئاً، فإذا فرغ من الطعام حمل كل واحد منهم ما بقي على مائدته إلى منزله.

فلما أكلنا دعا بشراب العسل وهم يسمونه السجو[1] ليومه وليلته، فشرب قدحاً ثم قام قائماً فقال: «هذا سروري بمولاي أمير المؤمنين ـ أطال الله بقاءه ـ» وقام الملوك الأربعة وأولاده لقيامه، وقمنا نحن أيضاً حتى إذا فعل ذلك ثلاث مرات، ثم انصرفنا من عنده.

وقد كان يخطب له على منبره قبل قدومي: «اللهم اصلح الملك يلطوار ملك بلغار» فقلت أنا له: «إن الله هو الملك، ولا يسمى على المنبر بهذا الاسم غيره ـ جل وعز ـ وهذا مولاك أمير

(١) السجو أو سوجو سوجي: لم نجد له ذكراً في معاجمنا، وقد حام حول تفسيره المستشرقون فرأوا أنه الخمر، ونحن نستبعد أن يشرب الشيخ ابن فضلان خمراً، ومع ذلك يقول ياقوت فشرب وشربنا قدحاً: انظر صفحة ١٠٧ التالية.

المؤمنين قد رضي لنفسه أن يقال على منابره في الشرق والغرب: «اللهم اصلح عبدك وخليفتك جعفر الإمام المقتدر بالله أمير المؤمنين»، وكذا من كان قبله من آبائه الخلفاء، وقد قال النبيﷺ «لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم، فإنما أنا عبد، فقولوا: عبدالله ورسوله» فقال لي: فكيف يجوز أن يخطب لي؟ فقلت: «باسمك واسم أبيك». قال: «إن أبي كان كافراً ولا أحب أن أذكر اسمه على المنبر، وأنا أيضاً فما أحب أن يذكر اسمي، إذ كان الذي سماني به كافراً، ولكن ما اسم مولاي أمير المؤمنين؟» قلت: «جعفر». قال: فيجوز أن لو أتسمى باسمه؟ قلت: نعم، قال: «قد جعلت اسمي جعفراً واسم أبي عبدالله فتقدَّم إلى الخطيب بذلك» ففعلت.

كان يخطب له: «اللهم واصلح عبدك جعفر بن عبدالله أمير بلغار مولى أمير المؤمنين».

ولما كان بعد قراءة الكتاب وإيصال الهدايا بثلاثة أيام، بعث إليَّ وقد كان بلغه أمر الأربعة آلاف دينار، وما كان من حيلة النصراني[١] في تأخيرها وكان خبرها في الكتاب.

---

(١) النصراني: وهو الفضل بن موسى كما مر بنا في الصفحة ١١٩ وهو وكيل ابن الفرات كان عليه أن يدفع ما يرتفع من القرية ولكنه احتال وسوَّف كما رأينا.

فلما دخلت إليه أمرني بالجلوس فجلست، ورمى إليَّ كتاب أمير المؤمنين فقال: «من جاء بهذا الكتاب؟» قلت: «أنا» ثم رمى إليَّ كتاب الوزير فقال: «وهذا أيضاً؟» قلت: «أنا» قال: «فالمال الذي ذكر فيهما ما فعل به؟» قلت: «تعذر جمعه وضاق الوقت وخشينا فوت الدخول فتركناه ليلحق بنا»، فقال: «إنما جئتم بأجمعكم، وأنفق عليكم مولاي ما أنفق لحمل هذا المال إليَّ حتى أبني به حصناً يمنعني من اليهود[1] الذين قد استعبدوني. فأما الهدية فغلامي قد كان يحسن أن يجيء بها» قلت: «هو كذلك إلا أنا قد اجتهدنا» فقال للترجمان: «قل له أنا لا أعرف هؤلاء، إنما أعرفك أنت، وذلك أن هؤلاء قوم عجم ولو علم الأستاذ[2] أيده الله أنهم يبلّغون ما تُبلِّغ ما بعث بك حتى تحفظ عليَّ[3] وتقرأ كتابي، وتسمع جوابي، ولست أطالب غيرك بدرهم فاخرج[4] من المال فهو أصلح لك».

---

(١) تحدث ابن حوقل عن الخزر، ج ٢ص ٣٨٩ فقال: أما الخزر فاسم الأقليم وقصبته تسمى اتل... والملك يهودي ويقال إن له من الحاشية نحو أربعة آلاف رجل والمقصود باليهود هُم الخزر كما قلنا. وفي نخبة الدهر لشيخ الربوة ص: ٢٦٣ عن الخزر أنهم مسلمون ويهود. وابن الأثير يقول إنهم أسلموا سنة ٢٥٤هـ وذكر سبب إسلامهم.

(٢) تسميته للخليفة بالأستاذ عجيبة، وقَوْلُهُ إنهم عجم أعجب، لأن ابن فضلان نفسه مولى أعجمي فيما نقدر.

(٣) لعله يريد: حتى تحتفظ على حقي.

(٤) اخرج من المال أو اخرج عنه: دوزي ١ / ٣٥٨ وخرج الرجل إلى فلان من دينه: قضاه إياه.

فانصرفت من بين يديه مذعوراً مغموماً، وكان رجلاً له منظر وهيبة، بدين، عريض كأنما يتكلم من خابية. فخرجت من عنده، وجمعت أصحابي، وعرفتهم ما جرى بيني وبينه، وقلت لهم: «من هذا حذرت».

وكان مؤذنه يثني الإقامة[1] إذا أذن فقلت له: «إن مولاك أمير المؤمنين، يُفردُ في داره الإقامة» فقال للمؤذن: «اقبل ما يقوله لك ولا تخالفه». فأقام المؤذن على ذلك أياماً وهو[2] يسائلني عن المال ويناظرني فيه وأنا أُويِّسه[3] منه وأحتج فيه. فلما يئس منه، تقدم إلى المؤذن أن يثني الإقامة، ففعل. وأراد بذلك أن يجعله طريقاً إلى مناظرتي، فلما سمعت تثنيته للإقامة نَهيته، وصحت عليه، فعرف الملك ذلك فأحضرني وأحضر أصحابي.

فلما اجتمعنا قال للترجمان: «قل له (يعنيني) ما يقول في مؤذنين أفرد أحدهما وثنَّى الآخر، ثُمَّ صلى كل واحد منهما بقوم

---

(١) جاء في مجمع الزوائد للهيثمي ١ / ٣٣٠: «وكان بلال يقيم للنبيﷺ فيفرد الإقامة وروى في غير هذا المكان الأذان على عهد الرسول كان مثنى مثنى والإقامة فرادى. وقد بحث المستشرقون ذلك في تعليقاتهم، والمستشرق جوين بول يرى أن الحنفية وحدهم كانوا يثنون، وأن غيرهم كان يفرد في الإقامة وحدها، وقد كتب في دائرة المعارف الإسلامية حول الأذان ١ / ١٣٥ وحول الإقامة ٢ / ٤٨٥ .

(٢) الضمير (هو) يعود على الملك طبعاً.

(٣) آيسه وآيسة أناس: جعله مثل يئس وإياس.

أتجوز الصلاة أم لا ؟ قلت: «الصلاة جائزة» فقال: «باختلاف أم بإجماع» قلت: «بإجماع» قال: «قل له فما يقول في رجل دفع إلى قوم مالاً لأقوام ضعفى محاصرين مستعبدين فخانوه؟» فقلت: «هذا لا يجوز وهؤلاء قوم سوء» قال: «باختلاف أم بإجماع» قلت: «بإجماع» فقال للترجمان: «قل له تعلم أن الخليفة أطال الله بقاءه لو بعث إليَّ جيشاً كان يقدر عليَّ؟» قلت: «لا» قال: «فأمير خراسان؟» قلت: «لا» قال: «أليس لبعد المسافة وكثرة من بيننا من قبائل الكفار؟» قلت: «بلى»، قال: «قل له فوالله إنيّ لَبِمَكَاني البعيد الذي تراني فيه، وإني لخائف من مولاي أمير المؤمنين، وذلك أني أخاف أن يبلغه عني شيء يكرهه، فيدعو عليَّ، فأهلك بمكاني وهو في مملكته، وبيني وبينه البلدان الشاسعة، وأنتم تأكلون خبزه وتلبسون ثيابه وترونه في كل وقت، خنتموه في مقدار رسالة بعثكم بها إليَّ، إلى قوم ضعفى، وخُنتم المسلمين، لا أقبل منكم أمرَ ديني حتى يجيئني من ينصح لي فيما يقول، فإذا جاءني إنسان بهذه الصورة قبلت منه.» فألجمنا وما أحرنا جواباً وانصرفنا من عنده.

قال: فكان بعد هذا القول يؤثرني، ويقربني، ويباعد أصحابي، ويسميني أبا بكر الصديق[1].

---

(١) لعل كنية ابن فضلان هي أبو بكر، فأضاف إليه الصديق لصدقه.

ورأيت في بلده من العجائب ما لا أحصيها كثرة. من ذلك: أن أوّل ليلة بتناها في بلده رأيت قبل مغيب الشمس بساعة قياسية[1] أفق السماء وقد احمرت احمراراً شديداً، وسمعت في الجو أصواتاً شديدة وهمهمة عالية، فرفعت رأسي فإذا غيم أحمر مثل النار قريب مني، وإذا تلك الهمهمة والأصوات منه، وإذا فيه أمثال الناس والدواب، وإذا في أيدي الأشباح التي فيه تشبه الناس رماح وسيوف أتبينها وأتخيلها، وإذا قطعة أخرى مثلها أرى فيها أيضاً رجلاً ودواب وسلاحاً فأقبلت هذه القطعة تحمل على هذه كما تحمل الكتيبة ففزعنا من ذلك وأقبلنا على التضرع والدعاء. وهم يضحكون منا ويتعجبون من فعلنا.

وكنا ننظر إلى القطعة تحمل على القطعة فتختلطان جميعاً ساعة ثم تفترقان. فما زال الأمر كذلك ساعة من الليل ثم غابتا. فسألنا الملك عن ذلك فزعم أن أجداده كانوا يقولون: «إن هؤلاء من مؤمني الجن وكفارهم وهم يقتتلون في كل عشية وإنهم ما عدموا هذا مذ كانوا في كل ليلة».

ودخلت أنا وخياط كان للملك[2] من أهل بغداد ـ قد وقع إلى تلك الناحية ـ قبّتي لنتحدث، فتحدثنا بمقدار ما يقرأ إنسان أقل

(١) لعل الساعة القياسية هي الساعة تماماً.
(٢) وهذا دليل آخر على أسبقية العرب في الحضارة وعلى مغامرة قمنا في ارتياد الأقطار سعياً وراء الرزق.

من نصف سبع، ونحن ننتظر أذان العتمة[١]، فإذا بالأذان، فخرجنا من القبة، وقد طلع الفجر. فقلت للمؤذن: (أي شيء أذنت؟) قال: (أذان الفجر). قلت: (فالعشاء الآخرة) قال : (نصليها مع المغرب). فقلت : (فالليل؟) قال: كما ترى. وقد كان أقصر من هذا إلاَّ أنه قد أخذ في الطول. وذكر أنه منذ شهر ما نام خوفاً أن تفوته صلاة الغداة، وذلك أن الإنسان يجعل القدر على النار وقت المغرب ثم يصلي الغداة وما آن لها أن تنضج.

ورأيت النهار عندهم طويلاً جداً، وإذا أنه يطول عندهم مدة من السنة ويقصر الليل، ثم يطول الليل ويقصر النهار. فلما كانت الليلة الثانية جلست خارج القبة وراقبت السماء فلم أر من الكواكب إلا عدداً يسيراً ظننت أنه نحو الخمسة عشر كوكباً متفرقة، فإذا الشفق الأحمر الذي قبل المغرب لا يغيب بتة، وإذا الليل قليل الظلمة يعرف الرجل الرجل فيه أكثر من غلوة سهم[٢].

ورأيت القمر لا يتوسط السماء، بل يطلع في أرجائها ساعة ثم يطلع الفجر فيغيب القمر.

---

(١) العتمة: العشاء.

(٢) غلوة سهم: الغلوة: الغاية، وهي رمية سهم أبعد ما يقدر عليه، ويقال: هي قدر ثلاثمئة ذراع إلى أربعمئة، جمعها غلوات وغلاء.

وحدثني الملك أن وراء بلده بمسيرة ثلاثة أشهر قوماً يقال لهم ويسو[1]، الليل عندهم أقل من ساعة.

ورأيت البلد عند طلوع الشمس يحمر كل شيء فيها من الأرض، والجبال وكل شيء ينظر الإنسان إليه حين تطلع الشمس كأنها غمامة كبرى، فلا تزال الحمرة كذلك حتى تتكبد السماء.

وعرَّفني أهل البلد أنه إذا كان الشتاء عاد الليل في طول النهار وعاد النهار في قصر الليل، حتى إن الرجل منا ليخرج إلى موضع يقال له اتل[2] ـ بيننا وبينه أقل من مسيرة فرسخ ـ وقت طلوع الفجر فلا يبلغه إلى العتمة، إلى وقت طلوع الكواكب كلها حتى تطبق السماء، فما برحنا من البلد حتى امتد الليل وقصر النهار.

ورأيتهم يتبركون بعواء الكلاب جداً، ويفرحون به، ويقولون: «سنة خصب وبركة وسلامة».

---

(١) في معجم البلدان لياقوت ٤ / ٩٤٤: (ويسو، بكسر أوله والسين مهملة و واو، بلاد وراء بلغار، بينها وبين بلغار ثلاثة أشهر). والمستشرق فرهن يعلق على هذه الكلمة تعليقات طويلة بالصفحة ٢٢٠ وما يليها ويرى أن ويسو هي روسيا البيضاء، وأنها قرب موسكو غربي ورنك، ومحصل تعليقه أن الكلمة تتركب من لفظين (أبيض) و(بحر) أو منطقة بيضاء.

(٢) يقول ياقوت ١ / ١١٢: اتل نهر عظيم شبيه بدجلة في بلاد الخزر، ويمر ببلاد الروس وبلغار، وقيل: اتل قصبة بلاد الخزر والنهر مسمى بها.

ورأيت الحيّات عندهم كثيرة حتى إن الغصن من الشجرة لتلتف عليه العشرة منها والأكثر، ولا يقتلونها ولا تؤذيهم، حتى لقد رأيت في بعض المواضع شجرة طويلة يكون طولها أكثر من مئة ذراع وقد سقطت وإذا بدنها عظيم جداً فوقفت أنظر إليه إذ تحرك فراعني ذلك، وتأملته فإذا عليه حيّة قريبة منه في الغلظ والطول، فلما رأتني سقطت عنه وغابت بين الشجر، فجئت فزعاً، فحدثت الملك ومن كان في مجلسه فلم يكترثوا لذلك، وقال: (لا تجزع فلن تؤذيك).

ونزلنا مع الملك منزلاً فدخلت أنا وأصحابي تكين، وسوسن، وبارس ومعنا رجل من أصحاب الملك بين الشجر فرأينا عوداً صغيراً أخضر كرقة المغزل وأطول، فيه عرق أخضر، على رأس العرق ورقة عريضة مبسوطة على الأرض، مفروش عليها مثل النابت[1]، فيها حب لا يشك من يأكله أنه رمان أمليس[2]، فأكلنا منه فإذا به من اللذة أمر عظيم، فما زلنا نتبعه ونأكله.

ورأيت لهم تفاحاً أخضر شديد الخضرة وأشد حموضة من خل الخمر، تأكله الجواري فيسمن عليه، ولم أر في بلدهم أكثر

---

(١) النابت: الطري من كل شيء حين ينبت صغيرا.

(٢) رمان أمليسي: حلو طيب لا عجم فيه أي: لا نواة له.

من شجر البندق، لقد رأيت منه غياضاً تكون الغيضة[1] أربعين فرسخاً في مثلها.

ورأيت لهم شجراً لا أدري ما هو، مفرط الطول وساقه أجرد من الورق ورؤوسه كرؤوس النخل، له خوص[2] دقاق، إلا أنه مجتمع، يجيئون إلى موضع يعرفونه من ساقه فيثقبونه، ويجعلون تحته إناء فيجري إليه من ذلك الثقب ماء أطيب من العسل إن أكثر الإنسان منه أسكره كما يسكر الخمر[3].

وأكثر أكلهم الجاورس[4] ولحم الدابة، على أن الحنطة والشعير كثير، وكل من زرع شيئاً أخذه لنفسه، ليس للملك فيه حق، غير أنهم يؤدون إليه في كل سنة من كل بيت جلد سمور[5]. وإذا أمر سرية بالغارة على بعض البلدان فغنمت كان له معهم حصة. ولابد لكل من يعترس أو يدعو دعوة من زَلَّة[6] للملك على

---

(١) الغيضة: الأجمة-ومجتمع الشجر في مغيض الماء، جمعه غياض وأغياض وغيضات.

(٢) الخوص: ورق النخل، مفردها خوصة.

(٣) لعله يعني بهذا الشجر قصب السكر. (بل هو شجر الميبل الذي يُستخرج منه قنديد تؤكل به الفطائرMaple).

(٤) شرحنا الكلمة في الصفحات السابقة.

(٥) السمور: حيوان بري يشبه السنور، يتخذ من جلده فراء ثمينة للينها وخفتها وإدفائها وحسنها، جمعه سمامير.

(٦) الزلة: الصنيعة، والعرس، والوليمة، وما تحمله من مائدة صديقك أو قريبك.

قدر الوليمة، وساخرخ[١] من نبيذ العسل، وحنطة رديئة، لأن أرضهم سوداء منتنة.

وليس لهم مواضع يجمعون فيها طعامهم، ولكنهم يحفرون في الأرض آباراً ويجعلون الطعام فيها، فليس يمضي عليه إلا أيام يسيرة حتى يتغير ويريح[٢] فلا ينتفع به.

وليس لهم زيت ولا شيرج[٣] ولا دهن بتة، وإنما يقيمون مقام هذه الأدهان دهن السمك، فكل شيء يستعملونه فيه يكون زفرا. ويعملون من الشعير حساء يحسوه[٤] الجواري والغلمان، وربما طبخوا الشعير باللحم، فأكل الموالي اللحم وأطعموا الجواري الشعير، وإلا أن يكون رأس تيس فيطعم من اللحم.

وكلهم يلبسون القلانس[٥] فإذا ركب الملك ركب وحده بغير غلام، ولا أحد يكون معه. فإذا اجتاز في السوق لم يبق أحد إلا

---

(١) ساخرخ، كما يقول وليدي وكنار: مقياس للسوائل.

(٢) هي من الرائحة السيئة الفاسدة هنا، ولعل الكلمة (يزنخ)، والدهن إذا زنخ فسد وتغير، وما تزال تستعمل في لغة العامة.

(٣) الشيرج: دهن السمسم.

(٤) حساه واحساه وحاساه تحسية وإحساء ومحساة: أشربه أياه.

(٥) القلانس: جمع قلنسوة، وهي لباس الرأس. قيل: إن أبا جعفر المنصور أمر بلبس القلانس. ولما اتّصل سكان أوروبا بالشرقيين أيام الحروب الصليبية نقلوا هذه القلانس الطوال ومعها الخمر وجعلوها لباس النساء ولما جاء المستعين سنة ٢٤٨هـ صغر القلانس. انظر الحضارة الإسلامية لمتز ٢ / ١٨٦ ومعجم الملابس لدوزي.

قام وأخذ قلنسوته عن رأسه فجعلها تحت إبطه، فإذا جاوزهم ردوا قلانسهم إلى رؤوسهم وكذلك كل من يدخل إلى الملك من صغير وكبير حتى أولاده وإخوته ساعة ينظرون إليه قد أخذوا قلانسهم فجعلوها تحت آباطهم، ثم أومؤوا إليه برؤوسهم، وجلسوا، ثم قاموا حتى يأمرهم بالجلوس. كل من يجلس بين يده فإنما يجلس باركاً ولا يخرج قلنسوته ولا يظهرها حتى يخرج من بين يديه فيلبسها عند ذلك.

وكلهم في قباب، إلا أن قبة الملك كبيرة جداً، تسع ألف نفس وأكثر مفروشة بالفرش الأرمني[1] وله في وسطها سرير مغشى بالديباج الرومي.

ومن رسومهم أنه إذا ولد لابن الرجل مولود أخذه جده دون أبيه وقال: (أنا أحق به من أبيه في حضنه حتى يصير رجلاً). وإذا مات منهم الرجل ورثه أخوه دون ولده. فعرفت الملك أن هذا غير جائز وعرفته كيف المواريث حتى فهمها.

وما رأيت أكثر من الصواعق في بلدهم، وإذا وقعت الصاعقة على بيت لم يقربوه ويتركونه على حالته وجميع من فيه من رجل ومال وغير ذلك حتى يتلفه الزمان، ويقولون: (هذا بيت مغضوب عليهم).

---

(١) الفرش الأرمني: مشهور، وكذلك البسط الأرمنية. انظر الحضارة الإسلامية لمتز ٢ / ٣٠٢.

وإذا قتل الرجل منهم الرجل عمداً أقادوه به[1]، وإذا قتله خطأ صنعوا له صندوقاً من خشب الخدنك وجعلوه في جوفه وسمروه عليه، وجلعوا معه ثلاثة أرغفة وكوز ماء، ونصبوا له ثلاث خشبات مثل الشبائح[2] وعلقوه بينها وقالوا: (نجعله بين السماء والأرض، يصيبه المطر والشمس، لعل الله أن يرحمه). فلا يزال معلقاً حتى يبليه الزمان وتهب به الرياح.

وإذا رأوا إنساناً له حركة ومعرفة بالأشياء قالوا: (هذا حقه أن يخدم ربنا)، فأخذوه وجعلوا في عنقه حبلاً وعلقوه في شجرة حتى يتقطع.

ولقد حدثني ترجمان الملك أن سندياً سقط إلَى ذلك البلد، فأقام عند الملك برهة من الزمان يخدمه، وكان خفيفاً فهماً، فأراد جماعة منهم الخروج فأراد الخروج معهم، فنهاه عن ذلك، فاستأذن السندي الملك في الخروج معهم، فنهاه عن ذلك، وألح عليه حتى أذن له، فخرج معهم في سفينة فرأوه حركاً كيساً فتآمروا بينهم وقالوا: (هذا يصلح لخدمة ربنا، فنوجه به إليه) واجتازوا في طريقهم بغيضة فأخرجوه إليها، وجعلوا في عنقه حبلاً، وشدوه في رأس شجرة عالية وتركوه ومضوا.

---

(١) أقادوه به : أي قتله قودا، والقود: القصاص.

(٢) الشبائح: عيدان معروضة في القت.

وإذا كانوا يسيرون في طريق فأراد أحدهم البول فبال وعليه سلاحه انتهبوه وأخذوا سلاحه وثيابه وجميع ما معه، وهذا رسم لهم، ومن حط عنه سلاحه وجعله ناحية وبال لم يعرضوا له.

وينزل الرجال والنساء إلى النهر فيغتسلون جميعاً عراة لا يستتر بعضهم من بعض، ولا يزنون بوجه ولا سبب، وما زنا منهم كائناً من كان إلا ضربوا له أربع سكك، وشدوا يديه ورجليه إليها، وقطعوا بالفأس من رقبته إلى فخذيه، وكذلك يفعلون بالمرأة أيضاً، ثم يعلق كل قطعة منه ومنها على شجرة.

وما زلت أجتهد أن يستتر النساء من الرجال في السباحة فما استوى لي ذلك، ويقتلون السارق كما يقتلون الزاني.

وفي غياضهم عسل كثير في مساكن النحل يعرفونها فيخرجون لطلب ذلك، فربما وقع عليهم قوم من أعدائهم فقتلوهم. وفيهم تجار كثير، يخرجون إلى أرض الترك فيجلبون الغنم، وإلى بلد يقال له (ويسكو) فيجلبون السمور والثعلب الأسود.

ورأينا فيهم أهل بيت[١] يكونون خمسة آلاف نفس من امرأة ورجل قد أسلموا كلهم، يعرفون بالبرنجار[٢]، وقد بنوا لهم مسجداً من خشب يصلون فيه، ولا يعرفون القراءة، فعلمت جماعة ما يصلون به.

وقد أسلم على يدي رجل يقال له طالوت، فأسميته عبدالله، فقال: (أريد أن تسميني باسمك محمد[٣]) ففعلت، وأسلمت امرأته وأمه وأولاده فسموا كلهم محمداً، وعلمته (الحمد لله) و(قل هو الله أحد) فكان فرحه بهاتين السورتين أكثر من فرحة أن صار ملك الصقالبة.

وكنا لما وافينا الملك وجدناه نازلاً على ماء يقال له خلجة[٤]، وهي ثلاث بحيرات، منها اثنتان كبيرتان وواحدة صغيرة، إلا أنه ليس في جميعها شيء يلحق غوره، وبين هذا الموضع وبين نهر لهم عظيم يصب إلى بلاد الخزر يقال له نهر (اتل) نحو الفرسخ. وعلى هذا النهر موضع سوق تقوم في كل مُدَيّدَةٍ، ويباع فيها المتاع الكثير النفيس.

---

(١) لعله يريد أهل عشيرة أو قبيلة.

(٢) لعله يقصد المونغول.

(٣) تحدثنا في المقدمة عن الكلمة، فالمؤلف اسمه أحمد بن فضلان لا محمد بن فضلان وقلنا ما فيه الكفاية هناك.

(٤) لم نستطع أن نجد الموضع في معاجم البلدان، فلعلها مصحفة عن خلخية كما ذكرها ابن الوردي في خريدة العجائب ص ٨٩ط: مصر ١٩٣٩، أو هي خليج من مدن الخزر كما في نخبة الدخر ص: ٢٦٣ .

وكان تكين حدثني أن في بلد الملك رجلاً عظيم الخلق جداً، فلما صرت إلى البلد، سألت الملك عنه، فقال: «نعم، قد كان في بلدنا ومات، ولم يكن من أهل البلد و لا من الناس أيضاً. وكان من خبره أن قوماً من التجار خرجوا إلى نهر (أتل)، وهو نهر بيننا وبينه يوم واحد كما يخرجون، وهذا النهر قد مدَّ وطغى ماؤه فلم أشعر يوماً إلى وقد وافاني جماعة من التجار، فقالوا: أيها الملك قد قفا على الماء رجل إن كان من أُمةٍ تقرب منا فلا مقام لنا في هذه الديار، وليس لنا غير التحويل.

فركبت معهم حتى صرت إلى النهر فإذا أنا بالرجل، وإذا هو بذراعي اثنا عشر ذراعاً، وإذا له رأس كأكبر ما يكون من القدور، وأنف أكثر من شبر، وعينان عظيمتان وأصابع تكون أكثر من شبر. فراعني أمره وداخلني من الفزع ما داخل القوم وأقبلنا نكلمه ولا يكلمنا، بل ينظر إلينا.

فحملته إلى مكاني، وكتبت إلى أهل ويسو، وهم منا على ثلاثة أشهر، أسألهم عنه، فكتبوا إليَّ يعرفونني أن هذا الرجل من يأجوج ومأجوج[1] ، وهم منا على ثلاثة أشهر، عراة يحول بيننا

(١) أرسل الخليفة الواثق بالله بعثة برية إلى سد يأجوج ومأجوج، وتحدث عنها سلام الترجمان بأسلوب ممتع، انظر ياقوت ٣ / ٥٣، وارجع إلى تاريخ ابن شاكر بالجزء الأول ففيه حديث مطول عنه وعن القوم.

وبينهم البحر لأنهم على شطه، وهم مثل البهائم ينكح بعضهم بعضاً، يخرج الله ـ عز وجل ـ لهم كل يوم سمكة من البحر، فيجيء الواحد منهم ومعه المدية فيحز منها قدر ما يكفيه ويكفي عياله، فإن أخذ فوق ما يقنعه اشتكى بطنه، وكذلك عياله تشتكي بطونهم، وربما مات وماتوا بأسرهم. فإذا أخذوا منها حاجتهم انقلبت ووقعت في البحر[1]، فهم في كل يوم على ذلك وبيننا وبينهم البحر من جانب، والجبال محيطة بهم من جوانب أخر والسد[2] أيضاً قد حال بينهم وبين الباب الذي كانوا يخرجون منه، فإذا أراد الله ـ عز وجل ـ أن يخرجهم إلى العمارات سبب لهم فتح السد، ونضب البحر، وانقطع عنهم السمك».

قال: فسألته عن الرجل فقال: «أقام عندي مدة فلم يكن ينظر إليه صبي إلا مات، ولا حامل إلا طرحت حملها. وكان إن تمكن من إنسان عصره بيديه حتى يقتله، فلما رأيت ذلك علقته في شجرة عالية حتى مات. إن أردت أن تنظر إلى عظامه ورأسه مضيت معك حتى تنظر إليها». فقلت: (أنا والله أحب ذلك) فركب معي إلى غيضة كبيرة فيها شجر عظام، فتقدمني إلى

---

(١) حكاية أكلهم السمك جاءت في ياقوت عن القوم ٣ / ٥٣: (قال: يقذف البحر إليهم في كل سنة سمكتين يكون بين رأس كل سمكة وذنبها مسيرة عشرة أيام أو أكثر) وكلها خرافات تتناقلها الكتب.

(٢) انظر خبر السد في ياقوت ٣ / ٥٣ .

شجرة سقطت عظامه ورأسه تحتها، فرأيت رأسه مثل القفير[١] الكبير، وإذا أضلاعه أكبر من عراجين[٢] النخل، وكذلك عظام ساقيه وذراعيه، فتعجبت منه وانصرفت.

قال: وارتحل الملك من الماء الذي يسمى خلجة إلى نهر يقال له جاوشيز[٣] فأقام به شهرين، ثم أراد الرحيل فبعث إلى قوم يقال لهم (سواز) يأمرهم بالرحيل معه فأبوا عليه وافترقوا فرقتين، فرقة مع ختنه، وكان قد تملك عليهم واسمه (ويرغ)[٤] فبعث إليهم الملك وقال: (إن الله ـ عز وجل ـ قد منَّ عليَّ بالإسلام[٥] وبدولة أمير المؤمنين، فأنا عبده، وهذه الأمة قلدتني، فمن خالفني لقيته بالسيف، وكانت الفرقة الأخرى مع ملك من قبيلة يعرف بملك (اسكل)، وكان في طاعته، إلا أنه لم يكن داخلاً في الإسلام.

فلما وجه إليهم هذه الرسالة خافوا ناحيته، فرحلوا بأجمعهم معه إلى نهر جاوشيز، وهو نهر قليل العرض، ويكون عرضه

---

(١) القفير: خلية النحل.

(٢) عراجين: جمع عرجون وهو أصل العذق الذي يعوج وتقطع منه الشماريخ فيبقى على النخل يابسا.

(٣) لم نستطع معرفته، وهو نهر وصفه ابن فضلان في الصفحة التالية ولعله فرع من نهر الكاما كما في كانار ص: ١١٠ .

(٤) الاسم غامض لم نهتد إليه في المصادر.

(٥) حام المستشرقون حول إسلام ملك الصقالبة وزمانه. والمسعودي يروي أن ابن ملك البلغار الصقالبة حج قبل عام ٣٢٠ وهو ببغداد وأكرمه القوم فيها.

خمسة أذرع، وماؤه إلى السرة، وفيه مواضع إلى الترقوة، وأكثره قامة، وحوله شجر كثير من الشجر الخدنك وغيره، وبالقرب منه صحراء واسعة، يذكرون أن بها حيواناً دون الجمل في الكبر، وفوق الثور، رأسه رأس جمل، وذنبه ذنب ثور، وبدنه بدن بغل، وحوافره مثل أظلاف الثور، له في وسط رأسه قرن واحد غليظ مستدير، كلما ارتفع دق حتى يصير مثل سنان الرمح، فمنه ما يكون طوله خمسة أذرع إلى ثلاثة أذرع إلى أكثر وأقل، يرتعي ورق الشجر جيد الخضرة، إذا رأى الفارس قصده، فإن كان تحته جواد أمن منه بجهده، وإن لحقه أخذه من ظهر دابته بقرنه ثم زج به في الهواء، واستقبله بقرنه[1] فلا يزال كذلك حتى يقتله. ولا يعرض للدابة بوجه ولا سبب، وهم يطلبونه في الصحراء والغياض حتى يقتلوه. وذلك أنهم يصعدون الشجر العالية التي يكون بينها، ويجتمع لذلك عدة من الرماة بالسهام المسمومة، فإذا توسطهم رموه حتى يثخنوه ويقتلوه.

وقد رأيت عند الملك ثلاث طَيفُورِيَات[2] كبار تشبه الجَزع اليماني عرفني أنها معمولة من أصل قرن هذا الحيوان. وذكر بعض أهل البلد أنه الكركدن.

---

(١) هذا هو الحيوان المعروف بوحيد القرن: الكركدن، اشتهر وجوده في الهند، له جثة الفيل وخلقة الثور. ذو حافر، على رأسه قرن واحد، كما يقول بعد قليل.

(٢) الطيفورية: صحن أو طبق عميق، كما في تكملة معاجم العرب لدورزي ج ٢ ص ٤٨، وفي ابن بطوطة ٢ / ٣٩١: (وبين أيديهن طيافير الذهب).

قال: وما رأيت منهم إنساناً يحمر، بل أكثرهم معلول، وربما يموت أكثرهم بالقولنج[١] حتى إنه ليكون بالطفل الرضيع منهم، وإذا مات المسلم عندهم أو زوج المرأة الخوارزمية غسلوه غسل المسلمين، ثم حملوه على عجلة تجره، وبين يديه مطرد[٢] حتى يصيروا به إلى المكان الذي يدفنونه فيه. فإذا صار إليه أخذوه عن العجلة وجعلوه على الأرض، ثم خطوا حوله خطا، ونحوه، ثم حفروا داخل ذلك الخط قبره، وجعلوا له لحدا، ودفنوه، وكذلك يفعلون بموتاهم.

ولا تبكي النساء على الميت، بل الرجال منهم يبكون عليه، يجيئون في اليوم الذي مات فيه فيقفون على باب قبته فيضجون بأقبح بكاء يكون وأوحشه.

هؤلاء للأحرار، فإذا انقضى بكاؤهم وافى العبيد ومعهم جلود مضفورة فلا يزالون يبكون ويضربون جنوبهم[٣] وما ظهر من أبدانهم بتلك السيور[٤] حتى تصير في أجسادهم مثل ضرب

---

(١) القولنج، بضم القاف أو فتحها: مرض مشهور معوي منسوب إلى المعي، مؤلم جداً يعسر معه خروج الثقل والريح.

(٢) المطرد: العلم كما شرحنا سابقاً.

(٣) الجنوب: جمع جنب وهو شق الإنسان.

(٤) السيور: مفردها سير وهو قدة من الجلد مستطيلة، وما تزال في لغة العامة إلى اليوم.

السوط، ولابد من أن ينصبوا بباب قبته مطردا، ويحضروا سلاحه. فيجعلونها حول قبره، ولا يقطعون البكاء سنتين. فإذا انقضت السنتان، حطوا المطرد، وأخذوا من شعورهم[1] ودعوا أقرباء الميت دعوة يعرف بها خروجهم من الحزن، وإن كانت له زوجة تزوجت. هذا إذا كان من الرؤساء، فأما العامة يفعلون بعض هذا بموتاهم.

وعلى ملك الصقالبة ضريبة يؤديها إلى ملك الخزر من كل بيت في مملكته جلد سمور.

وإذا قدمت السفينة من بلد الخزر إلى بلد الصقالبة ركب الملك فأحصى ما فيها وأخذ من جميع ذلك العشر، وإذا قدم الروس أو غيرهم من سائر الأجناس برقيق فللملك أن يختار من كل عشرة أرؤس رأساً.

وابن ملك الصقالبة رهينة عند ملك الخزر. وقد كان اتصل بملك الخزر عن ابنة ملك الصقالبة جمال فوجه بخطبها، فاحتج عليه وردَّه، فبعث وأخذها غصباً، وهو يهودي وهي مسلمة، فماتت عنده، فوجه يطلب بنتاً له أخرى. فساعة اتصل ذلك بملك

---

(١) أخذوا من شعورهم: أي قصوها. يقال أخذ من شاربه ومن شعره إذ قصه. وإطالة الشعر للحزن عندهم على عكس العرب، فهم إذا أطالوا الشعر فللفرح. وأبو فراس الحمداني في ديوانه حين يرثي أمه ينكر إطالة الشعر بعد موتها. انظر الديوان ٢ / ٢١٧ تحقيق سامي الدهان.

الصقالبة بادر فزوجها لملك إسكل، وهو من تحت يده خيفة أن يغتصبه إياها كما فعل بأختها، وإنما[1] دعا ملك الصقالبة أن يكاتب السلطان ويسأله أن يبني له حصناً خوفاً من ملك الخزر.

قال: وسألته يوماً فقلت له: (مملكتك واسعة، وأموالك جمة، وخراجك كثير، فلم سألت السلطان أن يبني حصناً بمال من عنده لا مقدار له؟) (رأيت دولة الإسلام مقبلة وأموالهم يؤخذ من حِلِّها[2] فالتمست ذلك لهذه العلة. ولو أني أردت أن أبني حصناً من أموالي من فضة أو ذهب لما تعذر ذلك عليَّ، وإنما تبركت بمال أمير المؤمنين، فسألته ذلك).

*****

(١) سنرى في الكلام على الخزر أن ملكهم يأخذ من بنات الملوك الذين يحاذونه ما يشتهي طوعاً أو كرهاً، وعنده من حلها: بِمعْنَى حلال ضدّ الحرام.

(٢) خمس وعشرون امرأة، فهي عادته مع كل جيرانه لا مع الصقالبة وحدهم.

الخــزر

فـأمـا مـلك الخـزر واسـمـه خـاقـان[١] فـإنه لا يظهـر إلا في كل أربعة أشهر متنزهاً، ويقال له خاقان الكبير، ويقال لخليفته خاقان به، وهو الذي يقـود الجيـوش ويسـوسـهـا ويدبر أمـر المملكة ويقـوم بهـا، ويظـهـر ويغـزو، وله تذعـن الملوك الذين يصـاقـبـونه[٢]، ويدخل كل يوم إلى خـاقـان الأكبـر متـواضـعـاً يظهـر الإخبـات والسكينة ولا يدخل عليـه إلا حـافـيـاً وبيده حطب، فـإذا سلم عليه أوقد بين يديه ذلك الحطب فـإذا فـرغ من الوقـود جلس مع الملك على سـريره عن يمينـه، ويخلفـه رجل يقـال لـه كندر خـاقـان[٣]، ويخلف هـذا أيضـاً رجل يقال له جاوشيغر[٤].

(١) وفي الاصطخـري: ٢٢ فـإن عظيـمـهم يسـمى خـاقـان خـزر، وهـو أجل من ملك الخزر هو الذي يقيمه، وإذا أرادوا أن يقيموا هذا الخاقان جاؤوا به فيخنقونه بحـريرة.. إلخ) والتـفـصيل فيـه عـام يجـدر الرجـوع إليـه، ويقـول: إن الخـزر لا يشبهون الأتراك فهم سود الشعور.

(٢) صـاقب: قـارب ودنا. وفي الأصطخـري ٢٢٤: (فـلا يراه أحـد من الأتراك ومن يصاقبهم من أصناف الكفر إلا انصرف ولم يقاتله تعظيماً له).

(٣) انظر حدود الألم طبعة مينورسكي لندن ١٩٣٧ ص: ٣٢٣ ـ ٣٢٤ .

(٤) في بعض المصادر (جاويشغر)، وكلمة (جاويش) تركية معروفة. انظر دوزي في تكملة معاجم العرب ودائرة المعارف الإسلامية ١ / ٨٦٤ .

ورسم الملك الأكبر أن لا يجلس للناس ولا يكلمهم، ولا يدخل عليه أحد غير من ذكرنا. والولايات في الحل والعقد والعقوبات وتدبير المملكة على خليفته خاقان به.

ورسم الملك الأكبر إذا مات أن يبني له داراً كبيرة فيها عشرون بيتاً، ويحفر له في كل بيت منها قبر، وتكسر الحجارة حتى تصير مثل الكحل، وتفرش فيه، وتطرح النورة[١] فوق ذلك، وتحت الدار نهر، والنهر كبير يجري، ويجعلون القبر فوق ذلك النهر، ويقولون: (حتى لا يصل إليه الشيطان ولا إنسان ولا دود ولا هوام).

وإذا دفن ضربت أعناق الذين يدفنونه حتى لا يدرى أين قبره من تلك البيوت، ويسمى قبره الجنة. ويقولون: (قد دخل الجنة). وتفرش البيوت كلها بالديباج المنسوج بالذهب.

ورسم ملك الخزر أن يكون له خمس وعشرون امرأة كل امرأة منهن ابنة ملك من الملوك الذين يحاذونه، يأخذها طوعاً أو كرهاً. وله من الجواري السراري لفراشه ستون، ما منهن إلاّ فائقة الجمال. وكل واحدة من الحرائر والسراري في قصر مفرد، لها قبة مغشاة بالساج[٢] ، وحول كل قبة مضرب[٣] ، ولكل منهن خادم

---

(١) النورة في الأصل: حجر الكلس، وقيل إنها عربية وقيل : معربة.

(٢) الساج: شجر يعظم جداً، لا ينبت إلا ببلاد الهند، وخشبه أسود رزين لا تكاد الأرض تبليه. جمعه سيجان، الواحدة ساجة.

(٣) المضرب: الساحة والمكان كما في معجم دوزي، قيل: هو الفسطاط العظيم جمعه مضارب.

يحجبها، فإذا أراد أن يطأ بعضهن بعث إلى الخادم الذي يحجبها فيوافي بها في أسرع من لمح البصر حتى يجعلها في فراشه، ويقف الخادم على باب قبة الملك، فإذا وطئها أخذ بيدها وانصرف ولم يتركها بعد ذلك لحظة واحدة.

وإذا ركب هذا الملك الكبير ركب سائر الجيوش لركوبه، وكان بينه وبين المواكب ميل، فلا يراه أحد من رعيته إلا خَرَّ لوجهه ساجداً له، لا يرفع رأسه حتى يجوزه.

ومدة ملكهم أربعون سنة إذا جاوزها يوماً واحداً قتلته الرعية وخاصته، وقالوا: (هذا قد نقص عقله واضطرب رأيه).

وإذا بعث سرية لم تول الدبر بوجه ولا سبب، فإن انهزمت قتل كل من ينصرف إليه منها. فأما القواد وخليفته فمتى انهزموا أحضرهم وأحضر نساءهم وأولادهم فوهبهم بحضرتهم لغيرهم وهم ينظرون. وكذلك دوابهم ومتاعهم وسلاحهم ودورهم، وربما قطع كل واحد منهم قطعتين وصلبهم. وربما علقهم بأعناقهم في الشجر، وربما جعلهم إذا أحسن إليهم ساسة.

وللملك الخزر مدينة عظيمة على نهر اتل وهي جانبان في أحد الجانبين المسلمون، وفي الجانب الآخر الملك وأصحابه.

وعلى المسلمين رجل من غلمان الملك يقال له خز، وهو مسلم، وأحكام المسلمين المقيمين في بلد الخزر والمختلفين إليهم في التجارات مردودة إلى ذلك الغلام المسلم لا ينظر في أمورهم، ولا يقضي بينهم غيره.

*****

أول اتصال بأهل الشمال

ورأيت الروسية[١]، وقد وافوا في تجارتهم، ونزلوا على نهر أتل، فلم أر أتم أبداناً منهم كأنهم النخل[٢] شقر حمر[٣]، لا يلبسون القراطق، ولا الخفاتين، ولكن يلبس الرجل منهم كساء يشمل به على أحد شقيه، ويخرج إحدى يديه منه، ومع كل واحد منهم فأس وسيف وسكين لا يفارقه جميع ما ذكرنا.

وسيوفهم صفائح مشطبة[٤] أفرنجية، ومن حد ظفر الواحد منهم إلى عنقه مخضر شجر وصور[٥] وغير ذلك.

---

(١) في الأصل أطلق ابن فضلان كلمة (روسية) على الإسكندينافيين وهو اسم قبيلة بعينها من قبائل الشمال.
وفي النص يدعوهم أحياناً (بالفرنجيين) إشارة إلى سلالتهم، ويستعمل المؤرخون اليوم كلمة (الفرنجيين) لمرتزقة الإسكندينافيين لدى الامبراطورية البيزنطية. ولتفادي الخلط في هذه الترجمة فقد استعمل (مايكل كرايتن) كلمة الشماليين أو أهل الشمال في سائر الترجمة.

(٢) وفي أمثال الميداني عن الأجسام: (ترى الفتيان كالنخل).

(٣) ينقل فرمن عن أخبار الدول لأبي العباس الدمشقي، مخطوطة في وصف الروس (وهم بيض شقر)، ويقول العرب غالباً عن البيض أنهم شقر، وفي نخبة الدهر: (وفي هذا الإقليم الترك، والخزر، والفرنج، والأرمنية، وباشغرد، ومن سامتهم، وهؤلاء يسمون الشقر).

(٤) الشطبة: طريقة السيف أي: الواحدة من الخطوط التي في نصله جمعها شطب.

(٥) علق (فرمن) على هذه الجملة مطولاً ص: ٧٦ فنقل إلينا ترجمة المستشرق =

وكل امرأة منهم فعلى ثديها حقة[1] مشدودة إما من حديد وإما من فضة وإما من نحاس وإما من ذهب، على قدر مال زوجها ومقداره، وفي كل حقة حلقة فيها سكين مشدودة على الثدي أيضاً. وفي أعناقهن أطواق من ذهب وفضة[2] لأن الرجل إذا ملك عشرة آلاف درهم صاغ لامرأته طوقاً، وإن ملك عشرين ألفا صاغ لها طوقين، وكذلك كل عشرة آلاف يزدادها يزداد طوقاً لامرأته. فربما كان في عنق الواحدة منهن الأطواق الكثيرة.

وأجل الحلي عندهم الخرز[3] الأخضر من الخزف الذي يكون على السفن يبالغون فيه، ويشترون الخرزة بدرهم، وينظمونه عقودا لنسائهم.

= (ده ساس) بما خلاصته أن الواحد منهم: (موشوم) من ظفر رجله إلى رقبته بصور تمثل الأشجار، والأشكال. أي أن أجسامهم طبعت عليها الصور من أخمص القدم إلى الرأس مثل اللوحة كما يقول القدماء، وفي قصة ألف ليلة وليلة قريب من هذا وكتبت سائر جسده فصار كأنه ورد أحمر على صفائح المرمر) انظر الطبعة الروسية ص: ١٣٢ .

(١) الحُقَّة بالضم: وعاء من الخشب، وقد تسوى من العاج، وقد ذكرها عمرو بن كلثوم في معلقته فقال: (وثديا مثل حق العاج رخصا).

(٢) تحدث المستشرق فرمن ص: ٧٨ عن الذهب والفضة ووصولهما إلى روسيا وضرب العملة، وكلامه هام يجدر الرجوع إليه لمعرفة تبادل الدراهم والعملة أيام العباسيين لذلك الزمان، وما وجد منها في المتاحف.

(٣) الخرز: ما ينظم في السلك من الجزع والودع أو من فصوص الحجارة الكريمة والخرزات: جواهر التاج. وفي القاموس: (خرزات الملك) جواهر تاجه، كان الملك إذا ملك عاماً زيدت في تاجه خرزة ليعلم سني ملكه). =

وهم أقذر خلق الله، لا يستنجون من غائط ولا بول، ولا يغتسلون من جنابة، ولا يغسلون أيديهم من الطعام، بل هم كالحمير الضالة، يجيئون من بلدهم فيرسون سفنهم بأتل، وهو نهر كبير، ويبنون على شطه بيوتاً كباراً من الخشب.

ويجتمع في البيت الواحد العشرة والعشرون والأقل والأكثر، ولكل واحد سرير[1] يجلس عليه، ومعهم الجواري الروقة[2] للتجار، فينكح الواحد جاريته ورفيقه ينظر إليه، وربما اجتمعت الجماعة منهم على هذه الحال بعضهم بحذاء بعض، وربما يدخل التاجر عليهم ليشتري من بعضهم جارية، فيصادفه ينكحها فلا يزول عنها حتى يقضي أربه.

ولابد لهم في كل يوم من غسل وجوههم ورؤوسهم بأقذر ماء يكون وأطفسه[3] ، وذلك أن الجارية توافي كل يوم بالغداة، ومعها قصعة كبيرة من ماء، فتدفعها إلى مولاها فيغسل فيها يده ووجهه

= انظر تعليقات فرمن ص: ٨٦ ـ ٩١ عن الكتب في الخرز ومواقع وجوده. وقد شرح الخزف بأنه كل ما عمل من طين وشوي بالنار حتى يكون فخارا، ثم أورده ترجمة المستشرقين لهذه الجملة بما يخص السفن، وأحال إلى كتب الرحلة عن الفرس وأرمينية.

(١) السرير: المقعد أو الديوان أو الصفة.

(٢) الجواري الروقة: هن الجواري الجميلات يرقن للناس.

(٣) الطفس: القذر النجس.

وشعر رأسه، فيغسله ويسرحه بالمشط في القصعة ثم يتمخط ويبصق فيها، ولا يدع شيئاً من القذر إلا فعله في ذلك الماء، فإذا فرغ مما يحتاج إليه حَمَلَت الجارية القصعة إلى الذي إلى جانبه، ففعل مثل فعل صاحبه. ولا تزال ترفعها من واحد إلى واحد حتى تديرها على جميع من في البيت، وكل واحد منهم يتمخط ويبصق فيها ويغسل وجهه وشعره فيها[1].

وساعة توافي سفنهم إلى هذا المرسى يخرج كل واحد منهم ومعه خبز ولحم وبصل ولبن ونبيذ[2] حتى يوافي خشبة طويلة منصوبة، لها وجه يشبه وجه الإنسان، وحولها صور صغار، وخلف تلك الصورة خشب طوال قد نصبت في الأرض، فيوافي إلى الصورة الكبيرة ويسجد لها ثم يقول لها: (يارب قد جئت من بلد بعيد، ومعي من الجواري كذا وكذا رأساً، ومن السمور كذا وكذا جلداً). حتى يذكر جميع ما قدم معه من تجارته، ثم يقول:

(١) مثل هذا الطشت موجود بالمغرب مع فارق هام قد لا يكون ابن فضلان لاحظه عند أهل الشمال: وهو أنه مغطى بغطاء مثقوب ومزخرف بحيث ينزل الماء النظيف من إبريق تمكسه الخادم بيمناها على يد الشخص، ويختفي عن الأنظار من الثقوب إلى قعر الطشت. وبالغطاء مكان للصابون ويسمى (الطاس). المترجم.

(٢) يعلق قرمن ص:٩٧ على نبيذ فينقل آراء زملائه بأنه قد يتخذ من التمر، أو هو كما في رحلة عبداللطيف البغدادي: (وشرابهم المرز، وهو نبيذ يتخذ من القمح).

(وجئتك بهذه الهدية). ثم يترك الذي معه بين يدي الخشبة ويقول: (أريد أن ترزقني تاجراً معه دنانير ودراهم كثيرة فيشتري مني كل ما أريد ولا يخالفني فيما أقول). ثم ينصرف.

فإن تعسر عليه بيعه وطالت أيامه عاد بهدية ثانية وثالثة، فإن تعذر ما يريد حمل إلى كل صورة من تلك الصور الصغار هدية وسألها الشفاعة وقال: (هؤلاء نساء ربنا وبناته وبنوه). فلا يزال يطلب إلى صورة صورة يسألها ويستشفع به ويتضرع بين يديها، فربما تسهل له البيع فباع فيقول: (قد قضى ربي حاجتي وأحتاج أن أكافيه).

فيعمد إلى عدة من الغنم أو البقر فيقتلها ويتصدق ببعض اللحم، ويحمل الباقي فيطرحه بين يدي تلك الخشبة الكبيرة والصغار التي حولها. ويعلق رؤوس البقر أو الغنم على ذلك الخشب المنصوب في الأرض. فإذا كان الليل وافت الكلاب فأكلت جميع ذلك. فيقول الذي فعله: (قد رضي ربي عني وأكل هديتي).

ومن رسم ملك الروس أن يكون معه في قصره أربعمئة رجل من صناديد أصحابه وأهل الثقة عنده، فهم يموتون بموته، ويقتلون دونه، ومع كل واحد منهم جارية تخدمه وتغسل رأسه، وتصنع له ما يأكل ويشرب، وجارية أخرى يطؤها، وهؤلاء

الأربعمئة يجلسون تحت سريره[1] ، وسريره عظيم مرصع بنفيس الجوهر. ويجلس معه على السرير أربعون جارية لفراشه، وربما وطئ الواحدة منهن بحضرة أصحابه الذين ذكرنا.

ولا ينزل عن سريره، فإذا أراد قضاء حاجة قضاها في طشت[2]، وإذا أراد الركوب قدموا دابته إلى السرير فركبها منه. وإذا أراد النزول قدم دابته حتى يكون نزوله عليه.. وله خليفة يسوس الجيوش ويواقع الأعداء ويخلفه في رعيته.

وهذه عادة أهل الشمال كما شاهدتها بعيني.

وعند قدومنا عليهم كان بينهم بعض الشنآن سببه أن رئيسهم المدعو (ويغليف) كان قد مرض، فضربوا له خيمة ناحية عنهم، وطرحوه فيها، وجعلوا معه شيئاً من الخبز والماء، ولم يقربه أحد أو يكلمه، ولم يتعهّدوه في كل أيام مرضه. ولم يطعمه العبيد، لأن أهل الشمال يعتقدون أن الرجل لابد أن يشفى بمحض قوته، وكثير منهم كانوا يعرفون أن (ويغليف) لن يعود إليهم بالمعسكر أبداً بل إنه سيموت.

---

(١) السرير: التخت، ويغلب على تخت الملك لما يجلب من سرور، جمعه أسرة وسرر.

(٢) الطشت أو الطست: إناء من نحاس لغسل اليد مؤنثة، جمعها طسوت.

واختير من بينهم شاب من الأعيان يُدعَى: (بوليويف) ليكون زعيمهم، ولكن البعض لم يقبلوه لأن الرئيس المريض كان ما يزال حياً، وكان هذا سبب التذمر الذي وجدناه وقت حلولنا بينهم، ومع ذلك فلم نر أثراً للحزن والبكاء بين هؤلاء المخيمين على ضفاف (الفولغا).

ويعطي أهل الشمال أهمية خاصة لدور المضيف. فهم يستقبلون ضيوفهم بحرارة وإكرام، ويقدمون لهم كثيراً من الطعام والثياب، ويتنافس الأعيان على من سيكون له شرف أعظم ضيافة.

وجيء بركب قافلتنا إلى بوليويف، فأقام لنا مأدبة فاخرة، وترأسها بنفسه. ورأيت أنه رجل طويل وقوي، وله جلد ناصع البياض كشعره ولحيته، وعليه سيماء الزعامة.

واعترافاً منا بتشريف المأدبة أقبلنا إقبالاً كبيراً على الأكل، رغم أنه كان رديئاً جداً، والشماليون يأكلون بطريقة يسودها كثير من التراشق بالطعام، وإراقة الشراب، والضحك والمرح. ويعتبر شيئاً عادياً أن يقدم أحد الأعيان على إحدى الجواري في وسط المأدبة على مرأى من رفاقه الحاضرين.

وحين رأيت ذلك أشحت بوجهي وقلت: (أستغفر الله) فضحك الشماليون لامتعاضي. وقال لي أحدهم: (أنتم العرب مثل العجائز ترتعدون لرؤية الحياة).

فقلت مجيباً: (أنا ضيف بينكم، وسوف يهديني الله إلى طريق الصواب).

ومن عادة الشماليين تقديس حياة الحرب. فهؤلاء الرجال الضخام يتقاتلون باستمرار، ولا يعرفون السلام سواء فيما بينهم أو مع غيرهم من قبائلهم. وهم يتغنون بأناشيد الحرب والشجاعة، ويعتبرون موت المحارب أعظم شرف.

وقد غنى أحدهم أثناء مأدبة بوليويف أغنية حرب وشجاعة طربوا لها كثيراً رغم قلة استماعهم إليها؛ ذلك لأن شرابهم القوي يجعل منهم حيوانات وحُمُراً مستنفرة. ففي وسط الأغنية حدث تراشق بالأشياء، وعراك مُميت بين محاربين سكرانين. ولم يتوقف المغني عن غنائه رغم كل ما حدث. وقد رأيت رشاش الدم يلطخ وجهه فيمسحه دون أن يتوقف.

وكان يقال لي إنهم يفعلون برؤسائهم عند الموت أموراً أقلها الحرق، فكنت أحب أن أقف على ذلك حتى بلغني موت رجل منهم جليل، فجعلوه في قبره، وسقفوا عليه عشرة أيام حتى فرغوا من قطع ثيابه وخياطتها.

وذلك أن الرجل الفقير منهم يعملون له سفينة صغيرة، ويجعلونه فيها ويحرقونها، والغني يجمعون ماله ويجعلونه ثلاث

ثلاث: فثلث لأهله، وثلث يقطعون له به ثياباً، وثلث ينبذون به نبيذاً يشربونه يوم تقتل جاريته نفسها وتحرق مع مولاها.

وهم مستهترون بالنبيذ، يشربونه ليلاً ونهاراً، وربما مات الواحد منهم والقدح في يده. وإذا مات الرئيس منهم قال أهله لجواريه وغلمانه: (من منكم يموت معه؟) فيقول بعضهم: (أنا). فإذا قال ذلك فقد وجب عليه، لا يستوي له أن يرجع أبداً، ولو أراد ذلك ما تُرك، وأكثر من يفعل هذا الجواري.

فلما مات ذلك الرجل الذي قدمت ذكره - ويغليف - قالوا لجواريه: (من يموت معه) فقالت إحداهن: (أنا)، فوكلوا بها جاريتين تحفظانها وتكونان معها حيث سلكت، حتى إنهما ربما غسلتا رجليها بأيديهما. وأخذوا في شأنه وقطع الثياب له، وإصلاح ما يحتاج إليه، والجارية في كل يوم تشرب وتغني فرحة مستبشرة.

فلما كان اليوم الذي يحرق فيه هو والجارية حضرتُ إلى النهر الذي فيه سفينته فإذا هي قد أخرجت وجعل لها أربعة أركان من خشب الخدنك وغيره، وجعل أيضاً حولها مثل الأنابير[1] الكبار من الخشب، ثم مدت حتى جعلت على ذلك

---

(١) الأنابير: جمع أنبار أو إنبير: الجسر الذي يوضع للسفينة. فارسية معربة.

الخشب، وأقبلوا يذهبون ويجيئون ويتكلمون بكلام لا أفهمه، وهو بعد في قبره لم يخرجوه، ثم جاؤوا بسرير فجعلوه على السفينة وغشوه بالمضربات[1] الديباج الرومي، والمساند الديباج الرومي، ثم جاءت امرأة عجوز يقولون لها ملك الموت، ففرشت على السرير الفرش التي ذكرنا، وهي وليت خياطته وإصلاحه، وهي التي تقتل الجواري.

ورأيتها جوان بيرة، ضخمة، مكفهرة.

فلما وافوا قبره نحوا التراب عن الخشب ونحوا الخشب، واستخرجوه في الإزار الذي مات فيه، فرأيته قد أسود لبرد البلد، وقد كانوا جعلوا معه في قبره نبيذا وفاكهة وطنبورا، فأخرجوا جميع ذلك، فإذا هو لم ينتن ولم يتغير منه شيء غير لونه.

فألبسوه سراويل[2]، ورانا، وخفاً، وقرطقا وخفتان ديباج له أزرار ذهب، وجعلوا على رأسه قلنسوة ديباج سمورية، وحملوه حتى أدخلوه القبة التي على السفينة، وأجلسوه على المضربة، وأسندوه بالمساند وجاؤوا بالنبيذ والفاكهة والريحان فجعلوه معه.

---

(١) المساند والحشايا.

(٢) جوارب.

وجاؤوا بجميع سلاحه فجعلوه إلى جانبه، ثم أخذوا دابتين فأجروهما حتى عرقتا، ثم قطعوهما بالسيف وألقوا لحمهما في السفينة.

ثم جاؤوا ببقرتين فقطعوهما أيضاً وألقوهما فيها، ثم أحضروا ديكاً ودجاجة فقتلوهما وطرحوهما فيها.

والجارية التي تريد أن تُقتل ذاهبة وجائية تدخل قبة قبة من قبابهم، فيجامعها صاحب القبة ويقول لها :(قولي لمولاك إنما فعلت هذا من محبتك).

فلما كان وقت العصر من يوم الجمعة جاؤوا بالجارية إلى شيء قد عملوه مثل ملبن الباب[1] فوضعت رجليها على أكف الرجال، وأشرفت على ذلك الملبن، وتكلمت بكلام لها، فأنزلوها، ثم أصعدوها ثانية ففعلت كفعلها في المرة الأولى، ثم أنزلوها وأصعدوها ثالثة، ففعلت فعلها في المرتين، ثم دفعوا إليها دجاجة فقطعت رأسها ورمت به، وأخذوا الدجاجة فألقوها في السفينة.

فسألت الترجمان عن فعلها فقال: (قالت في أول مرة أصعدوها هو ذا أرى أبي وأمي، وقالت في الثانية: هوذا أرى جميع قرابتي الموتى قعوداً، وقالت في المرة الثالثة: هوذا أرى

(١) قالب الآجر: وهو هنا خدود الباب أو دفتاها.

مولاي قاعداً في جنة حسنة خضراء، ومعه الرجال والغلمان، وهو يدعوني فاذهبوا بي إليه). فمروا بها نحو السفينة فنزعت سِوَارَين كانا عليها ودفعتهما إلى المرأة التي تسمى ملك الموت وهي التي تقتلها، ونزعت خلخالين كانا عليها ودفعتهما إلى الجارتين اللتين كانتا تخدمانها، وهما ابنتا المرأة المعروفة بملك الموت.

ثم أصعدوها إلى السفينة ولم يدخلوها إلى القبة، وجاء الرجال ومعهم التراس[1] والخشب، ودفعوا إليها قدحاً نبيذاً فغنت عليه وشربته، فقال لي الترجمان: (إنها تودع صاحباتها بذل). ثم دفع إليها قدح آخر، فأخذته وطولت الغناء والعجوز تستحثها على شربه والدخول إلى القبة التي فيها مولاها، فرأيتها وقد تبلدت وأرادت دخول القبة، فأدخلت رأسها بينها وبين السفينة، فأخذت العجوز رأسها وأدخلتها القبة ودخلت معها.

وأخذ الرجال يضربون بالخشب على التراس لئلا يسمع صوت صياحها فيجزع غيرها من الجواري، ولا يطلبن الموت مع مواليهن، ثم دخل إلى القبة ستة رجال فجامعوا بأسرهم الجارية، ثم أضجعوها إلى جانب مولاها، وأمسك اثنان رجليها واثنان يديها، وجعلت العجوز التي تسمى ملك الموت في عنقها حبلاً مخالفاً، ودفعته إلى اثنين ليجذباه وأقبلت ومعها خنجر عريض

---

(١) التراس: جمع ترس للوقاية من ضربات السيوف.

النصل فأقبلت تدخله بين أضلاعها موضعاً وتخرجه والرجلان يخنقانها بالحبل حتى ماتت.

ثم وافى أقرب الناس إلى ذلك الميت فأخذ خشبة وأشعلها بالنار ثم مشى القهقري نحو قفاه إلى السفينة، ووجهه إلى الناس، والخشبة المشتعلة في يده الواحدة ويده الأخرى على باب أسته، وهو عريان حتى أحرق الخشب المعبأ الذي تحت السفينة من بعد ما وضعوا الجارية التي قتلوها في جنب مولاها.

ثم وافى الناس بالخشب والحطب، ومع كل واحد خشبة قد ألهب رأسها فيلقيها في ذلك الخشب، فتأخذ النار في الحطب، ثم في السفينة، ثم في القبة، والرجل والجارية وجميع ما فيها، ثم هبت ريح عظيمة هائلة فاشتد لهب النار واضطرم تَسَعرها.

وكان إلى جانبي رجل من الروسية فسمعته يكلم الترجمان الذي معي فسألته عمّا قال له فقال: (إنه يقول: أنتم يا معاشر العرب حمقى). فقلت: (لم ذلك؟ قال: (إنكم تعمدون إلى أحب الناس إليكم وأكرمهم عليكم فتطرحونه في التراب، وتأكله التراب والهوام والدود، ونحن نحرقه بالنار في لحظة فيدخل الجنة من وقته وساعته).

ثم ضحك ضحكاً مفرطاً فسألت عن ذلك فقال: (من محبة ربه له قد بعث الريح حتى تأخذه في ساعة). فما مضت على

الحقيقة ساعة حتى صارت السفينة والحطب والجاري والمولى رماداً رمدداً.

ثم بنوا على موضع السفينة، وكانو قد أخرجوها من النهر شبيهاً بالتل المدور، ونصبوا في وسطه خشبة كبيرة خدنك، وكتبوا عليها اسم الرجل واسم ملك الروس وانصرفوا.

*****

بعد جنازة الإسكندينافيين

لا يرى الإسكندينافيون سبباً للحزن لموت أحد. ولا يهتمون لفقير أو عبد، وحتى رئيس القبيلة لا يثير حزناً، ولا يريق دماً. ففي المساء نفسه الذي تمت فيه جنازة رئيسهم المدعو (ويغليف) أقاموا مأدبة عظيمة في قباب مضاربهم.

وأدركت أن الأحوال لن تستقيم بين هؤلاء الهمج، فطلبت مشورة الترجمان، فكان جوابه:

«إن خطة (طوركيل) أن يقتلك. وبعد ذلك يقضي على (بوليويف). وقد جمع (طوركيل) حوله أنصاراً من النبلاء. ولكن هناك خلافاً داخل كل دار وفي كل مكان».

وأقلقني ذلك، فقلت: «لا دخل لي في هذا الأمر. فماذا أفعل؟».

فقال الترجمان: «يجب أن تهرب، إذا استطعت. ولكن إذا قبض عليك فسيكون ذلك دليلاً على ذنبك، وستعامل كلص».

واللص يعامل بهذه الطريقة يقوده الشماليون إلى شجرة كبيرة، ويربطونه بحبل متين، ويعلقونه، ويتركونه كذلك حتى ينتن ويتحلل بفعل الريح والمطر.

وبما أنني كنت قريب العهد بالنجاة من الموت على يد (ابن القاطغان) فقد فضلت أن أفعل كما فعلت من قبل، أي أن أمكث بين الإسكندينافيين حتى يطلقوا سراحي لأتابع سفري.

وسألت الترجمان هل أحمل الهدايا (لبوليويف) و(طوركيل) ليطلقا سراحي، فأجاب بأنه لا يمكن حمل الهدايا لهما معاً، ولم يتقرر بعد من سيتولى الرئاسة. ثم أضاف بأن الأمر سيتضح بين يوم وليلة لا أكثر.

فالحقيقة أنه ليس للإسكندينافيين طريقة متبعة في اختيار حاكم جديد بعد موت القديم. وهم يعتمدون كثيراً على قوة السلاح، وكذلك على ولاء المحاربين، والأعيان والنبلاء، وفي بعض الحالات لا يكون بينهم ولي عهد معروف. وكذلك كان الحال هذه المرة. وقال لي الترجمان: إنه يجب أن أترقب سنوح الفرصة، وأدعوا الله، وذلك ما فعلت.

وهبت عاصفة هوجاء على ضفاف نهر (الفولغا)، واستمرت يومين بأمطار غزيرة، ورياح عاتية. وبعد العاصفة نزل ضباب بارد على الأرض. وكان أبيض كثيفاً بحيث لا يرى الواحد أبعد من بعض خطوات.

وحينئذ بدا على هؤلاء المحاربين الإسكندينافيين العمالقة الغلاظ الأشداء الذين لا يرهبون شيئاً أبداً، بدا عليهم الخوف من الضباب أو السديم الذي يعقب العواصف.

ورجال هذا الجنس يبذلون قصاراهم لإخفاء خوفهم حتى من بعضهم البعض فيبالغ المحاربون في الضحك والتفكه، والتظاهر المفضوح بعدم الاكتراث، وهم بذلك يثبتون العكس. فالحقيقة أن محاولتهم لإخفاء الواقع كانت صبيانية ومفضوحة، إذ كان كل واحد منهم، في جميع أرجاء المعسكر يبتهل، ويدعو، ويقدم نُذُراً من الدجاج والديكة. وإذا سألتهم عن سبب ذلك، يقولون إنهم يفعلون ذلك من أجل أهلهم البعيدين عنهم، أو من أجل ربح تجارتهم، أو تكريماً لأحد موتاهم، أو لأي سبب آخر، ثم يضيفون بعد ذلك: «ومن أجل رفع الضباب».

وقد استغربت من أن يكون رجال أقوياء أشداء مثل هؤلاء يخافون من شيء لدرجة محاولة إخفاء الخوف، أما أن يخافوا من الضباب بدلاً من جميع أسباب الخوف المعقولة، فهذا ما لم أستطع فهمه.

وقلت لترجماني: «يمكن أن يرهب الإنسان الريح أو عواصف الرمل، أو السيول أو الزلازل، أو الرعد والبرق في السماء؛ لأن هذه يمكن أن تؤذي الإنسان أو تقتله، أو تخرب بيته. ولكن الضباب أو الرذاذ ليس بها ما يفزع أو يضر. وفي الحقيقة فهي أقل أشكال التغير في الأشياء.».

فأجابني الترجمان بأنه تنقصنى معتقدات البحري. وقال بأن عرباً كثيرين من رجال البحر يوافقون الإسكندينافيين في أمر قلقهم من غشاوة الضباب، وكذلك جميع ركاب البحر. ذلك أن الضباب بضاعف من خطر السفر فوق الماء.

فقلت: «هذا معقول. ولكن حين تكون الضباب على الأرض، وليس فوق الماء، فلا أفهم سبباً للخوف».

فأجابني الترجمان: «الضباب دائماً مخيف. أينما كان إنه لا فرق بين أن يكون على الأرض أو الماء، فذلك سواء عند أهل الشمال».

وبعد ذلك قال بأن الإسكندينافيين لا يخشون الضباب حقاً. وبأنه أمر بسيط، وطفيف العواقب، فهو مثل وجع خفيف في أحد المفاصل يأتي مع الضباب، لا أكثر.

وبهذا رأيت أن ترجماني، هو الآخر أنكر كل اهتمام بالضباب، وافتعل عدم الاكتراث.

ولم يرتفع الضباب بل خف قليلاً بعد الزوال، وظهرت الشمس كدائرة في السماء، ولكنها كانت ضعيفة بحيث أمكنني النظر إليها مباشرة.

وفي هذا اليوم نفسه وصل مركب إسكندينافي يحمل أحد أشرافهم، وكان شاباً ذا لحية خفيفة ترافقه جماعة قليلة من

الخدم والعبيد، ولم تكن بينهم امرأة؛ لذلك أدركت أنه لم يكن تاجراً؛ لأن الاسكندينافيين هذه الناحية يبيعون النساء أساساً.

وأرسى الزائر مركبه، وظل واقفاً بجانبه طول المساء. ولم يقترب منه رجل أو يسلم عليه، رغم أنه كان غريباً وعلى مرأى من الجميع.

قال لي ترجماني: «إنه من أقرباء (بوليويف). وسوف يرحبون به في مأدبة العشاء»، قلت: «لماذا يبقى جنب سفينته؟».

فأجاب الترجمان: «بسبب الضباب. فالعادة تقضي بأن يبقى واقفاً على مرأى من الجميع عدة ساعات، حتى يراه الجميع، ويعرفون أنه ليس عدواً آتياً من الضباب».

قال لي الترجمان هذا بكثير من التردد.

وأثناء مأدبة العشاء رأيت الشاب يدخل القاعة فيرحب به الجميع بحرارة مظهرين المفاجأة لرؤيته، وخاصة (بوليويف)، الذي تصرف كأن الشاب لم يصل إلا في تلك اللحظة، ولم يقف بجانب مركبه ساعات كثيرة.

وبعد تعدد التحيات، ألقى الشاب خطبة مؤثرة أنصت إليه (بوليويف) باهتمام غير عادي، فلم يشرب ولم يغازل الجواري، ولكنه أنصت صامتاً إلى الشاب الذي كان يتكلم بصوت متهدج عال. وفي نهاية الخطبة، بدا على الشاب أنه على وشك البكاء فناولوه قدحاً من الشراب.

وسألت الترجمان عما قيل فأجابني:

«إنه (وولفغار)، ابن الملك (روثغار)، أحد ملوك الشمال العظام، وهو من أقرباء بوليويف. جاء يطلب عونه ومساندته في أمر يحتاج إلى بطل.. ويقول (وولفغار) إن بلاده تعاني الشدائد من عدو مخيف مجهول لا قدرة للناس على رده، ويناشد (بوليويف) أن يعود على عجل إلى بلاده لينقذ قومه، ومملكة أبيه، (روثغار)». وسألت الترجمان عن طبيعة هذا العدو المرعب، فأجابني: «لا أستطيع ذكر اسمه، فهو محرم، ومجرد ذكره قد يجلب الشياطين».

وكان الخوف بادياً عليه لمجرد أنه كان يفكر في هذه الأمور، وظهر عليه الشحوب فأقلعت عن سؤاله.

وكان «بوليويف» يجلس صامتاً على العرض الصخري العالي. وكان جميع الحاضرين من أشراف، وأعيان، وخدم، وحشم صامتين كذلك. ولم يتكلم أحد في القاعة. وكان المبعوث (وولفغار) يقف أمام الحاضرين منحني الرأس.

ولم أر قط أهل الشمال المعربدين المرحين في مثل هذه الهدوء.

وعند ذلك دخلت القاعة المرأة العجوز التي يسمونها ملك الموت، وجلست بجانب بوليويف. وأخرجت من جراب جلدي

عظاماً.. لم أدر هل كانت لإنسان أم لحيوان.. ونثرتها على الأرض، وهي تدمدم، ومرت عليها بيدها.

وجمعت العظام ونثرتها مرة أخرى، وأعادت العملية وهي ترتل التعاويذ والتعازيم. وبعد ذلك تكلمت مع بوليويف.

وسألت الترجمان عما قالته، ولكنه لم يجبني.

وبعد ذلك وقف بوليويف ورفع قدحاً من الشراب المعتق، وخطب في الحاضرين من الأعيان والمقاتلين خطبة مطولة.

وفي النهاية أخذ عدد من المقاتلين يقفون، واحداً واحداً، ويواجهونه. لم يقفوا جميعاً، فقد حسبت أحد عشر، وأعلن بوليويف أنه راض بذلك.

وظهر الفرح على (طوركيل) لما حدث، واتخذ سمتاً ملكياً، فلم يعره بوليويف أي اهتمام، ولم يظهر أي كراهية نحوه، رغم أنهما كانا عدوين منذ بضع دقائق خلت.

وبعد ذلك أشارت ملك الموت القَهْرمانة الشمطاء نحوي، ونطقت بشيء، ثم خرجت من القاعة. وعندئذ نطق ترجماني، وقال:

«إن الآلهة نادت بوليويف ليترك هذا المكان في الحال، ويخلف وراءه جميع شؤونه ومشاغله، ويذهب ليرد العدو الذي

يهدد الشمال. وهذا يلائمه. ويجب أن يأخذ معه أحد عشر مقاتلاً. ويجب كذلك أن يأخذك أنت».

فقلت: «إنني ذاهب في مهمة إلى البلغار، ولابد لي من تنفيذ أوامر الخليفة دون تأخير».

فقال الترجمان: «لقد تكلمت ملك الموت. جماعة بوليويف لابد أن يكون عددهم ثلاثة عشر، وواحد منهم يجب أن يكون من أهل الشمال. وهكذا ستكون أنت الثالث عشر».

واحتججت بأنني لست مقاتلاً. وقد تذرعت بكل حجة، وناشدتهم بكل ما تصورت أن يكون له أثر على هذه المجموعة من الهمج، وطلبت من المترجم أن يبلغ كلماتي لبوليويف فأشاح هذا بوجهه عني وغادر القاعة قائلاً لي:

«تهيأ للسفر قدر ما تستطيع. فسوف تغادر مع ضوء الصباح».

*****

السفر إلى البلد البعيد

هكذا حيل بيني وبين متابعة سفري إلى مملكة (يالطوار)، ملك الصقالبة، وهكذا لم أستطع تبليغ رسالة المقتدر، أمير المؤمنين، وخليفة مدينة السلام، فأعطيت ما تيسر لي من تعليمات (لنذير الحرمي)، وكذلك السفير (عبدالله بن باشتو الخزري)، وكذلك للغلامين (تكين) و(بارس). وودعتهم ولم أدر قط بعد ذلك ما فعل الله بهم.

أما أنا فقد حسبت نفسي في عداد الأموات. فركبت سفينة من سفن أهل الشمال، وأقلعنا شمالاً في نهر (الفولغا)، صحبة اثني عشر منهم. أما الآخرون فكانوا يدعون: بوليويف: الرئيس ، وإيكثغو: مساعدهُ وبحاره، ونبلاؤه وأشرافه، وهم: هيغلاغ وسكيلد، وبث، ورونيطه، وهالغا، وكذلك مقاتلوه ومحاربوه الشجعان، وهم هيلفدان، إيدغثوا وريثيل، هالتاف وهيرغر[1].

---

(١) لم يذهب معهم (وولفغار). ويقول (جينسن) إن الشماليين عادة ما كانوا يستبقون الرسول كرهينة، لذلك يكونُ الرسل عادة من أبناء الملوك أو كبار النبلاء، أو أشخاص لهم وزنهم في المجتمع ليصلحوا رهائن. ويخالفه في ذلك (أولاف جورغنشن)، ويقول بأن (وولفغار) تخلف عنهم لأنه كان خائفاً أن يعود.

وكنت أنا بينهم غير قادر على تكلم لغتهم، أو فهم عاداتهم، لأن ترجماني لم يأت معنا. وبصدفة نادرة، وبنعمة من الله، كان يوجد من بينهم محارب مجرب يعرف بعض اللسان اللاتيني، كان اسمه (هيرغر). فاستطعت أن أفهم منه ما تلا من أحداث. كان (هيرغر) محارباً شاباً، ومرحاً، وكان يجد سبباً للتندر والتفكه في كل شيء، خصوصاً في كدري عند الرحيل.

هؤلاء الشماليون أحسن بحارة في العالم، وقد لاحظت عليهم حب البحار والمحيطات.

أما سفينتهم فكان طولها خمساً وعشرين خطوة، وعرضها ثمان ونيف، وقد صنعت من خشب الأرز صنعاً محكماً. وكان لونها أسود من كل ناحية. وكانت مزودة بشراع مربع من القماش محاط بجلد الفقمة. وكان الربان يقف على دكة صغيرة قرب مؤخرة السفينة (الكوثل) يمسك بدفة (سكان) مربوط إلى جانب السفينة على الطريقة الرومانية. وكانت السفينة مزودة كذلك بمقاعد للمجاديف.

ولكن المجادف لم تستعمل قط إذ كان الاعتماد على القلوع وحدها. وعلى رأس السفينة كان تمثال خشبي لغول بحري متوحش، كما يكون عادة على سفن السكندينافيين وعلى المؤخرة كان يوجد ذيل كذلك. وعلى الماء كانت السفينة هادئة ومريحة للسفر. وقد رفعت معنوياتي ثقة المحاربين.

وقـرب الربان كـان سـرير مـن الجلود علـى شـبكة من حـبـال وعليـهـا غـطاء من جلد. كـان ذلك سـرير بوليـويف، أمـا المحـاربون الآخـرون فكانوا ينامـون على أرض السـفـينة هنا وهنـاك، ملتـفين بالجلود، وكذلك فعلت أنا.

وسـافـرنـا في النهـر مـدة ثلاثـة أيام، ومـررنا في طريقـنا بعـدد من القـرى على ضـفـافه ولـم نقف عند أي منهـا. وبعـد ذلك وصلنا إلى محلة واسعة على منعطف نهر (الفولغا).

وهناك كان مئات الناس يسكنون بلدة غير صغيرة يقوم في وسطها (كريملين)، أو قلعة عظيمة حيطانها من الطين.

وسألت (هيرغر) عن هذا المكان، فقال لي:

«هذه مدينة (بلغار)، من مملكة الصقالبة، وذلك (كريملين) (اليَلطَوَار)، ملك الصقالبة».

فأجبت: «هذا هو نفس الملك الذي أرسلني إليه الخليفة».

وتوسلت إليهم أن ينزولني إلى الشاطئ لإبلاغ رسالة الخليفة، وطلبت ذلك مظهراً الغضب على قدر جرأتي.

ولم يعرني الشماليون أي اهتمام. ولم يجب (هيرغر) على أسئلتي ومطالبي. وفي النهاية ضحك في وجهي، وحول انتباهه إلى السفينة المبحرة، وهكذا مرت سفينة الإسكندينافيين بمدينة

البلغار، قرب الشاطئ، لدرجة أنني كنت أسمع صياح التجار، ورغاء الغنم، وأنا عاجز. لا أملك إلا النظر إلى المدينة وهي تمر أمامي. وبعد ساعة لم أعد أرى حتى ذلك المشهد، فقد كانت مدينة البلغار تقع على منعطف النهر. كما قلت، فغابت عن عيني وهكذا دخلت وتركت بلغاريا[1].

قال ابن فضلان:

ومرت ثمانية أيام على السفينة، وهي ما تزال تخترق الفولغا، وكانت الأرض جبلية حول حوض النهر. ووصلنا إلى فرع آخر للنهر حيث يسميه أهل الشمال بنهر باردا، والريح شديدة، والثلج كثيفاً يغطي الأرض. وعندهم غابات كثيرة في هذه المنطقة التي يسميها الشماليون (ڤادا).

---

(١) قد يجد القارئ نفسه في حيرة وضياع كاملين من جهة الجغرافية، فبلغاريا المعاصرة هي إحدى دول البلقان، وتحد باليونان، ويوغوسلافيا، ورومانيا، وتركيا. إلا أنه بين القرنين التاسع والخامس عشر، كانت توجد (بلغاريا) أخرى على ضفاف نهر (الفولغا) تبعد بحوالي ٦٠٠ ميل (ألف كيلو متر) عن (موسكو) الحديثة من ناحية الشرق. وتلك التي كان يتوجه نحوها ابن فضلان. وكانت بلغاريا الواقعة على نهر الفولغا مملكة واسعة ذات أهمية وكانت عاصمتها (بلغار) مشهورة وغنية حين احتلها المنغوليون سنة ١٢٣٧م ويسود الاعتقاد بأن بلغاريا الفولغا، وبلغاريا البلقان كان يسكنهما جماعات مرتبطة من المهاجرين قدموا إليها من المنطقة المحيطة بالبحر الأسود، في الفترة ما بين سنة ٤٠٠ و٦٠٠م ولكن لا يعرف الكثير عن ذلك. وتوجد مدينة بلغار القديمة في منطقة (قازان) الحالية.

وبعد ذلك وصلنا إلى مضرب لأهل الشمال يسمى (ماسبورغ). ولم يكن بلدة بل مجرد معسكر من عدة منازل خشبية كبيرة مبنية على شكل مدن الشمال. ويعيش أهلها على بيع الخشب للتجار الذين يمرون بهذه الطريق.

وتركنا مركبنا (بماسبورغ) وتابعنا سفرنا بالخيل لمدة ثمانية عشر يوماً. وكانت الطريق جبلية وعرة، وقارسة البرد، وأصبت بالإرهاق من متاعب السفر. وأهل الشمال هؤلاء لا يسافرون أبداً بالليل. ولا يركبون البحر بالليل، بل يفضلون إرساء سفنهم وانتظار ضوء الفجر قبل متابعة السفر.

وهذا ما وقع أثناء سفرنا صار الليل قصيراً بحيث لا يمكن طبخ قدر لحم فيه، فبمجرد ما كنت أتمدد لأنام، كان يوقظني الشماليون ويقولون: «أفق. لقد طلع النهار ولابد من متابعة الرحيل».

ولم يكن النوم كافياً ولا منشطاً في هذه الأصقاع الباردة.

وشرح لي (هيرغر) أن النهار في بلاد الشمال طويل في الصيف، والليل طويل في الشتاء، وقلما يكونان متساويين. وقال لي يجب أن أراقب ستار السماء، وفي إحدى الليالي فعلت، فرأيت في السماء أضواء فاقعة تسطع باللون الأخضر، والأصفر، وأحياناً

بالأزرق، وقد تعلقت كستار في أعالي الفضاء. واستغربت كثيراً لمشهد ستار الليل هذا ولكن أهل الشمال لم يروا فيه أي غرابة.

وارتحلنا خمسة أيام نزلنا فيها من الجبال إلى منطقة الغابات. وغابات أرض الشمال باردة وكثيفة وأشجارها عالية جداً. وهي مبتلة وباردة في بعض الأماكن، وشديدة الاخضرار بحيث يوجع العين نصوع لونها، وهي في بعض الأماكن سوداء حالكة ومخيفة.

وارتحلنا سبعة أيام عبر الغابات وتحت مطر غزير. وفي غالب الأحيان كان المطر يهطل بشدة تنقبض لها النفس، وقد ظننت مرة أنني سأغرق، فقد كان الهواء مشبعاً بالماء، وفي بعض الأحيان كان الريح يدفع المطر بقوة فتبدو كأنها عاصفة رمل، تلسع الجلد، وتحرق العينين، وتعشي البصر[١].

ولم يكن هؤلاء الشماليون يخشون لصوص الغابات، ربما لِقُوتهم أو لعدم وجود قطاع الطرق. وفي الحقيقة لم نر أحداً منهم في الغابات. بلاد الشمال يسكنها عدد قليل من الناس من أي نوع، أو هكذا بدا لي أثناء وجودي هناك. وغالباً ما كنا نسافر سبعة أيام أو عشرة دون أن نعثر على مضرب أو مزرعة أو مسكن.

---

(١) كان من الطبيعي أن يندهش لمنظر الإخضرار الشديد، وتهاطل الأمطار الغزيرة نظراً لقدومه من بلد صحراوي.

وكان سفرنا بالشكل الآتي: في الصباح نستيقظ ودون وضوء، ونركب خيلنا، ونسير حتى منتصف النهار. وحينئذ يقنص أحد الفرسان حيواناً صغيراً أو طائراً. فإذا كانت تمطر فالحيوان يؤكل دون طهي.

واستمر المطر أياماً كثيرة. وفي البداية اخترت ألا آكل ذلك اللحم النيء غير المذبوح. ولكن بعد مدة أكلت قائلاً في سري: «باسم الله» مؤمنًا بأن الله سيغفر لي خطيئتي. وإذا لم تمطر فإن النار توقد من جذوة صغيرة يحملونها معهم، ويطبخ الطعام. وكنا نأكل توتاً وأعشاباً برية لا أعرف أسماءها. وعندئذ كنا نسافر طوال نصف النهار الثاني، والذي كان شديد الطول، حتى الليل، حيث كنا نستريح ونأكل.

وكانت الأمطار تتساقط مرات عديدة، فكنا نحتمي منها بالأشجار الضخمة.

ورغم ذلك فقد كنا نصحو مبتلين، وكذلك الجلود التي ننام فيها. ولم يتذمر الشماليون من هذا فهم دائماً مرحون. أنا وحدي كنت أتذمر. وكانو لا يعيرونني أي اهتمام.

وأخيراً قلت لهيرغر:

ـ المطر بارد.

فضحك وقال:

ـ كيف يمكن أن يكون المطر بارداً. أنت البارد التعس.. أما المطر فليس ببارد ولا تعس.

ورأيت أنه يصدق هذه الحماقة. وفكرت حقاً أنني سأكون أحمق إذا اعتقدت غير ذلك. ومع ذلك فعلت.

وحدث ذات ليلة أنني قلت في بداية الأكل «باسم الله»، فسأل (بوليويف) عن ماذا قلت، فقلت لهيرغر إنني أعتقد أنه لابد من ذكر اسم الله على الطعام وقد فعلت ذلك تبعاً لعقيدتي.

فسأل بوليويف:

ـ هل هذه طريقة العرب؟

فترجم هيرغر، وأجبت أنا:

ـ لا، في الحقيقة الذي يقتل الحيوان هو الذي يجب أن يسمي الله. وقد نطقت بالكلمات حتى لا أنسى[1].

---

(١) وهنا يعلق مايك كرايتن بما يلي: «هذا شعور إسلامي مميز. فهو ليس كالمسيحية لأنه لا يعترف بالخطيئة الأولى الناشئة عن الإنسان. فالخطيئة بالنسبة للمسلم هي نسيانه القيام بواجباته الدينية. ونتيجة لذلك فإن الذنب يكون أعظم حين يتذكر المسلم الفريضة ولا يقوم بها، ومن نسيانه الكلي لها، فإن ما يقوله ابن فضلان في الواقع هو أنه يتذكر ما يجب عمله رغم أنه لا يقوم به.

وقد وجد الشماليون في هذا موضوعاً للتفكه.. فضحكوا من قلوبهم. وعندئذ، قال لي بوليويف:

«هل تستطيع رسم الأصوات»؟.

ولم أفهم قصده، وسألت هيرغر، وبعد أخذ ورد فهمت أخيراً أنه كان يعني الكتابة. فالشماليون كانون يسمون الكلام بالعربية ضوضاء أو تصويتاً. فأجبت بوليويف بأنني أستطيع الكتابة والقراءة.

فقال لي أن أكتب له على الأرض. وعلى ضوء نار المساء أخذت عوداً وكتبت «الحمد لله»، فنظر جميع الشماليين إلى الكتابة. فطلبوا مني أن أنطق ما كتبت ففعلت. فحملق بوليويوف فيما كتبته مدة طويلة ورأسه غرق في صدره.

فقال لي هيرغر: «أيَّ إلهٍ تحمد؟».

فأجبت بأنني حمدت الإله الواحد الذي اسمه (الله).

وسافرنا نهاراً آخر، وبتنا ليلة أخرى، ثم نهاراً آخر. وفي الليلة التالية أمسك بوليويف بعود ورسم على الأرض ما كنت رسمته من قبل، وطلب مني قراءته.

فقرأت بصوت عال: «الحمد لله». وبَدَا الارتياح على بوليويف، وفهمت أنه كان يقصد اختباري بحفظ ما كنت رسمته من حروف ليريها لي مرة أخرى.

وكلمني (ايكثغو)، مساعد (بوليويف)، وهو رجل عابس أقل مرحاً من الآخرين، عن طريق الترجمان هيرغر. فقال لي هذا: «إيكثغو يريد معرفة ما إذا كنت تستطيع رسم صوت اسمه، فقلت أستطيع، وأمسكت عوداً وبدأت أرسم علي التراب، فقفز (إيكثغو) من مكانه حالاً، وخطف العود من يدي ورمى به، ومسح بقدمه ما كتبت، وقد بان الغضب في كلامه.

قال لي هيرغر: «إيكثغو» لا يرغب في أن تكتب اسمه في أي وقت، ويجب أن تعد بذلك».

واحترت حين رأيت أن (إيكثغو) كان غاضباً مني أشد الغضب، وكذلك كان الآخرون يحدِّقون فيَّ بعيون قلقة غاضبة. ووعدت (هيرغر) ألا أرسم اسم (إيكثغو) ولا اسم أحد من الآخرين. فارتاحوا جميعاً لسماع هذا.

وبعد ذلك لم يناقشُوا كتابتي، ولكن بوليويف أعطى أوامره أن أُساق كلما أمطرت إلى أكبر شجرة، وأعطى طعاماً أكثر من ذي قبل.

ولم نكن ننام دائماً في الغابات، أو نسير بين أشجارها، فعلى حافة بعض الغابات كان بوليويف ومقاتلوه ينطلقون بخيلهم

راكضين خلال الأشجار الكثيفة دون اهتمام أو خوف. ولكنه في غابات أخرى كان يوقف خيله ويتريث فيترجل فرسانه، ويوقدون ناراً وينذُرون (للأرواح أو الآلهة) بعض الطعام أو شرائح من الخبز الجاف أو منديلاً قبل مواصلة السير وبعد ذلك يسيرون على أطراف الغابة دون التغلغل داخلها.

وسألت (هيرغر) عن ذلك فقال إن بعض الغابات مأمون وبعضها لا. ولكنه لم يشرح، فسألته: «ما الذي يعتبرونه غير مأمون في تلك الغابات»؟.

فأجاب: «هناك أشياء لا يستطيع الإنسان قهرها، ولا سيف يستطيع قتلها، ولا نار تستطيع إحراقها. وهذه الأشياء توجد في الغابة».

فقلت: «كيف عرفتم هذا؟».

فضحك وقال: «أنتم العرب دائماً تريدون معرفة أسباب كل شيء، قلوبكم أكياس كبيرة تتفجر بالأسباب».

فقلت: «ألا تهمك الأسباب؟».

فأجاب: «إنها لا تفيدك بشيء.. فنحن نقول إن الشخص يجب أن يكون حكيماً في اعتدال، وليس زائد الحكمة، حتى لا

يعرف مصيره مقدماً، وصاحب العقل الخالي من الهموم لا يعرف مصيره مسبقاً».

وقد رأيت أنه يجب أن أكتفي بجوابه؛ لأنني في مناسبة أو أخرى كنت أسأله عن شيء فكان يجيبني، فإذا لم أفهم، وكررت السؤال أجابني، فإذا كررت السؤال، مرة أخرى، كان يجيب جواباً قصيراً كأنّ أسئلتي لم تكن ذات أهمية. وعندئذ لا يرد على أسئلتي إلاَّ بحركة من رأسه.

ومضينا قدماً. وأستطيع أن أقول إن بعض غابات بلاد الشمال كانت تثير بعض مشاعر الخوف الذي لا أستطيع شرحه. وبالليل كان الإسكندينافيون يحكون قصصاً عن تِنِّينَات ووحوش كاسرة، وعن أسلافهم الذين قتلوا تلك الوحوش، وكانوا يقولون: إن تلك الوحوش هي مصدر خوفي، ولكنهم كانوا يحكون القصص دون أن يظهر عليهم خوف، ولم أرَ بِعَيني أيّاً من هذه التنانين والوحوش.

وفي إحدى الليالي سمعت هديراً ظننته رعداً، ولكنهم قالوا إنه كان زعيق تنين في الغابة. ولست أعرف الحقيقة، ولا أخبر إلا بما قيل لي.

وبلاد الشمال باردة ورطبة، والشمس لا ترى إلا لماماً، لأن السماء ملبدة بالغيوم الرمادية طوال النهار. وأهل هذه المنطقة شاحبون كالقماش القطني، وشعرهم شديد الشقرة.

وبعد أيام كثيرة من السفر لم أر أقواماً سمراً بالمرة، وكنت مصدر استغراب لسكان المنطقة بسببة سمرة جلدي وسواد شعري. وقد حدث عدة مرات أن جاء مزارع وزوجته أو ابنته يمسحون جلدي، فيضحك (هيرغر) ويقول: «إنهم يحاولون مسح اللون اعتقاداً منهم أن جلدك مصبوغ به.» إنهم قوم يجهلون اتساع العالم. وكثيراً ما كانوا يخافون ولا يقتربون مني. وفي مكان لا أعرف اسمه، صرخ طفل حين رآني وذهب يتعلق بأمه، وقد أضحك هذا محاربي بوليويف وأشاع بينهم المرح.

ولاحظت، بمرور الأيام، أن رجال بوليويف كفوا عن الضحك، وساءت طباعهم مع مرور كل يوم. فقال لي (هيرغر) إنهم يفكرون في الشراب الذي حرموا منه مدة طويلة.

وفي كل مزرعة أو دار كانوا يسألون عن الشراب، ولكن في هذه الأماكن الفقيرة لم يكن يوجد خمر في أغلب الأحيان، فكانت خيبة آمالهم عظيمة، حتى فقدوا آثار كل مرح.

وفي اليوم الثالث، أمر بوليويف بمتابعة الرحلة، فتابعناها، دون أن يجد هؤلاء أية غرابة في ضياع يومين كاملين.

ولا أذكر كم يوماً سافرنا بعد ذلك، أذكر أننا غيرنا الخيل خمس مرات بأخرى مستريحة اشتريناها من القرى بالذهب

وبالمحار الصغير الذي يقدره أهل الشمال أكثر من أي شيء في العالم. وبعد مدة وصلنا إلى قرية تدعى (لينبورغ) على شاطئ البحر. وكان البحر رمادياً، وكذلك السماء وكان الهواء قارس البرودة، وهنا ركبنا سفينة أخرى. شبيهة بالسفينة السابقة، إلا أنها أكبر. وكان الشماليون يدعونها (هوسيوكون)، ويعني ذلك جدي البحر، لأنها تنطح البحر كالجدي؛ ولأنها سريعة، فقد كانت الماعز عند هؤلاء الناس رمزاً للسرعة.

وكنت ضائقاً من ركوب هذا البحر؛ لأن الأمواج كانت عالية والماء بارداً جداً، إذا غمس فيه الرجل يده يفقد الإحساس بها في الحال، لشدة برودته، ورغم ذلك فقد كان هؤلاء الشماليون مسرورين، يتفكهون ويشربون طوال ذلك المساء بقرية (لينبورغ)، ويلهون مع النساء والإماء. وقد قيل لي: إن هذه هي عادة الشماليين قبل ركوبهم البحر؛ لأنه لا أحد يعرف أنه سيخرج منه حياً؛ لذلك فهو لا يسافر فيه إلا بعد احتفال كبير.

وقوبلنا بالترحيب في كل مكان؛ لأن الكرم يعتبر فضيلة عند هؤلاء الناس. وأفقر فلاح كان يضع أمامنا كل ما يملك، وليس ذلك خوفاً من أن نقتله أو نسرقه، بل كانوا يفعلونه عن طيب خاطر. وقد عرفت أن الشماليين لا يحتملون اللصوص والقتلة بينهم، ويعاملونهم بشدة، وهم يتشبثون بهذه المعتقدات رغم أنهم

في واقع الأمر دائمو السكر والعربدة، وأنهم يتقاتلون فيما بينهم كالحيوانات المسعورة، ويقتلون بعضهم البعض في مبارزات حامية، ولكنهم لا يعدون ذلك قتلاً، فهم يقتلون كل قاتل.

وهم يعاملون عبيدهم برقة متناهة، الأمر الذي تعجبت له كثيراً. ولكن إذا مرض عبد، أو أمة، أو ماتا في حادث، فإن ذلك لا يعتبر خسارة كبيرة. والإماء يجب أن يكنَّ على استعداد في أي وقت لاستعمال أي رجل خفية أو جهاراً، ليلاً أو نهاراً.

فليس هناك عطف على العبيد ولكنهم لا يعاملون بعنف، وسادتهم يطعمونهم ويكسونهم.

والشماليون لا يعتبرون الولد ابن زنا إذا لم تكن والدته متزوجة، وأبناء الإماء عبيد أحياناً، وأحرار أحياناً أخرى، وكيف يقررون ذلك، لا أدري.

وفي بعض المناطق يوسم العبيد بعلامة في آذانهم، وفي مناطق أخرى لا يوسم العبيد بشيء حسب العادة المحلية.

واللواط غير معروف بين الشماليين. ورغم أنهم يقولون إن شعوباً أخرى تمارسه، فإنهم يقولون بأنهم لا اهتمام لهم به. وبما أنه لا يحدث بينهم فلا عقاب لهم عليه.

وقد عرفت كل هذا وأكثر من حديثي مع (هيرغر) ومشاهداتي لرفاق السفر.

ورأيت كذلك أنه في كل مكان نزلنا به يسأل الناس بوليويف عن المهمة التي يضطلع بها، وحين يخبرهم بطبيعتها ـ التي لم أكن بعد قد عرفتها ـ فإنهم كانوا ينظرون إليه باحترام كبير، ويدعُون له، ويقدمون له الهدايا والتمنيات الطيبة.

وفي البحر كما قلت، كان الشماليون يسعدون ويفرحون، رغم هياج البحر وشدته عَلَيَّ وعلى مَعِدَتي الرهيفة القلقة. ومرة أفرغت ما في جوفي، وسألت (هيرغر) عن سبب ابتهاج رفاقه.

فأجاب: «لأننا قريباً سنصل إلى بلد بوليويف، وهو مكان معروف بـ (يتلام) حيث يسكن أبوه، وأمه، وجميع أقاربه. وهو لم يرهم لعدة سنوات».

فقلت: «ألَسْنا ذاهبين إلى أرض «وولفغار؟.»

فأجاب: «نعم، ولكنه من اللائق أن يزور بوليويف أباه، وأمه، ويقدم لهما احتراماته، ورأيت من وجوههم جميعاً، بما فيهم الأعيان والنبلاء والمحاربون، أنهم كانوا سعداء مثل بوليويف نفسه. وسألت (هيرغر) عن سبب ذلك، فقال:

«بوليويف رئيسنا، ونحن سعداء من أجله، ومن أجل القوة التي ستوهب له قريباً».

وسألته عن هذه القوة التي تكلم عنها.

فأجاب هيرغر: «إنها قوة (روندينغ).».

فسألت: «أية قوة تلك»؟.

فأجاب: «قوة القدماء.. قوة العماليق..».

فالشماليون يعتقدون أن العالم كان معموراً بسلالة من الرجال العمالقة انقرضوا، ولا يعتبر أهل الشمال أنفسهم خلفاً لهؤلاء العمالقة. ولكنهم ورثوا عنهم بعض قواهم بطريقة لم أفهمها جيداً.

ويؤمن هؤلاء الوثنيون بعدة آلهة هي نفسها عملاقة كذلك، وتملك القوة. ولكن العمالقة الذين تكلم عنهم (هيرغر) كانوا رجالاً عمالقة، وليسوا آلهة، أو كذلك ظهر لي.

وفي تلك الليلة رسونا على شاطئ صخري عامر بحصى في حجم قبضة يد الرجُل، وهناك خيم بوليويف مع رجاله، وقعدوا يشربون ويغنون طوال الليل حول النار، وانضم (هيرغر) إلى الاحتفال ، ولم يبق له صبر على أن يشرح لي معنى الأغاني، فلم أعرف بماذا كانوا يتغنون، ولكنهم كانوا سعداء. فغداً سيصلون إلى منزل بوليويف، بالأرض المدعوة بـ (ياتلام).

وغادرنا المكان قبل أول أضواء الفجر. وكان البرد قارساً لدرجة أن عظامي آلَمَتني وجسدي كان منهوكاً من النوم على الشاطئ الصخري. وركبنا البحر الهائج في ريح عاصفة. وأبحرنا

طوال الصباح. وأثناء هذه المدة زاد هياج الرجال حتى أصبحوا كالأطفال أو النساء. وكان مصدر عجب لي أن أرى هؤلاء المقاتلين الضخام الأقوياء يضحكون ويقهقهون مثل حريم الخليفة، ولكنهم لم يروا في ذلك أية غضاضة أو نقصاً من الرجولة.

وبدت لنا نقطة من الأرض مكونة من صخور عالية وأحجار رمادية فوق مستوى البحر الكالح. ووراء هذه النقطة قال لي (هيرغر) تقع بلدة (ياتلام) وحاولت أن أرى دار بوليويف هذه التي سمعت عنها الكثير حين دار المركب حول الرأس الناتئ. وكان المحاربون يضحكون، ويهتفون بأصوات أعلى، وفهمت أنهم كانوا يصيحون بنكات سفيهة، ويتحدثون بخططهم على ما سيفعلونه مع النساء حين يصلون إلى البر.

وفي تلك اللحظة شممنا رائحة الدخان فوق البحر، ورأينا الدخان فسكت جميع الرجال. وحين درنا حول الرأس رأيت أن البلدة التي كانت هناك قد احترقت ولم يبق منها إلا بعض اللهيب الخامدة والدخان الأسود. ولم تكن هناك علامة للحياة.

ونزل بوليويف والمحاربون ومشوا خلال بلدة (ياتلام) كانت جثث الرجال والنساء والأطفال، منثورة على الأرض، وبعضها أكلته النيران، وبعضها قطعته السيوف، عدد هائل من الجثث. ولم يتكلم بوليويف ولا المحاربون. ورغم ذلك لم يكن ثمة بكاء ولا حزن

أو عويل. ولم أر أبداً قوماً يقبلون الموت كما يفعل الشماليون. وقد أُصبت أنا بالغثيان مراراً لبعض المناظر، ولكنهم لم يصابوا بشيء.

وأخيراً سألت هيرغر: «من فعل هذا؟».

فأشار إلى الأرض والغابات والتلال البعيدة عن البحر الكالح. كان هناك رذاذ على الغابة. فأشار هيرغر ولم يتكلم، فقلت: «هل هو الرذاذ؟»، فقال: «لا تسأل أكثر. ستعرف أسرع مما تودّ».

وحدث أن دخل بوليويف بيتاً محترقاً مهدماً وعاد إلينا يحمل سيفاً كبيراً وثقيلاً وحامياً جداً بحيث كان يلف خرقة على قبضته، وكان أكبر سيف رأيته في حياتي.

كان في طول قامتي وكانت شفرته واسعة مثل كفي رجلين جنباً إلى جنب. كان كبيراً وثقيلاً بحيث كان بوليويف نفسه يزفر لحمله. وسألت هيرغر عن السيف فقال: «إنه (الروندينغ)، وبعد ذلك أمر بوليويف جماعته بركوب السفينة، وأبحرنا مرة أخرى. ولم ينظر أي محارب وراءه إلى بلدة (يتلام) المحترقة. أنا وحدي التفت لأنظر فرأيت الدخان، والخراب، والرذاذ، فوق التلال خلفها.

*****

مضارب تريلبورغ

وأبحرنا مسافة يومين على طول الشاطئ المنبسط، بين عدد كبير من الجزر التي تدعى أرض (الدان)[1] إلى أن وصلنا إلى منطقة من المستنقعات يخترقها عدد من الأنهار الضيقة التي تصب في البحر. هذه الأنهار لا أسماء لها، ولكن الواحد منا يدعى (فيك) وأهلها يدعون (فاينكنج)، ومعناها عند الشماليين المحاربون الذين يجوبون بمراكبهم خلال هذه الأنهار، ويهاجمون المستوطنات الواقعة على ضفافها[2].

وفي هذه المنطقة توقفنا بمكان يدعى (تريلبورغ) أثار استغرابي؛ ذلك لأنه لم يكن بلدة، ولكن معسكراً، وأهله محاربون، وليس بينهم إلا قليل من النساء والأطفال.

وأسوار معسكر (تريلبورغ) مبنية بعناية كبيرة ومهارة عالية، وعلى الشكل الروماني.

وتقع (تريلبورغ) على ملتقى نهرين يصبان في البحر. والطرف الأوسط من البلدة محاط بجدار من الطين في طول

---

(١) أغلب الظن أنها (الدانمرك) اليوم.

(٢) ويعلق الكاتب على هذا بقوله: «هناك خلاف بين العلماء المعاصرين حول أصل المصطلح (فيكنغ) ولكن أغلبهم يتفق مع ابن فضلان بأنه مشتق من كلمة (فيك) التي تعني الغدير أو النهر الضيق.

خمسة رجال يقف الواحد منهم فوق كتفي الآخر. وفوق هذا الجدار الطيني يقوم حاجز من الخشب زيادة في الوقاية، وخارج السور الطيني يوجد خندق مليء بالماء، لم أعرف عمقه.

هذا السور الطيني بديع الصنع والتناسق بحيث يضاهي أي شيء نعرفه، وبداخل السور سورٌ ثان شبهُ دائري عال، ووراءه خندق آخر.

وتقع البلدة داخل السور الداخلي الذي تخترقه أربع بوابات تواجه أركان الأرض الأربعة. وكل بوابة عليها باب سميك من خشب الأرز مزود بأقفال ثقيلة من الحديد وعليه عدد كبير من الحراس، وعلى الأسوار حراس كثيرون يتمشون ليل نهار.

وداخل البلدة يقوم ستة عشر منزلاً بنيت كلها على شكل مستطيل، وكذلك يسميها الشماليون، ذلك أن حيطانها تنثني لتشبه قوارب مقلوبة قطعت ظهورها لتبقى مسطحة وطُولها ثلاثون خطوة، وهي أوسع في الوسط منها في الجانبين. وهي مرتبة هكذا: كل أربعة منازل متوازية بدقة بحيث تشكل مربعاً. وأربع مربعات تكون ستة عشر منزلاً في مجموعها[1].

---

(١) وهنا يعلق الكاتب قائلاً: «دقة ملاحظات ابن فضلان هنا تثبتها الأدلة الأثرية المباشرة. وفي سنة ١٨٤٨، تم التنقيب عن الموقع العسكري (لتريلبورغ) في (زيلاندا) الغربية بالدانمرك. والموقع يتفق بالضبط مع وصف ابن فضلان لحجم المعسكر وطبيعة بنائه.

وكل منزل مستطيل له مدخل واحد. ولا يُرى باب أي منزل من باب الآخر. وسألت عن سبب ذلك فأجابني هيرغر: «إذا هوجم المعسكر وجب على الرجال الإسراع إلى الدفاع عنه. والأبواب بنيت هكذا بحيث لا يختلط الرجال أثناء خروجهم، ويعوقون حركة بعضهم البعض، بل بالعكس كل رجل يستطيع أن يذهب بحرية للقيام بمهمة الدفاع».

لذلك ففي داخل كل مربع تجد منزلاً بابه شمالي، وآخر بابه شرقي، وثالث بابه جنوبي، ورابع بابه غربي. وكذلك المربعات الأربع.

ولاحظت كذلك أن الشماليين عمالقة، بينما هذه الأبواب واطئة جداً لدرجة أنني أنا نفسي كان علي أن أنحني جداً لأدخلها. وحين سألت (هيرغر) أجابني:

«إذا هوجمنا يمكن لمحارب واحد أن يبقى داخل المنزل ليقطع بسيفه رأس كل داخل من الباب فالباب واطئ، وكل داخل لابد أن ينحني».

وقد رأيت من جميع الجوانب أن مدينة (تريلبورغ) كانت مبنية للحرب والدفاع.

ولا تجارة تجري هناك بالمرة. كما قلت.

أما داخل المنازل المستطيلة فينقسم إلى ثلاثة أقسام من الغرف، كل واحدة لها باب، والغرفة الوسطى هي أكبرها، وكل منزل له حفرة للأزبال.

ولاحظت أن أهل (تريلبورغ) ليسوا كالشماليين القاطنين على نهر (الفولغا)، لأنهم كانوا نظيفين يغتسلون في النهر، ويقضون حاجاتهم خارج منازلهم، وكانوا أحسن من جميع من عرفت في كل شيء. ولكن نظافتهم كانت نسبية بالمقارنة مع الشماليين.

أما مجتمع (تريلبورغ) فأغلبه رجال، وكل النساء جوار وإماء. ولا توجد زوجات بين النساء، وكل النساء ملك مشاع للرجال، وطوع إرادتهم. ويعيش أهل (تريلبورغ) على السمك وبعض الخبز. ولا يحرثون، ولا يزرعون، ورغم أن هناك مناطق صالحة للزراعة بالمستنقعات المحيطة بهم. وحين سألت (هيرغر) عن ذلك قال لي: «هؤلاء محاربون ولا يفلحون الأرض».

وقد استقبل أهل (تريلبورغ) بوليويف وجماعته استقبالاً حسناً، خصوصاً رؤساؤهم وهم عديدون، وعلى رأسهم المدعو (ساغارد)، وهو رجل قوي وشديد، وفي ضخامة بوليويف تقريباً.

وأثناء مأدبة العشاء سأل (ساغارد) بوليويف عن مهمته وسبب سفره، فأخبره برجاء (وولفغار). وترجم لي (هيرغر) كل ما دار، رغم أنني في الواقع قضيت من الزمن ما يكفي بين هولاء

الوثنيين لتعلم كلمة أو اثنتين من لسانهم. وهذه فحوى حديث (ساغارد) و(بوليويف).

قال: (ساغارد): «من المعقول أن يقوم (وولغفار) بحمل رسالة والده، رغم أنه ابن الملك (روثغار)؛ لأن أبناءه الآخرين يقاتلون بعضهم بعضاً».

فقال بوليويف: إنه لا يعرف شيئاً عن ذلك، أو شيئاً من هذا القبيل. ولكني فهمت أنه لم يفاجأ بذلك. ولكن بوليويف قلما كان يفاجأ بأي شيء. وذلك كان دوره كقائد لرجاله وكبطل لهم.

وتكلم (ساغارد) مرة أخرى فقال:

«حقاً إنه كان (لروثغار) خمسة أبناء، ثلاثة منهم قتلوا بيد واحد منهم هو (ويغليف) الماكر[1] الذي تآمر عليهم مع حاجب الملك العجوز. ولم يبق وفياً غير (وولفغار) وقد رحل.

---

(١) يعلق الكاتب على كلمة ماكر CUNNING بقوله: «إنها تعني حرفياً رجلاً مزدوج اليدين». وكما سيتضح فيما بعد. كان الشماليون يستعملون اليد اليمنى واليسرى بالمهارة نفسها في القتال، ونقل السلاح من يد إلى أخرى في القتال كان يعتبر خدعة تثير الإعجاب؛ لذلك كان يسمى الرجل المزدوج اليدين بالماكر. وفي زمن ما كانت نفس المعنى مرتبطة بكلمة متقلب التي تعني الآن خادعاً ومراوغاً، ولكنها كانت ذات معنى إيجابي مثل «واسع الحيلة» «ويتقن المناورة».

وقال بوليويف (لساغارد): إنه سر بمعرفة تلك الأخبار، وإنه سيحتفظ بها في باله. وهناك انتهى الحديث. ولم يظهر بوليويف ولا محاربوه المفاجأة أبداً من كلمات (ساغارد) ومن ثم عرفت إنه شيء عادي أن يقتل أبناء ملك بعضهم بعضاً للظفر بالعرش.

ومن العادي كذلك أن يقتل ولد أباه الملك ليظفر بعرشه، ولا يرى الشماليون في ذلك شيئاً عظيماً، بل ينظرون إليه كما ينظرون إلى عراك بين محاربين سكارى.

وللشماليين مثل يقول: «انظر إلى ظهرك» ويعتقدون أن الرجل يجب أن يكون دائماً على استعداد للدفاع عن نفسه حتى الأب ضد ابنه.

وعند خروجنا سألت (هيرغر):

«لماذا توجد تحصينات على جانب (تريلبُورغ) المواجه للبر، بينما لا توجد تحصينات إضافية تواجه البحر. فالشماليون رجال بحر ويهاجمون من البحر؟».

فأجاب هيرغر: «الأرض هي مصدر الخطر».

فسألته: «لماذا تكون الأرض خطرة؟».

فأجاب: «بسبب الضباب».

وعند رحيلنا عن (تريلبورغ) وقف المقاتلون المتجمعون يضربون بسيوفهم على تروسهم محدثين ضجة عظيمة حول سفينتنا التي رفعت قلوعها وأبحرت. وقد قيل لي: إنهم يفعلون ذلك لإثارة انتباه (أودين)، أحد آلتهم العديدين، ليبارك رحلة بوليويف ورجاله الاثني عشر.

وعرفت كذلك أن رقم ثلاثة عشر له معنى خاص عند أهل الشمال؛ لأن القمر يكبر ويحتجب ثلاث عشرة مرة في السنة، حسب علمهم؛ ولهذا فجميع الحسابات المهمة يجب أن تحتوي على رقم ثلاثة عشر. وقد أخبرني (هيرغر) بأن عدد المساكن في (تريلبورغ) هو ثلاثة عشر، كما سبق أن قلت.

وعلمت، زيادة على هذا، أن لهؤلاء الشماليين فكرة ما بأن السنة لا تحتوى بالضبط على ثلاثة عشر ظهوراً للقمر، ولهذا فرقم ثلاثة عشر ليس قاراً وثابتاً في أذهانهم. والمرة الثالثة عشرة تمسي عندهم سحرية وغَريبة، وقد قال لي (هيرغر): «لذلك تم اختيارك لتكون الرجل الثالث عشر لأنك غريب عنا».

وهؤلاء الشماليون مشعوذون حقاً، ولا يرجعون إلى عقل، أو منطق، أو قانون.

وقـــد بـــدوا لي كـأطفـــال مـتـوحـشـــــين، ومع ذلك كنت بينهم، فلزمت الصمت. وقد سررت لتكتمي إذ لم تمر مدة طويلة حتى حدث الآتي:

بعد إبحارنا بمدة عن (تريلبورغ) تذكرت أنه لم يحدث قط من قبل أن ودَّعَنَا سكان بلدة باحتفال ضربوا فيه بسيوفهم على تروسهم لمناداة (أودين). فقلت ذلك (لهيرغر)، فقال:

«حقاً. هــناك ســـبب خاص لمناداة (أودين)؛ لأننا الآن في بحر الغيلان».

وبدا لي هذا دليلاً على شعوذتهم. وسألت عما إذا كان أحد المحاربين قد رأى غولاً في حياته، فقال: «كلنا رأيناهم. وكيف كنا سنعرف بوجودهم دون ذلك؟». ومن لهجته استطعت أن أتبين أنه كان يعتبرني أحمق لشكي.

وبعد مدة من الزمن، ارتفعت صيحة ووقف جميع مقاتلي بوليويف يشيرون إلى البحر ينظرون ويتصايحون فيما بينهم. وســألت (هــيـرغـر) عـمـا حــدث، فـأجـاب مـشـيـراً: «إننا بين الغيلان الآن».

والمحيط في هذه المنطقة هائج جداً، فالريح تهب بقوة شديدة، بحيث تجعد وجه الماء وتحيله أبيض من الزَّبَد، وترش

وجوه البحارة بالماء، وتخدع أبصارهم. وقد راقبت البحر دقائق متعددة فلم أر أثراً لهذه الغيلان البحرية. ولم أر سبباً لتصديق ما قالوا.

وفجأة صاح بحار منهم باسم (أودين) صيحة دعاء مكرراً الاسم عدة مرات في ابتهال. وحينئذ رأيت بعيني غول البحر. كان أشبه ما يكون بحية عملاقة. ولم يرفع رأسه قط عن سطح الماء. ولكنني رأيت جسده يتلوى وينقلب. وكان طويلاً جداً، وأوسع من مركب الشماليين، ولونه أسود وكان يرش الماء في الهواء مثل نافورة. وبعد ذلك غاص في الماء رافعاً ذيله الذي كان مشطوراً شطرين مثل لسان حية، وضخماً جداً، بحيث كان كل شطر منه أوسع من أكبر سعفة.

ورأيت غولاً آخر، ثم آخر، ثم آخر بعده. كان يبدو أنهم أربعة أو ستة، وربما سبعة. وكل واحد منها كان يفعل كصاحبه: يتقوس في الماء، ويرش نافورة، ويرفع ذيلاً عظيماً منشطراً شطرين. وعند ظهورها كان الشماليون يصيحون مستغيثين (بأودين) وَهَوَى كثير منهم إلى ركبهم على سطح السفينة يرتعدون.

وقد رأيت بعيني غيلان البحر يحيطون بنا من جميع الجهات. وبعد مدة. اختفوا ولم نرهم بعد ذلك.

واستأنف مقاتلو بوليويف إبحارهم بجد. ولم يتكلم أحد منهم عن الغيلان، ولكنني بقيت خائفاً مدة طويلة بعد ذلك، حتى إن (هيرغر) قال لي بأن وجهي كان أبيض كوجه الشماليين، وضحك سائلاً: «ماذا يقول (الله) في ذلك؟»، ولم أجد جواباً على ذلك[1].

وسألت هيرغر عما إذا كان غيلان البحر يهاجمون السفن، وإذا كانوا يفعلون فبأية طريقة؟ لأنني لم أر رأس أي واحد من هذه الغيلان.

وأجاب (هيرغر) بأن نادى (إيكثغو)... أحد النبلاء، ومساعد بوليويف وكان (إيكثغو) رجلاً رزينا جداً، ولا يبدو عليه المرح إلا إذا شرب. وقال لي (هيرغر) بأنه كان على ظهر سفينة هوجمت، وقال لي (إيكثغو) «إن غيلان البحر أكبر من أي شيء على سطح الأرض، وأكبر من أي سفينة على البحر. وحين يهجمون يدخلون تحت السفينة ويرفعونها في الهواء ويرمونها جانباً كقطعة خشب،

---

(١) هذه الحكاية التي تصف كما هو واضح، رؤية حيتان، يختلف عليها عدة دارسين. وهي واردة في مخطوط (الرازي) كما هي هنا، ولكنها في ترجمة (سيوغرن) أخصَر، ويبدو الشماليون فيها وهم يلعبون مقلباً متقناً على العربي. فالشماليون كانوا يعرفون العنابر (الحيتان) ويميزونها عن غيلان البحر، حسبما أورده (سيوغرن) وهناك دارسون، ومن بينهم (حسن) يشكون في أن يكون ابن فضلان غير عالم بوجود العنابر كما يبدو هنا.

ويسحقونها بألسنتهم المرشوقة». وقال (إيكثغو) بأنه كان على ظهر سفينته ثلاثون رجلاً، ولم ينج إلا هو واثنان آخران، بفضل عناية الآلهة. كان (إيكثغو) يتكلم بطريقة عادية، الأمر الذي كان يبدو منه جدياً جداً، وقد تبينت أنه كان يقول الحق.

وقال لي (إيكثغو) كذلك بأن الشماليين يعرفون أن الغيلان تهاجم السفن لأنها ترغب في التزاوج مع السفينة، معتقدين أنها أنثى من جنسها، ولهذا السبب لا يبني الشماليون سفنهم كبيرة الحجم.

وقال لي (هيرغر) بأن (إيكثغو) محارب عظيم مشهور في المعارك، وصادق في كل ما يقول.

وفي اليومين التاليين أبحرنا بين بلاد (الدان)، وفي اليوم الثالث عبرنا ممراً من الماء المفتوح. وهناك كنت خائفاً من رؤية غيلان بحرية أخرى، ولكننا لم نفعل، ووصلنا إلى أرض تدعى (فيندين) وأراضي (الفيندين) هذه جبلية ووعرة جداً. واقترب رجال بوليويف في مركبهم منها ببعض التعاويذ، وبذبح دجاجة ألقوا برأسها في المحيط من مقدمة السفينة وبجسدها من مؤخرتها قرب الربان.

ولم نرس مباشرة على هذه الأرض الجديدة (فيندين) بل سرنا بمحاذاتها حتى وصلنا أخيراً إلى مملكة (روثغار). وأول ما رأيت منها كان قبة هائلة من الخشب فوق جرف عال مشرف على البحر الرمادي الغاضب. فقلت (لهيرغر) «إنه منظر رائع» ولكن (هيرغر) وجميع رفقائه، وعلى رأسهم بوليويف، كانوا يزفرون ويحركون رؤوسهم.

وسألت (هيرغر) عن سبب ذلك، فقال:

«(روثغار) يدعى (روثغار) المغرور، وقصره العظيم، هو قصر رجل مغرور» فقد كان في الحقيقة، وكما رأيت حين اقتربنا منه مزخرفاً بزخارف ممتازة ونقوش مطعمة بالفضة التي تتلألأ من بعيد.

فقال هيرغر: «لا، بل أقول إن (روثغار) مغرور لأنه بنى قصره في ذلك المكان.. فهو يتحدى الآلهة أن تضربه. ويدعي أنه أكثر من إنسان. ولهذا فهو يعاقب».

ولم أكن قد رأيت في حياتي مبنى بهذه المناعة، فقلت (لهيرغر):

«هذا المبنى لا يمكن مهاجمته، فكيف يمكن ضرب (روثغار)؟».

فضحك (هيرغر) مني، وقال:

«أنتم العرب مغفلون بلا حساب. ولا تعرفون شيئاً من أمور الدنيا. فروثغار يستحق المصيبة التي نزلت عليه، ونحن فقط الذين سننقذه، وربما لن نتمكن من ذلك».

وحيرتني كلماته أكثر، فنظرت إلى (إيكثغو)، مساعد بوليويف، فرأيت أنه وقف على سطح المركب، وأظهر وجهاً شجاعاً. ولكن ركبتيه كانتا ترتعدان، وليس من برودة الريح، فقد كان خائفاً. وكلهم كانوا خائفين، ولم أدر لماذا.

*****

مملكة روثغار في أرض (فيندن)

رست سفينتنا في وقت صلاة الظهر، واستغفرت الله لتخلفي عن أدائها. ولم أكن أجرؤ على الصلاة أمام الشماليين الذين كانوا يعتقدون أن صلاتي كانت دعاء عليهم، وكانوا يهددونني بالقتل إذا صليت على مرأى منهم.

ولبس كل مقاتل بالمركب دروع المعركة، التي كانت كالآتي: أولا، نعال وجوارب عالية من صوف خشن، وفوقها غطاء من الفرو الثقيل الذي يصل إلى الركبة. وفوق ذلك أغطية من الجلد الذي كان عندهم جميعاً إلا أنا. وبعد ذلك أخذ كل واحد منهم سيفه وأدخله في حزامه، وكل رجل رفع ترسه المصنوع من الجلد الأبيض، ورمحه، وكل رجل وضع خوذة من الحديد أو الجلد على رأسه[1] وفي هذا كان الرجال جميعاً متشابهين إلا بوليويف الذي كان يحمل سيفه في يده، لأنه كان كبيراً جداً.

ونظر المقاتلون إلى قصر (روثغار) العظيم، وأخذوا يظهورن إعجابهم بسقفه اللامع ومهارة الصنعة فيه، واتفقوا على أنه لا

---

(١) الصور المعروفة للإسكندينافيين تظهرهم دائماً لابسين خوذات عليها قرون. وفي عهد زيارة ابن فضلان، كان قد مر على ترك الإسكندينافيين لهذه الخوذات أزيد من ألف سنة، منذ بداية عصر البرونز.

يوجد مثيل له في العالم، بسواريه السامقة ونقوشه الغنية ومع ذلك لم يكن في كلامهم احترام له.

ونزلنا من السفينة، وقصدنا القصر على طريق مبلطة بالحجارة، وأحدث صليل السيوف وقعقة السلاسل ضوضاء عالية. وبعد صعودنا مسافة قصيرة رأينا على جانب الطريق رأس ثور فوق عصا، وكان حديث العهد بالذبح.

وتنهد جميع الشماليين، وعبست وجوههم لذلك المشهد، ورغم أنه كان غير ذي معنى بالنسبة لي. فقد كنت قد تعودت على عادتهم بقتل حيوان لأتفه قلق أو استفزاز. ولكن رأس الثور هذا كان له مدلول خاص.

نظر بوليويف بعيداً عبر حقول أراضي (روثغار)، ورأى هناك منزلاً فلاحيا منفرداً من النوع الشائع في أرض (روثغار). كانت حيطانه من خشب، وسقوفه مسدودة بعجينة من الطين والتبن الذي يجب تعهده بعد تهاطل الأمطار. أما السقوف فكانت من أعواد التسقيف والخشب كذلك. وداخل المنزل لم تكن إلا أرضية من الطين ومدفأة، وروث الحيوانات. فالمزارعون ينامون مع حيواناتهم داخل البيوت طلباً للدفء الصادر عن أجسادها، ويستعملون الروث وقوداً للنار.

وأمَرَ بوليويف بأن نذهب إلى ذلك المنزل الريفي فمشينا عبر الحقول الخضراء المبتلة. وتوقفنا لفحص الأرض مرة أو مرتين قبل متابعة السير، ولكنهم لم يروا شيئاً يهمهم. ولم أر أنا الآخر شيئاً.

وأوقف بوليويف جماعته، مرة أخرى، وأشار إلى التراب الأسود. ورأيت بعيني أثر قدم حافية وفي الواقع عدة أقدام. كانت تلك الآثار ملساء وأقبح من أي شيء معروف للخليقة.. على رأس كل إصبع كان أثَر ظفر أو مخلب حاد، بحيث كان الحجم بشرياً، وفي نفس الوقت غير بشري. وقد رأيت ذلك بعيني وما كدت أصدقه.

وحرك بوليويف ومقاتلوه رؤوسهم لما رأوا، وسمعتهم يعيدون كلمة واحدة مرة بعد أخرى، وهي كلمة «فيندول» أو «فيندلون» أو ما يشبهها. ولم أعرف معنى الاسم. وأحسست أنني لا ينبغي أن أسأل (هيرغر) في هذه اللحظة لأنه كان قلقاً كالباقي. وسرنا سيراً حثيثاً إلى المنزل القروي ونحن نرى، مرة بعد أخرى، آثار الأقدام ذات المخالب على الأرض. ومشى بوليويف ومحاربوه على مهل، ولم يكن ذلك حذرا منهم، فلم يستل أحدهم سلاحه، ولكنه كان نوعاً من الخوف لم أفهمه، إلا أنني أحسسته معهم.

وفي النهاية وصلنا إلى المنزل القروي ودخلناه. وفيه رأيت بعيني هذا المنظر: شاب جميل متناسق الأعضاء فصلت أعضاء جسده عن بعضها عضواً عضواً... الصدر هنا، وذراع هناك، وساق هناك. وعلى الأرض برك خاثرة من الدم تلطخت به الجدران، والسقوف، وكل مكان بحيث ظهر المنزل مطلياً بالدم القاني. وكانت هناك امرأة ممزقة بنفس الطريقة. وكذلك طفل ذكر في سنته الثانية أو أصغر، اقتلع رأسه من بدنه فأصبح جذعاً دامياً.

رأيت كل هذا بعيني، وكان أشد ما شاهدته في حياتي إرعابا، فأفرغت ما في جوفي، وبقيت دائخاً لمدة ساعة، ثم تقيأت مرة أخرى.

ولن أفهم أبداً سلوك الشماليين، فحتى وأنا أقيء، كانوا هم هادئين باردي الأعصاب أمام هذا المشهد المرعب، يراقبون كل ما رأوا بطريقة هادئة، يناقشون آثار المخالب على الأعضاء، وطريقة التمزيق. وقد أعطوا اهتماماً كبيراً لغياب الرؤوس، ولاحظوا كذلك أبشع مشهد على الإطلاق، والذي ما زلت أتذكره حتى الآن فترتعش فرائصي بشدة:

ذلك أن جسد طفل ذكر كان قد مضغته أسنان شيطانية في أجزائه الناعمة وراء الفخذ، ومنطقة الكتف، رأيت بعيني هذه الفظاعة!

وخرج مقاتلو بوليويف عابسي الوجوه، يزمجرون من المنزل القروي.. واستمروا في إعارة انتباههم إلى الوحل حول المنزل، ملاحظين أنه لم تكن هناك آثار حوافر، الأمر الذي كان له معنى خاص عندهم. ولم أفهم لماذا، ولم يكن يهمني، فقد كنت أشعر بالغثيان والضعف.

وأثناء عبورنا للحقول اكتشف (ايكثغو) حصاة صغيرة، أصغر من قبضة طفل، وكانت منعمة ومنقوشة بطريقة بدائية. واجتمع حوله جميع المحاربين لمعاينتها، وأنا معهم.

ورأيت أنه جِذع امرأة حامل. لم يكن له رأس، ولا ذراعان ولا ساقان، كان جذعا فقط ببطن منتفخة، وفوقها نهدان منتفخان متدليان[1] وحسبت ذلك التمثال بدائياً للغاية وبشعاً، ولا شيء أكثر. ولكن الشماليين ظهر عليهم فجأة التخوف والشحوب، وارتعشت أيديهم وهم يلمسونها. وأخيراً رمى به بوليويف إلى الأرض وسحقها بمقبض سيفه حتى صارت شظايا صغيرة. وحينئذ أصيب عدد من المقاتلين بما أصبت به من غثيان، وأخذوا يفرغون أجوافهم على الأرض. وكان فزع الجميع عظيماً لدرجة أذهلتني.

---

(١) يتفق هذا الوصف مع عدد من النحوت التي عثر عليها في فرنسا والنمسا.

ومن ثم ذهبوا إلى قصر الملك (روثغار)، ولم يتكلم أحد أثناء مسيرنا الذي أخذ قرابة الساعة. وكل واحد من الشماليين كان يبدو منطوياً على نفسه، غارقاً في تفكير مُرٍّ عميق، ولكن لم يبد عليهم أي خوف بعد ذلك.

وفي الطريق وقف لنا حاجب على جواد وأقفل الطريق أمامنا. ورأى الأسلحة التي كنا نحملها، وعدد رفاق بوليويف، فصاح منذرا.

وقال لي (هيرغر) «إنه يريد أن يعرف أسماءنا، وبسرعة».

وأجاب بوليويف الحاجب، ومن صوته فهمت إنه لم يكن له مزاج لتقبل مزاح البلاطات وقال لي (هيرغر):

«بوليويف يقول له إننا من رعايا الملك (هيغلاك)، صاحب مملكة (ياتلام) ونحن ذاهبون في مهمة إلى الملك (روثغار) ونريد الحديث إليه»، وأضاف هيرغر: «بوليويف يقول: إن الملك (روثغار) ملك عظيم»، ولكن لهجة (هيرغر) كانت تدل على عكس ذلك.

وطلب منا الحاجب التوجه إلى القصر، والبقاء خارجه حتى يخبر الملك بوصولنا. وفعلنا. رغم أن بوليويف وجماعته لم تعجبهم تلك المعاملة. وارتفعت أصوات الاحتجاج والامتعاض؛ ذلك لأن الشماليين قوم كرماء، وهذه ليست طريقتهم في

الاستقبال، فلا يجوز تركهم خارج المكان. ولكنهم انتظروا، ونزعوا أسلحتهم، سيوفهم، ورماحهم، إلا أنهم لم ينزعوا دروعهم، وتركوا الأسلحة خارج باب القصر.

وكان القصر محاطاً من جميع الجهات بعدد من المنازل بطريقة الشماليين. وكانت هذه مستطيلة منعرجة الجوانب كالتي في (تريلبورغ)، ولكنها مختلفة عنها في الترتيب، فلم تكن هناك أية مربعات، ولا تحصينات. وخلافاً لذلك فقد كانت الأرض تنحدر من القصر والمنازل المستطيلة حوله إلى سهل أخضر تتخلله المنازل القروية هنا وهناك، ومن ورائه التلال، وبداية الغابة.

وسألت (هيرغر) لمن تكون هذه المنازل المستطيلة، فقال لي:

«بعضها للملك، والأخرى للعائلة الملكية، والنبلاء، وبعضها للخدم والحشم بالقصر».

وقال لي كذلك بأن المكان صعب، ولم أفهم ما كان يقصد بذلك.

وأُذن لنا في دخول قصر الملك (روثغار) الذي أقول حقاً: إنه يجب أن يُعد واحداً من عجائب العالم، خصوصاً وأنه موجود في بلاد الشمال البدائية. ويسمى هذا القصر بين قوم (روثغار) باسم (قبة هيورات)، لأن أهل الشمال يطلقون أسماء الأفراد على أدوات معيشتهم مثل المباني، والمراكب، خصوصاً الأسلحة.

(وهيورات) أي قصر (روثغار) العظيم، كان في ضخامة قصر الخليفة الكبير. وكان مطعما بالفضة. وحتى بعض الذهب الذي كان نادرا جداً بالشمال. وعلى كل الجوانب كانت النقوش والزخارف ذات البهاء الرائع الغني بمهارته الفنية. وكان حقاً شاهداً على قوة وجلال الملك (روثغار).

وجلس الملك (روثغار) في طرف القاعة الفسيحة جداً لدرجة أننا لم نكد نميزه.

وكان واقفاً إلى كتفه اليمنى نفس الحاجب الذي أوقفنا في الطريق. وتكلم الحاجب فقال لي (هيرغر) إنه يقول:

«يا أيها الملك، هذه جماعة من محاربي مملكة (ياتلام). وقد وصلوا حديثاً من البحر. وزعيمهم اسمه بوليويف، وهم يستأذنون في الحديث معكم في مهمتهم، يا أيها الملك، لا تمنعهم من الدخول، فلهم سَمتُ الأعيان، ومظهر زعيمهم يدل على إنه محارب جبار. فرحب بهم كأعيان، يا أيها الملك (روثغار)».

وحينئذ طلب إلينا الاقتراب من الملك (روثغار).

وبدَا الملك (روثغار) كرجل مشرف على الموت. فلم يكن شابا. وكان شعره أبيض، وجلده شاحباً، ووجهه مثقلاً بالخوف والحزن. ونظر إلينا بارتياب وهو يقطب عينيه فربما كان يشرف على العمى، لا أدري. وأخيراً أخذ يتكلم، و(هيرغر) يترجم لي:

«أعرف هذا الرجل، لأنني أرسلت إليه ليقوم بمهمة بطولية. إنه بوليويف. وقد عرفته كطفل حين سافرت إلى مملكة (ياتلام) بالبحر. فهو ابن (هيغلاك) الذي استضافني بكرم، والآن يأتي ابنه إليّ في وقت احتياجي وحزني».

ونادي (روثغار) بإدخال المحاربين إلى القاعة، ووزعت بينهم الهدايا وبدأت الاحتفالات.

وألقى بوليويف خطابا مطولا لم يترجمه لي (هيرغر) لأن الكلام أثناء خطابه يعد خروجاً عن اللياقة، ولكن معنى ما قاله هو هذا: «إن بوليويف علم بمشاكل (روثغار) وإنه تأثر لذلك وإن مملكة أبيه نفسها تحطمت لنفس المشاكل، وإنه جاء لإنقاذ مملكة (روثغار) من الشر الذي حاق بها».

ولكنني لم أعرف حتى هذه اللحظة ما كان يسميه الشماليون بالشرور، أو كيف كانوا يتصورنها، رغم أنني رأيت أفعال تلك الوحوش التي مزقت الناس إربا.

وتكلم الملك (روثغار) بنوع من العجلة. وفهمت من طريقة كلامه أنه كا يريد أن يقول شيئاً قبل أن يأتي محاربوه وأعيانه. وهذا ما ترجمه لي (هيرغر) من كلامه:

«يابوليويف، عرفت أباك حين كنت أنا الآخر شاباً، وحديث العهد بعرشي. وأنا الآن شيخ عليل القلب، وقد انتكس رأسي،

وبكت عيناي من خجل الاعتراف بضعفي، وكما ترى عرشي كاد يكون مكاناً ممحلا، وأراضيَّ تتحول إلى أراضٍ خالية مهملة. ولا أستطيع أن أقول ما فعل الغيلان. ولكن عندما يزحف ضوء الفجر الكئيب فوق ضباب الحقول نرى أجساما دامية في كل مكان. وهذا هو حزن حياتي، ولن أتكلم عنه بعد الآن».

وجيء بمائدة، ووضع أمامنا الطعام، فسألت (هيرغر) عما كان الملك يعني بالغيلان، فغضب (هيرغر) وقال لي ألاَّ أسأله أبداً.

وفي ذلك المساء أقيمت حفلة عظيمة، برئاسة الملك (روثغار) والملكة (وايليو) التي كانت تلبس لباساً مزركشاً بالذهب ومرصعاً بالجواهر، وحضر أعيان المملكة وجنودها ونبلاؤها. وكانوا جماعة تثير الشفقة. فقد كانوا عجزة سكِّيرين، وكثير منهم مقعدون أو جرحى. وفي عيونهم جميعاً كانت نظرات الخوف الجوفاء، وكان مرحهم مزيفاً.

وكان (ويغليف) ابن الملك (روثغار) الذي سبق أن ذكرته، حاضراً كذلك وهو الذي قتل ثلاثة من إخوته. وكان نحيفاً، وله لحية شقراء وعينان لا تستقران على شيء، بل تتحركان هنا وهناك باستمرار، ولا تتقابلان مع نظرة أحد.

رآه هيرغر وقال: «إنه ثعلب».

وكـان يريد بذلك أنه مـتـقلب، ومـتلون، ومـتـزلِّف، ومـزيف السـريرة، والشـمـاليـون يعتـبـرون أن الثـعلب حـيـوان يسـتطيع أن يتقمص أي شكل يريد.

وفي وسط الاحـتـفـالات أرسل (روثغـار) حـاجـبـه إلى أبواب قـاعـة (هيـورات) فـعـاد هذا وأخـبـر بأن الضـبـاب لن ينزل في تلك الليلة وفـرح الجـمـيع جـدا لذلك، واحـتفلوا بخـبـر أن الليلة ستكون صـافية، وسُرَّ الجـميع إلا (ويغليف).

وفي وقت معين وقف (ويغليف)، وقال:

«أشرب نخب ضيوفنا، وخصوصاً بوليويف، المحارب الشـجاع الصـادق الذي جـاء لمساعدتنا في محنتنا، رغم أن الأمـر قد يكون أعظم من أن يتغلب عليه».

وهمس (هـيـرغـر) ذلك في أذني فـفكرت أنه مـدح وقـدح في نفس الوقت.

والتـفـتت جـمـيع العـيـون إلى بوليـويف لسـمـاع رده. ووقف وليويف ونظر إلى (ويغليف)، وقال:

«أنا لا أخـاف من أي شيء حـتى الغـول الذي يزحف بالليل ليقتل الناس في نومهم».

وفـهـمت إنه يعنـي (الفنـدول)، ولكن (ويغليـف) شَـحُبَ لونه، وقبض على الكرسي الذي كان يجلس عليه. وقال بصوت مرتعد:

«هل تتكلم عني»؟

فأجاب بوليويف:

«لا، ولكني لا أخشاك، كما لا أخشى غيلان الضباب».

وألح (ويغليف)، رغم أن الملك أشار إليـه ليبـقى جالسـاً في مكانه، فقال لجميع النبلاء المتجمعين:

«بوليـويف هذا جـاءنا من بلاد بعيـدة، ويبـدو عليـه الكبـرياء والقوة العظيمة. إلا أنني قد عزمت على اختبار شجاعته، لأن الكبرياء قد تُغطِّي عين أي رجل».

وحينئـذ وقف محارب قويّ كـان يجلس خلف بوليـويف، على مائدة قريبة من الباب وبسرعة أمسك رمحاً وهاجم بوليويف من الخلف. وقع هـذا في أقل من طرفـة عين. ورغم ذلك اسـتـدار بوليويف واستل رمحا طعن به المحارب في وسط الصدر، ورفعه به فوق رأسه ورماه على الحائط. وبقى المحارب على السفود، ورجلاه متدليتان على الأرض، وهو يركل، ورأس الرمح مغروز في حائط القاعة، حتى مات دون صوت.

فقامت فوضى كبيرة واستدار بوليويف ليواجه (ويغليف)، وقال: «وهكذا سأفعل بأي تهديد».

وبعد ذلك، وبسرعة كبيرة تكلم (هيرغر) وبصوت عال جداً وهو يشير إليَّ إشارات كثيرة فاحترت مما حدث، وفي الحقيقة بقيت عيناي معلقتين على المحارب الميت المعلق بالحائط.

وبعد ذلك استدار (هيرغر) نحوي وقال باللاتينية:

«ستغني لنا أغنية عن بلاد الملك (روثغار). الكل يرغب في ذلك».

فسألته: «ماذا سأغني؟ أنا لا أعرف أية أغنية».

فأجاب: «ستغني شيئاً يسلِّي القلب».

وفي الحقيقة لم أدر ما أغني، لأنني لست مطرباً، ومضى وقت والجميع يحدقون فيَّ، وقد ران الصمت على القاعة، ثم قال لي (هيرغر):

«غن أغنية الملوك والمعارك».

فقلت: «أنا لا أعرف مثل هذه الأغاني، ولكني أستطيع أن أحكي لهم حكاية تعتبر في بلدي مضحكة ومسلية».

فقال: «إن ذلك اختيار حكيم».

ثم حكيت لهم وللملك (روثغار)، وزوجته الملكة (وايليو)، وابنه (ويغليف)، وجميع الأعيان والمحاربين الحاضرين حكاية أبي القاسم الطنبوري التي نعرفها جميعاً. تكلمت بمرح وابتسمت طول الوقت. وفي البداية انشرح الشماليون وضحكوا وضربوا بطونهم. ولكن بعد ذلك حدث شيء غريب فقد أخذوا يكفون عن الضحك تدريجياً، وأنا أحكى الحكاية، حتى توقفوا تماماً. وحين أنهيت القصة لم يبق أي ضحك بالمرة، بل حل محله صمت ثقيل.

فقال لي هيرغر: «لايمكنك أن تعرف. فهذه الحكاية لا تضحك، وإنني ينبغي أن أصحح الموقف».

ثم ألقى خطابا فهمت أنه نكتة على حسابي، فعم الضحك مرة أخرى، وعادت الاحتفالات.

ومضت الليلة في الاحتفالات، وجميع محاربي بوليويف يستمتعون بكل حرية.

ورأيت (ويغليف) ابن الملك، يحدق في بوليويف وهو يغادر القاعة، ولكن بوليويف كان لاهياً عنه بمغازلته الجواري والحرائر.

وبعد مدة نمت.

وفي الصباح استيقظت على أصوات المطارق وخرجت من القاعة الكبيرة فوجدت جميع أهل مملكة (روثغار) يعملون في بناء

التحصينات التي كانت تصنع بطريقة بسيطة، كانت الخيل تجر أعمدة حادة الأطراف، وبوليويف يشرف بنفسه على عملية بناء التحصينات عن طريق حفر ثقوب في الأرض بسيفه. ولم يستعمل في ذلك سيفه الكبير (روندنغ)، ولكنه استعمل سيفاً آخر. ولا أدري إذا كان ثمة سبب لذلك.

وفي الزوال جاءت المرأة التي يسمونها ملك الموت[1]، ورمت عظاماً على الأرض وأخذت تنشد التعاويذ والرقى حولها، وأعلنت أن الضباب سيأتي تلك الليلة.

وحين سمع بوليويف ذلك أمر بإيقاف جميع الأشغال، وبإقامة مأدبة كبيرة. فأوقف الناس الأعمال عند سماع ذلك. وسألت (هيرغر) لماذا تقام المأدبة، فأجاب بأنني كثير الأسئلة.

وفي العصر جمع بوليويف جميع محاربيه وقال لهم:

«استعدوا للمعركة»!

فوافقوا، وتمنى بعضهم لبعض حسن الطالع، بينما كانت الاستعدادات للمأدبة تجري من حولنا.

---

(١) هذه ليست نفس ملك الموت التي كانت مع الشماليين على ضفة نهر (الفولغا). والظاهر أن كل قبيلة كانت لها امرأة عجوز تقوم بمهمات العرافة وكانت تدعى (ملك الموت) فهو لذلك اسم حرفة.

وكانت مـأدبة الليل شـبيهة بسابقتها. رغم أن عدد أعيان (روثغار) ونبلائه كان أقل. وعلمت أن عدداً كبيراً من الأعيان لم يحضروا خوفاً مما كان سيحدث في قاعة (هيورات) تلك الليلة. فقد كان يبدو أن القاعة كانت مركز اهتمام الغيلان في المنطقة. لرغبتهم في امتلاكها، أو لسبب آخر لم أعرفه.

ولم تكن هذه المأدبة ممتعة لي لقلقي من الأحداث المنتظرة. وقد حدث ما يلي: كان أحد النبلاء يتكلم ببعض اللغة اللاتينية وبعض لهجات الجزيرة الإيبرية، لأنه سافر إلى مناطق خلافة (قرطبة) أيام شبابه، فدخلت معه في حديث، وتظاهرت بمعرفة ما لا أعرف كما سترى.

وسألني: «إذن أنت الأجنبي الذي ستكون الثالث عشر؟».

فقلت: «نعم، أنا هو».

فقال: «لابد أنك شجاع للغاية. وأنا أحييك لشجاعتك».

فأجبته جواباً مؤدباً، وقلت له إنني أعدُّ نفسي جباناً بالمقارنة مع محاربي بوليويف، الأمر الذي كان أكثر من حقيقي.

فقال الرجل الذي كان قد سكر بما شرب من خمر المنطقة ـ الذي كان شراباً رديئاً وقوياً ـ «لا يهم.. فما تزال شجاعاً لمواجهتك (الفيندول)».

وحينئذ شعرت أنني قد أتعلم بعض الأشياء المفيدة. فقلت للرجل العجوز أحد الأمثال التي سمعتها من أهل الشمال، والتي قالها لي (هيرغر) ذات مرة، وهو:

«الحيوانات تموت، والأصدقاء يموتون، وأنا سأموت، ولكن شيئاً واحداً لا يموت أبداً، وهو الصيت الذي نتركه بعد وفاتنا».

وضحك العجوز الخالي الفم من الأسنان. فقد سره أن أعرف مثلاً من أمثال أهل الشمال، وقال:

«صدقت.. ولكن الفندول لهم صيت كذلك».

فأجبت بعدم اهتمام بالغ:

«حقاً؟ لم يبلغني ذلك..».

وجواباً عن هذا قال الرجل: «ذلك لأنك أجنبي»، وقال إنه مستعد لتنويري في الموضوع. وأضاف:

«اسم (الفيندول) أو (الفيندون) قديم جداً، قِدَمَ أمِّي شعوب الشمال. ويعني ذلك بالنسبة للشماليين، السديم، (الضباب) الذي يأتي تحت غطاء الليل بغيلان سوداء تقتل، وتفتك، وتأكل اللحم البشري»[1]. وهذه الغيلان كثيفة الشعر تعاف النفس لمسها

(١) الظاهر أن الإسكندينافيين كانت تبهرهم شراسة (الفيندول) وقدرتهم على التسسل أكثر من أكلهم لحم البشر. ويعتقد (جانيسين) أن «الكنبلة» أي أكل =

ورائحتها، وهي متوحشة وماكرة، ولا تتكلم بلغة أي إنسان، ومع ذلك تتحدث مع بعضها البعض. وهي تأتي مع ضباب الليل، وتختفي في النهار.. إلى أين؟ إلى حيث لا يستطيع أحد ملاحقتها.

وأضاف الشيخ:

= لحم البشر، كانت عملاً بغيضاً للشماليين لأنها تجعل دخول (فالهالا) ـ الجنة ـ أو السماء أصعب، وليس هناك دليل على هذه النظرية.
أما بالنسبة لابن فضلان، مع سعة اطلاعه، فإن فكرة «الكنبلة» (أي أكل لحوم البشر CANIBALISM) ربما كانت تتضمن صعوبة في الآخرة. فآكل الأموات مخلوق معروف في الأساطير المصرية. فهو وحش مخيف برأس تمساح وصدر أسد، وظهر فرس بحر. وآكل الأموات هذا يفترس الأشرار بعد محاكمتهم يوم القيامة.
وجدير بالذكر، أن الكنبلة التعبدية، في معظم تاريخ الإنسانية، بشكل أو بآخر ولسبب أو لآخر، لم تكن نادرة ولا تستحق الذكر. والظاهر أن (رجل بيكين) و(رجل نياندرثال) كانوا من أكلة النوع. وكذلك كان يفعل السينيتيون، والصينيون والإيرالانديون، والبروويون، والمايورونات، والجاغات، والمصريون، والاستراليون الأصليون والماوريون، والإغريق، والهورونيون، والايروكويون، والبونيون، والاشانتيون، في عصور مختلقة.
وفي الوقت الذي كان فيه ابن فضلان في اسكندينافيا كان تجار عرب آخرون في الصين، حيث سجلوا أن اللحم البشري ـ الذي كان يسمى بالضأن ذي القدمين ـ يباع علنا وبصفة قانونية في الأسواق.
ويعتقد (مارتينسون) إن الاستكندينافيين كانوا يشمئزون من كنبلة الفيندون لأنهم كانوا يعتقدون أن لحم الفرسان يطعم به النساء، وخصوصاً أم الفيندول.
ولا أثر لذلك أيضاً هنا (في قصة ابن فضلان). وكان ذلك يجعل مقتل الفارس الاسكندينافي على أيدي الفيندول أشد وطأة وعارا.

«يمكنك معرفة المناطق التي تسكنها غيلان السديم الأسود بعدة طرق. فمن حين لآخر، يطارد الفرسان على ظهور خيلهم أيِّلاً بالكلاب فوق التلال والوهاد، ولأميال عدة داخل الغابات، والأرض العارية. وحين يصل الأيِّل إلى أرض بها مروج خاثرة، ومستنقعات ضحلة، يتوقف مفضلا أن تمزقه الكلاب إِرَبًا على الدخول إلى تلك المنطقة المخيفة. وهكذا نعرف الأماكن التي يعيش فيها الفيندول. فحتى الحيوانات لا تجرؤ على دخولها.»

وأظهرت عجبي البالغ للحكاية وشجعته على الكلام. وحينئذ رآني (هيرغر) فحدجني بنظرة تهديد، ولكني لم أعره اهتماماً.

واستأنف الرجل العجوز حديثه قائلاً: «فيما مضى كان الشماليون يرهبون الضباب الأسود في كل مكان. ومنذ عهد والدي، ووالده، ووالد والده قبله، لم ير أيٌّ شمالي الضباب الأسود، حتى إن بعض المحاربين الشبان حسبونا حمقى ومغفلين لتذكرنا تلك الحكايات القديمة، وما كانت تثيره من رعب وفزع. ومع ذلك فزعماء ممالك الشمال، حتى النرويج كانوا دائماً على استعداد لعودة الضباب الأسود. وكل مدننا وقلاعنا محصنة ومحمية من جهة البَرِّ منذ عهد أجدادنا. ولم نر أبداً الضباب الأسود. ولكنه الآن عاد».

وسألته: «لماذا عاد الضباب؟».

فأجاب بصوت خافت: «عاد الضباب الأسود بسبب غرور وضعف (روثغار) الذي أغضب الآلهة بترفه الأحمق، وأغرى الغيلان بمشهد قصره العظيم الذي لا يحميه شيء من جهة البر. فهو كبير السن، ويعرف أنه لن يُذكر (بعد موته) بانتصاراته في معارك خاضها، لذلك بنى هذا القصر الذي أصبح حديث العالم، إشباعاً لغروره. و(روثغار) يتصرف كإله. ولكنه بشر. وقد سلطت عليه الآلهة الضباب الأسود للإطاحة به وتعليمه التواضع».

قلت له: «لعل (روثغار) غير مرضي عنه في المملكة».

فأجاب: «لا أحد سالم من جميع العيوب، أو إنه من الشَّرّ بحيث لا يصلح لشيء. (روثغار) ملك عادل. وقد عاش شعبه في رخاء طوال حياته، فحكمُ ملكه وغناه حاضران هنا، في قصر (هيورات)، وهما رائعان. وغلطه الوحيد أنه نسي الدفاع. فلنا مثل يقول: «يجب على الرجل ألا يبتعد خطوة عن سلاحه». و(روثغار) لا سلاح له. فهو بلا أسنان، وضعيف. والضباب الأسود يزحف بحرية على الأرض.»

ورغبت في المزيد، ولكن الرجل العجوز كان قد تعب، فولى عنه بوجهه، وفي الحال نام. وحقا كان طعام (روثغار) وشرابه وحسن ضيافته كثيراً، الشيء الذي أدار رؤوس كثير من الأعيان والنبلاء.

أما مائدة (روثغار) فقد كان أمام كل رجل فيها منديل وطبق، وملْعَقة، وسكينة وكانت الوجبة تتكون من لحم خنزير وماعز مغلي، وكذلك بعض السمك لأن الشماليين يفضلون اللحم المغلي على المشوي. وكان على المائدة كثير من الكرمب، والبصل، والتفاح، والفستق، وقدمت لي قطعة لحم بها بعض الحلاوة لم يسبق لي أن ذقت مثلها من قبل، وقيل لي إنها لحم الوعل أو الأيِّل.

أما الشراب الكريه الذي يسمونه (ميد) فهو مصنوع من العسل المخمر، وهو أحمض، وأحلك، وأخبث مشروب صنعه إنسان! ومع ذلك فهو أقوى من كل شراب معروف. كؤوس قليلة منه، ويدير بك العالم. ولكنني لم أشربه، والحمد لله.

ولاحظت أن بوليويف وصحبه لم يشربوا تلك الليلة، أو شربوا قليلاً فقط. ولم يعتبر (روثغار) ذلك إهانة، بل أمراً طبيعياً في تلك الظروف. ولم تهبَّ ريح تلك الليلة. فقناديل وشموع قصر (هيورات) لم تكن تخفق. ولكننا كنا نحس بالرطوبة والبرد. ورأيت بعيني الضباب بالخارج يزحف نازلاً من التلال يغطي ضوء القمر الفضي ويشمل كل شيء بالظلام.

وفي منتصف الليل خرج الملك (روثغار) وزوجته الملكة، وذهباً ليناما. وأقفلت أبواب القصر الضخمة بالأرتاج والأعمدة، وغرق النبلاء والأعيان الذين مكثوا هناك في سبات السكر، وأخذوا يشخرون بأصوات عالية.

وحينئذ قام (بوليويف) ورجاله، وهم ما يزالون في دروعهم يتفقدون القناديل والنيران التي ينبغي أن تمكث مشتعلة بشكل مستمر وهادئ.

وسألت (هيرغر) عن معنى ذلك فقال لي: يجب أن أسأل الله النجاة، وأتظاهر بالنوم. وأعطاني سلاحاً كان عبارة عن سيف قصير. ولم يكن في ذلك كبير راحة لي، فأنا لست مقاتلاً، وأعرف ذلك جيداً.

وفعلاً تظاهر جميع الرجال بالنعاس. وانضم بوليويف ورجاله إلى حاشية (روثغار) الذين كانوا فعلاً نائمين يشخرون.

ولا أدري كم انتظرنا لأنني أنا نفسي نمت قليلاً كما أظن. وفجأة استيقظت وفي حالة غير عادية من الانتباه الحادّ. لم أكن نعسان، بل شديد اليقظة رغم أني ما زلت مستلقياً على جلد دُب على أرض القاعة الكبرى. كان الليل حالكاً، والقناديل خافتة، ونسيم خفيف يهمس خلال القاعة ويحرك اللهب الأصفر.

وحينئذ سمعت نخيراً كنخير خزير حمله إلى سمعي النسيم، وشممت رائحة نتْن شبيهة بروائح جيفة متعفنة مرَّ عليها شهر، وشعرت بخوف عظيم. فقد كان النخير، أو الشخير أو الهرير - فلست أعرف له إسماً آخر - يرتفع أكثر فأكثر، ويزداد اهتياجا.

كان يأتي من الخارج من أحد جوانب القاعة. وبعد ذلك سمعته من جانب آخر ثم آخر، ثم آخر.. فقد كانت القاعة مطوقة.

واتكأت على مرفقي، وقلبي يدق، وجلت بعيني في القاعة. لم يتحرك رجل من المقاتلين النائمين، ولكن (هيرغر) كان مستقلياً وعيناه مفتوحتان عن آخرهما.

وكذلك بوليويف كان يشخر مفتوح العينين. وأدركت من ذلك أن رجال بوليويف كانوا ينتظرون الدخول في معركة مع الفيندول الذين ملأت أصواتهم الجو.

و واللـــه لا خـوف أعظـم من خـوف رجل لا يعـرف مـن مـاذا هو خائف!

فكم بقيت مضطجعاً على جلد الدب العاري أنصت إلى نخير الفيندول وأشم رائحتهم الخبيثة.

وكم انتظرت بداية معـركـة أشـد إرهاباً عند تصـورهـا من خوضها وقتالها.

وتذكـرت هذا: «وهـو أن الاسكندينافـيين لهم عـبـارة مـديح يكتبونها على مشاهد قبور فرسانهم الكبار، وهي: «لم يفر من المعـركـة» ولم يفـر أحـد من رفـاق بوليـويف تلك الليلة. رغم أن الصوت والنتن كانا يحيطان بهم من كل جانب، وكان الصوت عالياً

مرة، وخافتاً أخرى. يأتي من جهة حينا، ومن جهة أخرى حينا آخر. ورغم ذلك انتظروا.

وجاءت اللحظة الرهيبة. وهدأت كل الأصوات، وساد صمت قاتل، باستثناء شخير النائمين، وصوت احتراق الحطب، ورغم ذلك لم يتحرك أحد من محاربي بوليويف.

وفجأة وقعت ضربة هائلة على باب (هيورات) المنيعة، فانفتحت منفجرة على مصراعيها، واندفع هواء عفن أطفأ جميع الأضواء، وملأ الضبابُ الأسود القاعة.

ولم أعرف عدد الداخلين، فقد كان يبدو أنهم آلاف الأحجام السوداء الناخرة ومع ذلك قد لايكونون أكثر من خمسة أو ستة أحجام ضخمة سوداء يصعب تشبيهها بشكل الإنسان، ولكنها كانت على شاكلته نوعا ما.

واختلطت في الجو رائحة الدم والموت. وارتعشتُ من برد لا يعقل. ورغم ذلك لم يتحرك أي مقاتل.

وفجأة وثب بوليوف إلى قدميه. وصرخ صرخة توقظ الأموات. ولوَّح بالسيف العملاق (روندينغ) الذي كان يشق الهواء مغرداً كلسان من اللهب المتوهج. وقفز مقاتلوه إلى إقدامهم معه، ودخل الجميع المعركة. واختلط صياح الرجال بنخير الخنازير

ورائحة الضباب الأسود، وساد الرعب والهياج. والتخريب قاعة (هيورات).

أما أنا فلم تكن لي شهوة القتال. ورغم ذلك فقد هاجمني أحد غيلان الضباب الذي كان قد اقترب مني حتى رأيت وميض عينيه الحمراوين اللتين كان يشع منهما لهيب كلهيب النار. وشممت الرائحة العَفِنة، وحينئذ رفعني في الهواء ورماني عبر القاعة كما يرمي الطفلُ الحصاة. وارتطمت بالحائط وسقطت دائخاً مدة من الزمن، وكل ما حوالي كان يموج ويتحرك.

وأتذكر الآن، وبوضوح كامل، ملمس هذه الأغوال على جسدي، وخاصة جلدها الفروي، فقد كان لها شعر في طول شعر الكلب الكثيف الفروة على جميع أطرافها، وأتذكر رائحة الأنفاس العفنة التي كانت تصدر عن الغول الذي رمي بي.

ولم أدر كم دامت المعركة.. ولكنها انتهت فجأة. وانسحب الضباب الأسود شاخراً، ناخراً، لاهثاً، نَتِناً، تاركا وراءه الخراب والموت الذي لم نره حتى أشعلنا مشاعل جديدة.

وهذا ما أسفرت عنه المعركة، قتل ثلاثة من أصاب بوليويف، (رونيت) و(هالغا) وكلاهما من الأعيان و(ادغثو) وهو محارب. الأول شق صدره وفتح.

والثاني كسر عموده الفقري. والثالث خلع رأسه من مكانه بالطريقة التي شاهدت من قبل.

أما الجرحى فاثنان: (هالتاف) و(ريثيل). فقد قطعت أُذن (هالتاف) وفقد (ريثيل) أصبعين من يده اليمنى.

ولَم تكن جروح الرجلين قاتلة، ولم يشتكيا، فمن عادة أهل الشمال أن يتحملوا جروح المعارك بمرح، وأن يحمدوا الله على بقائهم أحياء.

أما (بوليويف) و(هيرغر) وجميع أصحابهم فقد كانوا يقطرون دماً وكأنهم عاموا فيه.

والآن سأقول ما قد لا يصدق، ورغم ذلك فهو حقيقة: وهو أن جماعتنا لم تقتل أحداً من غيلان الضباب. فكلهم تسللوا خلسة، بعضهم مصاب بجروح قد تكون قاتلة، ورغم ذلك نجوا.

قال (هيرغر): «رأيت اثنين منهم يحملون ثالثاً كان ميتاً».

وهذا ربما كان حقيقة، لأن الجميع وافقوا عليه. وعرفت أن غيلان الضباب لا يتركون أبداً أحداً من جنسهم للإنسان، بل يجازفون بأنفسهم لإنقاذه من فحص البشر. ويبذلون جهوداً جبارة للاحتفاظ برؤوس ضحاياهم. فلم نستطع العثور على رأس (ايدغثو) في أي مكان، فقد حمله الغيلان معهم.

وتكلم بوليويف وترجم لي (هيرغر) كلامه هكذا: «انظروا. لقد احتفظت بتذكار لوقائع هذه الليلة الدموية. انظروا.. هذا ذراع أحد الغيلان».

ومصداقاً لقوله، رفع بوليويف ذراع أحد الغيلان مقطوعة من الكتف بسيفه العظيم (روندينغ) وازدحم جميع المقاتلين حوله ليتفحصوها.

وبدت لي صغيرة. ولكن يدها كانت كبيرة بشكل غير عادي. فلم تكن الذراع والساعد متناسبتين معها، رغم أن عضلاتها كانت قوية. كان يكسوها شعرٌ أسود كثيف وطويل في جميع الاتجاهات إلاّ الكتف. وكانت رائحتها عفنة كجسد الغول القادم مع الضباب الأسود.

وهتف جميع المحاربين باسم بوليويف وسيفه (روندينغ) وعلقت الذراع من عارضة السقف بقاعة (هيورات) ليتفرج عليها جميع أهل مملكة (روثغار).

وهكذا انتهت أول معركة مع الفيندول.

*****

الأحداث التي تلت المعركة الأولى

حقاً إن أهل الشمال لا يتصرفون قط كما يتصرف البشر ذوو العقل والمنطق. فبعد هجوم غيلان الضباب، وانهزامهم على يد بوليو يف ورفاقه، وأنا من بينهم، لم يفعل أهل مملكة (روثغار) شيئاً.

لم يكن هناك احتفال ولا مآدب، ولا أفراح، أو تعبير عن السعادة. فقد جاء أهل مملكة (روثغار) من جميع الأنحاء للتفرج على ذراع الغول المعلقة بالقاعة الكبرى، وكانوا يعبرون عن عجبهم ودهشتهم لها. ولكن الملك (روثغار)، نصف الأعمى، لم يعبر عن سروره ولم يقدم لبوليويف ورفاقه أية هدايا، ولا أقام مآدب، ولا أعطاهم عبيداً ولا فضة، ولا خلع عليهم خِلَعا، ولا أية علامة من علامات التكريم.

وبدلاً من أن يظهر الملك روثغار سروره فقد عبس وبان عليه الجد، وبدا أكثر خوفاً من ذي قبل. وأنا نفسي، رغم أني لم أقل شيئاً بدأت أعتقد أن (روثغار) كان يفضل بقاء الوضع على ما كان عليه قبل انهزام الضباب الأسود.

ولم يختلف عنه بوليويف في تصرفه فلم يناد إلى احتفال ولا إلى إقامة مآدب أو أكل أو شراب. أما الأعيان الذين قُتلوا

بشجاعة في المعركة فقد وضعوا بسرعة في حفر مسقوفة بالخشب، وتركوا هناك لمدة العشرة أيام المعهودة. وتمّ ذلك بسرعة.

ولم يبتسم بوليو يف ولا رفاقه، ولم يظهروا أي علامة من علامات السعادة إلا عند دفن قتلاهم الأبطال.

وبعد مدة من إقامتي بين الشماليين عرفت أن الابتسام في حضرة قتلى المعارك هو تعبير عن السرور نيابة عن القتيل، وليس عن الأحياء. فهم يفرحون حين يموت أي رجل ميتة محارب. والعكس كذلك صحيح بالنسبة إليهم فهم يحزنون إذا مات الرجل في نومه، أو علي سريره. ويقولون عنه: «إنه مات كبقرة فوق التبن»، وهذه ليست إهانة ولكنها سبب للحزن على موته.

والشمالي يعتقد أن كيفية موت الفرد، تقرر شكل حياته في الآخرة. وهم لذلك يقدرون مقتل المحارب في المعارك فوق كل شيء. «فموت التبن» عار.

وأي رجل يموت في نومه يقال عنه إن (المَرَان) خنقته، وهي فرس من أفراس الليل. وهذه المخلوقة امرأة. الأمر الذي يجعل الموت على يدها عارا. لأن الموت على يد امرأة يحط من قيمة الشخص إلى أبعد الحدود.

وهم يقــولون كـذلك بـأن الموت دون ســلاح يحط من قــدر الإنســان. لذلك فـالمقاتل الشـمـالي ينام دائمـاً بسـلاحه حتى إذا جاءت (المَرَان) وجد السـلاح قريبـاً. وقلما يموت المحارب بمرض أو بضعف الشيخوخة. وقد سمعت بملك يدعى (آن) عاش طويلاً لدرجـة أنه أصبح مـثل الطفل. وكـان يقـضي أيامـه في فـراشـه يشرب الحليب من قرن. ولكن هذا قيل لي كشيء غير عادي في بلاد الشـمـال. ولم أر بعيني إلا قليـلاً من العـجـزة. وبالعـجـزة لا أعني الذين ابيضت لحاهم، ولكن الذين أخذت لحاهم تسقط من وجوههم وذقونهم.

وكثير من نسائهم يعمرن طويلاً مثل القهرمانة التي يسمونها ملك الموت. وتعد هذه النسـاء ممن يملكن قوى سـحرية تشـفي الجروح، وتسحر الناس، وتطرد الشر، وتكشف أحداث المستقبل.

ونساء الشمال لا يتخاصمن، وكثيراً ما رأيتهن يتدخلن لحسم نزاع مسلح بين رجلين، وإطفاء نار الغضب. يفعلن ذلك خصوصاً إذا كـان الرجـلان في حـالة سكر وعـربة. وهـذه غـالبـاً مـا تكون ظروف تدخلهن.

لم يشرب هؤلاء الرجال الذين كانوا يشربون ليل نهار، طوال اليوم التالي للمعركة. وقلما كان قوم (روثغار) يقدمون لهم قدحاً، وحين يفعلون كانت القدح ترقص! وقد حيرني ذلك فسألت عنه (هيرغر).

وحرك (هيرغر) رأسه بطريقة الشماليين التي تعني عدم الاكتراث أو اللامبالاة، وقال: «الجميع خائفون».

وسألت لماذا يجب أن يبقى ثمة سبب للخوف، فقال: «لأنهم يعرفون أن الضباب الأسود سيعود».

واعترف أنني كنت أحس بغرور الفارس المقاتل وخيلائه، رغم علمي بأنني لا أستحق ذلك الشعور. ورغم ذلك فقد أحسست بزهو وابتهاج لنجاتي، وعاملني قوم (روثغار) كواحد من جبابرة المقاتلين. وقلت (لهيرغر) بصفاقة:

«من يهتم لذلك؟ إذا جاؤوا مرة أخرى هزمناهم أيضاً!».

وفي الواقع كنت مغروراً كديك صغير، وأنا أخجل الآن حين أفكر في اختيالي.

وأجاب (هيرغر): «إن مملكة (روثغار) ما لها مقاتلون ولا نبلاء، فقد ماتوا جميعاً منذ زمان. ونحن وحدنا الذين يجب أن ندافع عن المملكة. بالأمس كنا ثلاثة عشر. واليوم نحن عشرة. واثنان من العشرة مجروحان ولا يستطيعان القتال كرجلين كاملين. والضباب الأسود غاضب. وسوف ينتقم لنفسه شر انتقام».

فقلت (لهيرغر) الذي أصيب بجروح في المعركة.. ولكن ليست في عمق جروح المخالب التي كانت على وجهي، والتي كنت فخوراً بها، قلت له:

«أنا لا أخشى شيئاً مما يمكن أن يفعله أولئك الشياطين».

فأجاب باقتضاب بأنني عربي، ولا أفهم عادات أهل الشمال، وقال بأن انتقام الضباب الأسود سيكون فظيعاً وعميقاً. وقال: «إنهم سيعودون على شكل الكورغون».

ولم أعرف معنى الكلمة فسألته:

«ما هو الكروغون؟».

فقال: «إنه التنين الدودي المتوهِّج الذي سينقضُّ من السماء».

وبدا لي هذا خيالياً، ولكنني كنت قد رأيت غيلان البحر بالضبط كما وصفوها لي. ولاحظت حالة (هيرغر) المرهق القلق، وأدركت أنه يصدق بوجود التنين الدودي الوهاج فسألت: «متى يأتي الكورغون؟».

فأجاب: «قد يأتي الليلة».

ورأيت بوليو يف يوجه أعمال التحصينات حول قصر (هيورات) رغم أنه لم ينم طوال الليل، وقد احمرت عيناه وثقلتا من الإرهاق. وجميع أهل مملكة روثغار كانوا يعملون، بمن فيهم النساء، والأطفال، والعجزة، والعبيد، والإماء تحت إمرة بوليو يف ومساعده (ايكثغو).

وهذا ما فعلوه أمام بوليويف حوالي قصر (هيورات) والمباني المجاورة له، حيث كان يقيم الملك (روثغار) وبعض نبلائه، وحول الأكواخ التي كان يسكنها عبيد هؤلاء وبعض المزارعين القريبين من البحر، أقام زرباً من الرماح والعصى الحادة الرؤوس المتشابكة. ولم يكن الزرب أعلى من كتف الإنسان، ورغم حدة رؤوس هذه الحراب فقد كان من السهل على الرجل استلالها.

وكلمت في ذلك (هيرغر) فوصفني بأنني عربي بليد. فقد كان متوتر الأعصاب.

وبعد الزرب بحوالي خطوة ونصف بنوا خندقاً غريباً. لم يكن يتعدى عمقه ركبةَ الرجل، بل أحيانا أقل، ولم يكن متساوى العمق. فقد كان عميقاً في بعض الأماكن، وضحلاً في أماكن أخرى، وتتخلله حفر صغيرة. وفي بعض الأماكن غُرِست رماح قصيرة في الأرض برؤوسها إلى فوق.

ولم يكن فهمي للخندق الجزئي بأحسن من فهمي للزرب، ولكنني لم أستفسر (هيرغر) لمعرفتي بمزاجه العَكِر. وبدلاً من ذلك، ساعدت في العمل بقدر ما استطعت، متوقفا مرة واحدة فقط لألاعب جاريةً على طريقة أهل الشمال فقد كان هياج معركة الليلة السابقة، واستعداداتنا ذلك النهار، قد ملآني طاقة وقوة.

وكان (هيرغر) قد قال لي، أثناء رحلتي مع بوليو يف ورجاله على نهر الفولغا إنه يجب الحذر من النساء غير المعروفات، وخاصة الجذابات والفاتنات منهن. وقال لي إن نساء يعشن في الغابات والأماكن المتوحشة ببلاد الشمال يُدعَين نساء الغابات.

ويستهوين الرجال بجمالهن وكلماتهن الناعمة، ولكن عندما يقترب الرجل منهن يجد أنهن جوفاوات فارغات من الخلف، وإنهن أشباح فقط، وعند ذلك توقعه امرأة الغابة في شرك سحرها، ويصبح أسيراً لها[1].

وتذكرت تحذير (هيرغر) وأنا اقترب من الجارية لأنني لم أكن أعرفها. ولمست ظهرها بيدي، فضحكت، لأنها عرفت سبب لمسي، وهو أنني أتأكد من أنها ليست إحدى أشباح الغابة. وأحسستُ بحماقتي، ولعنت نفسي لتصديقي لشعوذة وثني.

واكتشفت أنه إذا كان المحيطون بك جميعاً يؤمنون بشيء معين، فستجد نفسك تحس بإغراء مشاركتهم في ذلك الاعتقاد. وكذلك كان الأمر معي.

---

(١) ما أشبه هذه الأسطورة الاسكندنافية بأسطورة الجنية (عيشة قنديشة) المغربية التي تظهر للرجال على شواطئ المحيط، وضفاف الأنهار والغدران، فتوقعهم في سحر جمالها، ويتبعونها إلى الأعماق، أو وسط الغابات، فتلفظ الأمواج جثثهم بعد حين، أو يعودون من الغابات وقد فقدوا عقولهم. (المترجم).

ونساء الشمال شاحبات كرجالهن، وطويلات مثلهم، وأغلبهن كنَّ ينظرن إليَّ من فوق، ولهن عيون زرق وشعور طويلة، ولكنها رقيقة وتتعقد وتتشابك بسهولة ولذلك فهن يعقصنها على رؤوسهن، وحول أعناقهن. ولمساعدتهنَّ على ذلك فقد اخترعن جميع أنواع المشابك، والدبابيس من الفضة، والخشب المنقوش. وهذه هي زينتهن الأساسية. وتلبس امرأة الرجل الغني سلاسل من ذهب أو فضة حول عنقها، كما قلت آنفا. وتفضل النساء أساور من فضة على شكل تِنِّين أو حية. ويلبسن هذه حول أذرعهن بين المرفق والكتف. وزخارف أهل الشمال دقيقة ومتشابكة كأنما تصور نسيج أغصان الشجر أو الأفاعي. وهي جميلة للغاية[1].

ويعد أهل الشمال أنفسهم بارعين في الحكم على جمال النساء. ولكن في الحقيقة أن نساءهم في نظري، هزيلات، وأجسامهن كلها زوايا ونتوء بارزة. ووجوههن كذلك كبيرة عالية الوجنات. ويقدر أهل الشمال هذه الخصائص أحسن تقدير، رغم أن امرأة من هذا النوع لن تحظى بالتفاتة رجل في مدينة السلام،

(١) يميل العَرَبي خصوصاً إلى هذا الاعتقاد، لأن الفنون الدينية الإسلامية تميل إلى أنها غير تصويرية وتشبه في نوعيتها كثيراً من الفنون السكندينافية التي غالباً ما تفضل الزخرف الخالص وعلى كل حال، فإن أهل الشمال لم يكونوا يُحرِّمون تصوير الآلهة وغالباً ما كانوا يفعلون.

بل تعتبر أحسن من كلب نصف ميت من الجوع، وقد برزت ضلوعه. فالشماليات لهن ضلوع بارزة بنفس الشكل.

ولا أدري سبب نحول نسائهم، فهن يأكلن بشهية عظيمة، وبقدر ما يأكله الرجال ومع ذلك لا تكتسي أجسادهن لحما.

ولا يُظهر النساء، كذلك حشمة ولا مراعاة، فلا يتلثمن أبداً، ويقضين حاجاتهن في الأماكن العامة إذا أحسسن برغبة. ويغازلن بلا احتشام أي رجل أعجبهن وكأنهن رجال. لا يعاقبهن المقاتلون على ذلك، حتى ولو كانت المرأة جارية. فكما سبق أن قلت إنَّ أهل الشمال شديدو الرفق والعطف على عبيدهم، وخصوصاً الإماء منهم.

ومع تقدُّم النهار، رأيت بوضوح أن خطوط دفاع بوليو يف ما كانت ستتم عند نزول الليل، سواء منها زرب الحراب أو الخندق الضحل. وأدرك ذلك بوليو يف هو الآخر، فذهب إلى الملك (روثغار) الذي أمر بإحضار القهرمانة العجوز. وذبحت العجوز التي كانت مُنكَمشَة ولها لحية رجل شاة ونشرت أحشاءها[1] على الأرض.

---

(١) الكلمة الواردة في الرسالة هي (أوردة) أي العروق. وقد أدت الجملة العربية إلى بعض الأخطاء بين الدارسين فكتب (أ. د. غراهام) مثلاً، «إن الفايكنج كانوا يتنبؤون بالمستقبل عن طريق طقوس تقطع فيها عُروق الحيوانات وتنشر على الأرض» وهذا مما لاشك فيه خطأ. فالجملة العربية التي تعني تنظيف حيوان هي «قطع العروق»، وكان ابن فضلان هنا يشير إلى العادة المنتشرة بين العرافين وهي النظر في الأحشاء.

وبعد ذلك أنشدت عدداً من الترانيم، ومدة طويلة، وأشفعتها بالابتهالات الكثيرة للسماء.

وحتى الآن لم أسأل (هيرغر) عن هذا بسبب مزاجه. وبدلاً من ذلك كنت أراقب محاربي بوليو يف الآخرين الذي كانوا ينظرون إلى البحر. كان المحيط رمادياً وهائجاً، والسماء رصاصية، ولكن هواء قوياً كان يهب نحو الأرض. وأراح هذا المحاربين. وخمَّنت السبب: وهو أن ريح البحر ستمنع الضباب من النزول من التلال. وكذلك كان.

وعند نزول الليل توقف العمل في متارس الدفاع. وعجبت حين أقام (روثغار) مأدبة عظيمة أخرى.

وشرب بوليو يف و(هيرغر) وجميع المحاربين كثيراً من شراب (الميد)، وأظهروا عدم اكتراث كبير بما ينتظرهم، وأخذوا سبيلهم مع الجواري، وبعد ذلك غرقوا في نوم سكر عميق.

وعلمت حينئذ أن كل محارب من رجال بوليو يف اختار واحدة من الجواري كان يفضلها على غيرها، ولكن دون استثناء الأخريات. وقال لي (هيرغر) في سكره عن المرأة التي اختارها: «إنها ستموت معي إذا كان لابد من ذلك».

وفهمت من هذا أن كل محارب اختار امرأة لتموت من أجله على المحرقة (ساعة إحراق جثته). وهؤلاء النسوة يُعامَلن

بأدب جم، وباهتمام أكثر من الأخريات. ذلك لأن المحاربين لم يكونوا من أهل البلد، ولم تكن لهم جوار يأمرونهن بذلك.

وأتذكر في أيامي الأولى بين أهل الشمال، (الفيندون)، أن نساءهم لم يكن يقتربن مني بسبب سمرة جلدي، ولكنهن كن كثيرات الهمس، والنظر نحوي، والضحك المكتوم بينهن. ورأيت أن هؤلاء النسوة غير المتحجبات يتلثمن بإيديهن من حين لآخر، وخصوصاً، حين يضحكن. وسألت (هيرغر) «لماذا يفعلن ذلك؟» لأنني لم أكن أريد أن أتصرف بشكل مخالف لعادات أهل الشمال.

وأجاب هيرغر: «النساء يعتقدن أن العرب فحول. لأنهن سمعن ذلك كإشاعة».

ولم يكن ذلك مصدر استغراب لي، فمن خلال أسفاري، وفي جميع البلاد التي زرت، وحتى داخل أسوار (مدينة السلام)، وفي كل مكان اجتمع فيه الناس وَكوَّنُوا لأنفسهم مجتمعاً، علمت هذه الحقائق:

أولاً: أن أهل أي بلد يعتقدون أن عاداتهم أحسنُ العادات، وأقومها، وأنسبها، وأنها أفضل من عادات أي بلد آخر.

ثانياً: أي غريب، رجلا كان أو امرأة، يعد أدنى من أهل البلاد إلاَّ فيما يتعلق بالجنس والتناسل. وهكذا يعتقد الأتراك أن

الفارسيين عشاق موهوبون، وينبهر الفارسيون لأهل الجلد الأسود، ويعجب هؤلاء بدورهم بآخرين، وهكذا يستمر إعجاب أبناء شعب بآخر، ربما بسبب أحجام أعضائه التناسلية، وربما لقوة احتماله الجنسي، أو لمهارة خاصة، أو وضع معين.

ولا أستطيع أن أقول: إن نساء الشمال يعتقدن فيما قاله لي (هيرغر)، ولكنني اكتشفت أنهم يتعجبون من الختان، وهي عادة غير معروفة عندهم، لأنهم وثنيون قذِرون.

ويقول الشماليون عن العملية: «دخلت معركة مع فلانة أو فلانة».

ويكشفون بفخر عن كدماتهم، وضرباتهم الزرقاء لزملائهم كما لو كانت جروح معركة حقيقية. ولكن الرجال لا يفعلون بهن شيئاً من ذلك، حسب ما شاهدت.

وفي تلك الليلة نام رجال بوليو يف. وكنت أنا خائفاً بحيث لم استمتع بشراب ولا ضحك. كنت خائفاً من أن يعود (الفيندول) ولكنهم لم يعودوا. فنمت في النهاية، ولكن غير مرتاح البال.

وفي اليوم التالي لم تكن تهب ريح. وانكب جميع أهل مملكة (روثغار) على العمل بجد وخوف. وكان الكلام في كل مَكان عن (الكورغون)، وعن تأكد هجومهم تلك الليلة.

وكانت آثار المخالب على وجهي توجعني، كانت تَخِزُني وهو تندمل، وتؤلمني كلما حركت فمي لآكل أو لأتكلم، فقد كانت حُمَّى القتال قد ذهبت عني، وعاودني الخوف مرة أخرى، وعملت في صمت إلى جانب النساء وكبار السن من الرجال.

وعند الزوال زارني النبيل العجوز الذي لا أسنان له، والذي تحدثت معه أثناء المأدبة بالقصر. بحَثَ عني هذا النبيل العجوز، وقال لي باللغة اللاتينية: «أريد أن أتكلم معك».

وقادني إلى دكة بعيداً عن العاملين بخطوط الدفاع ببضع خطوات، وفحص جروحي بحركات مسرحية كبيرة، رغم أنها ـ في الحقيقة ـ لم تكن خطيرة. وبينما كان يفحص الجروح قال لي:

«عندي إنذار لرفاقك. فهناك ما يشغل قلب (روثغار).

قال هذا باللغة اللاتينية.

فقلت: «ما سببه؟».

قال: «إنه الحاجب. وكذلك ابن الملك (ويغليف) الذي يقف إلى جانب أُذن الملك، وكذلك صديقه. (فو يغليف) يقول (لروثغار) إن (بوليو يف) وأصحابه عازمون على قتل الملك، وحكم المملكة».

فقلت، رغم أنني لا أعرف ذلك:

«هذا ليس صحيحاً».

وفي الواقع، كنت أفكر في ذلك من حين لآخر. فقد كان بوليو يف شاباً قوياً، و(روثغار) شيخاً ضعيفاً. ورغم أن عادات الشماليين غريبة، فإن البشر جميعاً في الحقيقة أشباه.

قال لي النبيل العجوز: «إن الحاجب و(و يغليف) يحسدان بوليو يف. وهما يسممان الجو بينه وبين الملك. أقول لك كل هذا لتقول للآخرين أن يحذروا. فهذه أفعال جديرة (بباسيليسق)».

وبعد ذلك أخبرني بأن جرحي غير خطير، وذهب.

وعاد بعد ذلك ليقول لي: «إن صديق (و يغليف) هو (راغنار)».

وذهب دون أن يلتفت إليَّ مرة أخرى.

وأخذت أحفر، وأعمل بجد عظيم حتى وجدت نفسي قرب (هيرغر). وكان مزاجه ما يزال عكِراً كما كان من قبل. فحيَّاني بهذه الكلمات:

«لا أريد سماع أسئلة أحمق». فقلت له: «ليس لي أسئلة».

وقلت له ما قاله لي النبيل العجوز، وقلت له كذلك إن الأمر جدير بالباسيليسق[1].

وحين سمع هيرغر ما قلت عبس وسبَّ ولعن، وأقسم بأغلظ الأيمان، ودك الأرض بقدمه، وطلب منِّي أن أصحبه إلى بوليو يف.

وكان بوليو يف يشتغل في حفر الخندق بالجانب الآخر من المعسكر، فأخذه (هيرغر) جانباً، وأخذ يكلمه بسرعة بلسان الشماليين ويشير نحوي. فسب بوليو يف ولعن. وأقسم بالأيمان،

---

(١) ابن فضلان لا يصف (BASILISK) ويظهر أنه يفترض أن قُراءه يعرفون ذلك المخلوق الأسطوري الذي يظهر في معتقدات جميع الثقافات الغربية. و(الباسيليسق) معروفة كذلك باسم الأصلة COCKATRICE وهي حية خرافية إذا نظرت إلى الواحد صرعته. ويقال إنها نوع من الديوك لها ذيل حية، وأربع أرجل وبعضها له قشور كقشور السمك بدل الريش. ونظرته قاتلة كنظرة (الكورغون). وسمُّه مميت بشكل خاص. وحسب بعض الحكايات فإن الذي يطعن الباسيليسق يرى السم ينتقل من الحيوان عبر السيف إلى يده فيترك السيف لوقاية جسده،
وربما كان هذا الإحساس بخطر الباسيلسق هو الذي جعله يذكر هنا. فالعجوز النبيل يقول لابن فضلان إن المواجهة المباشرة مع أصحاب الفتنة لن تحل المشكلة. والجدير بالذكر أن إحدى الطرق للتخلص من الباسيلسق هي جعله يرى نفسه في مرآة. فعندَ ذلك يقتل نفسه بنظرته. (انتهى تعليق مايكل كرايتن».
وفي اعتقادي أن ابن فضلان، كتب كلمة (الحرباء) التي تتلون بلون محيطها لذلك لم يكلف نفسه عناء شرحها. (المترجم).

ودك الأرض برجله كما فعل (هيرغر)، وبعد ذلك ألقى عليه سؤالاً. فقال لي (هيرغر).

«بوليويف يسأل من هو صديق ويغليف؟ هل قال لك العجوز من هو صديق ويغليف؟».

وأجبت بأنه فعل، وبأن اسم الصديق هو (راغنار). وهنا تحدث بوليويف وهيرغر، وتناقشا لمدة قصيرة، وبعد ذلك ذهب بوليويف وتركني مع (هيرغر)، فقال لي هذا: «لقد تقرر».

وسألته: «ماذا تقرر؟».

فقال لي: «خلِّ أسنانك فوق بعضها». وهو تعبير شمالي يعني لا تتكلم.

وعدت إلى عملي وأنا لا أفهم من الأمر أكثر مما كنت في البداية. ومرة أخرى فكرت أنّ هؤلاء الشماليين أغرب الناس وأكثرهم تناقضاً، على وجه الأرض، لأنهم لا يتصرفون في أي أمر بالطريقة التي يتوقع الناس أن يتصرف بها العقلاء. ومع ذلك عملت في بناء سياجهم السخيف، وفي حفر خندقهم الضحل، وراقبت وانتظرت.

وفي وقت صلاة الظهر، لاحظت أن (هيرغر) انتقل إلى العمل بقرب شاب عملاق. وعملا جنباً إلى جنب بعض الوقت،

وظهر لي أن (هيرغر) كان يتعمد رمي التراب في وجه الشاب الذي كان أطول منه برأس كامل، وأصغر سناً.

واحتجَّ الشاب، واعتذر له (هيرغر)، ولكنه عاد بعد ذلك بقليل إلى رمي التراب عليه. واعتذر (هيرغر) مرة أخرى، ولكن الشاب غضب، واحمر وجهه. وبعد فترة وجيزة عاد هيرغر إلى جلده بسوط[1] التراب على وجهه مرة أخرى، فنفثه الفتي وبصقه

---

(١) «جلد وسوط» بالعربية، وفي النص اللاتيني (فيربيرا Verbera) وكلاهما تعنى (الضرب) وليس (الرمي) كما تترجم عادة هذه الجملة. والمفروض أن ابن فضلان استعمل الاستعارة باستعماله كلمة (جلد) ليؤكد قوة الإهانة الواضحة على أي حال. وقد يكون نقل، عن وعي أو عن غير وعي، موقفا اسكندنافيا محضا من الإهانات.

وقد زار مؤرخ عربي آخر، وهو الطرطوشي مدينة (هيديبي Hedeby) سنة ٩٥٠م، وقال هذا عن الاسكندنافيين: «إن أمرهم غريب فيما يتعلق بالعقوبات، فلهم ثلاث عقوبات فقط على جميع الجنايات.

وأولى هذه، والتي يخافونها أكثر من غيرها، هي الطرد من القبيلة.

والثانية: البيع في سوق العبيد.

والثالثة: هي الموت. وتباع النساء الجانيات كإماء. ويفضل الرجال الموت دائما. والجلد غير معروف عندهم».

وهذا الرأي لا يشاركه فيه المؤرخ الكَنَسِي الألماني (آدم بريمن) الذي كتب سنة ١٠٧٥: «إذا ثبتت تهمة عدم العفة على النساء فإنهن يبعن حالاً، وإذا ثبتت تهمة الخيانة أو أي جريمة أخرى على الرجال فإنهم يفضلون ضرب أعناقهم على الجَلد، فهم لا يعرفون أي نوع من العقاب غير (الفأس) أو العبودية».

ويعطي المؤرخ (سيوغرنSjogren) أهمية كبيرة لقول (آدم) إن الرجال يفضلون قطع رؤوسهم على أن يُجلدوا. وهذا يعني أن الجلد كان معروفاً لدى الشماليين، ويقول: «إنه كان في أغلب الظن عقابا للعبيد»، فالعبيد كانوا =

وقد غضب غضباً شديداً فصاح (بهيرغر) الذي ترجم لي النقاش بعد ذلك رغم أن الكلمات كانت واضحة بما يكفي حينئذ.

قال الشاب: «أنت تحفر ككلب».

فأجاب هيرغر: «هل تناديني بالكلب؟».

فقال الشاب: «لا.. أنا قلت إنك تحفر ككلب. ترمي التراب كحيوان».

فسأل (هيرغر): «هل تدعوني إذن بالحيوان؟».

= ممتلكات. ولم يكن من الحكمة قتلهم لجنح صغيرة، ففي ذلك خسارة مالية. ومن المؤكد أن الجَلد كان عقاباً مقبولاً بالنسبة للعبيد. لذلك فإن المقاتلين ينظرون إلى الجَلد على أنه عقوبة محقرة لأنها خاصة بالعبيد».

ويجادل (سيوغرن) قائلاً: «كل ما نعرفه عن حياة الفايكنج يشير إلى أنها (أي الحياة) قائمة على فكرة «العار» لا «الذنب» كقطب سلوكي سلبي. فالفايكنج لم يكونوا يشعرون «بالذنب» أبداً، ولكنهم كانوا يقاتلون دفاعاً عن شرفهم بشراسة، ويتجنبون عملاً مخجلاً بأي ثمن. والاستسلام للسوط دون مقاومة لابد كان يبدو لهم عاراً وشنارا، وأشنع كثيراً من الموت نفسه».

وتعود بنا هذه التأملات إلى مخطوط ابن فضلان ، واختياره لكلمات: «الجلد بالطين». فبما أن العربي شديد الحساسية فإن الواحد يتساءل هل تعكس كلماته موقفاً إسلامياً. وفي هذا الشأن ينبغي أن نتذكر أنه، بينما ينقسم عالم ابن فضلان إلى أعمال وأشياء نظيفة، وأخرى قذرة، فإن التراب نفسه لم يكن بالضرورة قَذِرا، على العكس، فالتيُّمم بالرمل معمول به في حالة فقدان الماء. لذلك فابن فضلان ما كان ليشمئز من رمي التراب على أحد. كان يمكن أن يغضب لو طلب إليه الشرب من كأس من ذهب. فذلك محرم تماماً.

فأجاب الشاب: «أنت تحرف كلماتي».

فقال هيرغر: «فعلا. فكلامك أعوج، وأنت خجول وضعيف، مثل امرأة عجوز».

فقال الشاب، وقد امتشق سيفه:

«هذه المرأة العجوز ستجعلك تذوق الموت».

وشهر (هيرغر) سيفه كذلك. فقد كان ذلك الشاب هو (راغنار)، صديق ويغليف، وهكذا أدركت ما دبره بوليويف.

وهؤلاء الشماليون شديدو الحساسية والغيرة على شرفهم. فهم يتبارزون بقدر ما يتبولون. وتُعد المعارك التي تنتهي بالموت عادية. وقد يتبارزون في المكان الذي حدثت فيه الإهانة. أما إذا روعي العرف. فإن المتحاربين يلتقيان على مفترق تلتقي فيه ثلاث طرق. وهكذا تحدَّى (راغنار) (هيرغر) لمبارزته.

وهذه عادة الشماليين بهذا الصدد: في الوقت المحدد للمبارزة يجتمع أهل المتبارزَين وأصدقاؤهما في مكان المعركة، ويمدُّون نَطْعا على الأرض، ويثبتونها بأربعة أوتاد من خشب الغار. ويجب أن تتم المعركة فوق جلد النطع، بمعنى أن كل مقاتل يجب أن يقف بكلتي قدميه أو بإحداهما على النطع حتى يمكثا قريبين من بعضهما البعض وكل متبارز يأتي بسيف واحد وثلاث تروس.

فإذا انكسرت جميع تروس أحدهما. فإنه يتابع القتال دون ترس. والمعركة حتى الموت.

وتلك هي القوانين التي أعلنتها القهرمانة العجوز، ملك الموت، بصوت منغوم في مكان النطع المفروش، بمحضر جميع أصحاب بوليويف، وأهل مملكة (روثغار) الذين أحدقوا بالمكان.

وكنت أنا الآخر هناك، ولكن ليس في المقدمة. وكنت أتعجب من كيف نسي هؤلاء القَوْمُ خطر (الكورغون) الذي أطار صوابهم من قبل. فلم يهتم أحدهم ألبتة بشيء غير المبارزة.

وهكذا جرت المبارزة بين (راغنار) و(هيرغر): فقد ضرب (هيرغر) أول ضربة، لأن التحدي جاء من غريمه، فرن سيفه رنة عظيمة على ترس (راغنار).

وخِفتُ على (هيرغر)، لأن الشاب كان أضخم منه كثيراً وأقوى وفعلاً، فقد أطارت ضربة (راغنار) الأولى الترس من قبضة (هيرغر)، فنادى هذا على ترسه الثانية.

واشتبك المقاتلان بعنف شديد. ونظرت مرة إلى بوليويف الذي كان وجهه خالياً من كل تعبير، ثم إلى (و يغليف) والحاجب على الجانب المقابل، وكانا يسترقان النظر إلى بوليو يف باستمرار أثناء المعركة الحامية.

وانكسـرت ترس (هيـرغـر) مـرة أخـرى، فنادى بالثـالثـة والأخـيـرة. وبدا الإرهاق على (هيـرغـر)، وتصبّب وجهه عـرقـاً، واحتقن من الجهد. أما (راغنار) الشاب فكان يقاتل بسهولة ودون كبير عناء.

وانكسرت الترس الثالثة، وبدا اليأس على (هيرغر)، أو هكذا خيل إليَّ في لحظة عابرة. ووقف بقدميه ثابتاً على الأرض، وانحنى يتنفس بصعوبة، وقد كاد يقتله الإرهاق.

واختار (راغنار) هذه اللحظة للانقضاض عليه، ولكن (هيرغر) تجنبه بسرعة جناح الطائر، فطعن (راغنار) بسيفه الهواء الفارغ. وحينئذ رمى هيرغر بسيفه من يد إلى أخرى، فهؤلاء الشماليون يحسنون القتال باليدين معاً، وبنفس القوة. وبسرعة استدار وقطع رأس (راغنار) من الخلف بضربةٍ واحدة من سيفه!.

ورأيت الدم يتفجر من عنق (راغنار)، ورأسه يطير في الهواء نحو جمهور الحاضرين. وشاهدت بعيني الرأس يسقط على الأرض قبل أن يهوي الجسد.

وخطا (هيرغر) جانباً، وهناك فقط أدركت أن المعركة كانت خدعة. فلم يعد (هيرغر) يلهث ويتهالك، بل وقف دون أن تبدو

عليه علامة إرهاق، ودون أن يهتز صدره، وقد أمسك بسيفه دون عناء، وظهر عليه أنه قادر على قتل دستة من مثل هذا الرجل.

ثم نظر إلى (ويغليف)، وقال:

«شَرِّف صديقك».

يعني بذلك قُمْ بدفنه.

وقال لي (هيرغر)، ونحن نغادر مكان المبارزة، إنه استعمل الحيلة ليعلم (و يغليف) أن رجال بوليويف ليسوا محاربين أشداء وشجعانا فقط، بل ماكرين كذلك! وقال: «إن هذا سيزرع في قبله خوفاً أكثر، ولن يستطيع أن يتكلم ضدنا».

ورغم ذلك (فهيرغر) لم يكن سعيداً، ولا كان بوليويف، هو الآخر، مسروراً.

فقد بدأت طلائع الضباب تتجمع في أعالي التلال مع اقتراب المساء.

وفي اعتقادي أنهما كانا يفكران في (راغنار) الذي قتل، وهو الشاب القوي الشجاع، والذي كان يمكن أن ينفع في المعركة القادمة.

وقد قال لي هيرغر:

«لا نفع لأحد في رجل ميت».

*****

هجـوم الكورغـون

التنّين الوهاج

عنـدمـا نـزل الظلام، زحـف الضـبــاب من التــلال مــتـسللاً كـأصـابع اليـد حول الأشـجـار ينسـاب فـوق الحـقول الخَضراء نحـو قصـر (هيورات)، حيث كان ينتظر بوليو يف ومحاربوه.

ولم يكن العـمل هنـاك قد توقف. فـقـد حـوَّلوا الماء من ينبـوع ليـمـلأ الخندق. وحـينئـذ فـهـمت مـغـزى الخطة. فـقـد أخـفى الماء الأوتاد والحُفَر العميقة، وأصبح الخندق خطيراً على كل مهاجم.

وزيادة على ذلك، حـملت نسـاء مملكة روثغـار قِـرَب الماء من البـئـر ورشـشن السـيـاج، والمنازل، وجـمـيع حـيطان قـصـر هيـورات بالماء. وصبَّ رجـال بوليويف الماء على أجسادهم وأسلحتهم. وكان الليل رطبـاً وبارداً، واعـتـقـدت أن هـذه إحـدى طقـوس الوثنيين، وترجـيـتـهـم أن يعـفـوني من الماء، ولكن دون جـدوى، فـقـد صبَّ (هيـرغـر) الماء عليَّ من رأسي إلى قـدمّي مـثل الآخرين. فـوقـفـت أقطر وأرتعش. وفي الحـقيقـة صرخت عالياً لصدمـة الماء البـارد وطلبت أن أعرف السبب. فقال لي هيرغر:

«التنين الوهاج ينفث من خياشمه ناراً».

وأعطاني قدحاً من نبيذ (الميد) فشربته دون توقف، وسررت لذلك.

واشتد ظلام الليل، ورجال بوليويف ينتظرون قدوم (الكورغون) وكل العيون متجهة نحو التلال الغارقة في ضباب الليل. وكان بوليويف يتجول على طول التحصينات حاملاً سيفه (روندينغ) ويهمس مشجعاً محاربيه. وكلهم ينتظرون في هدوء إلاَّ (اكثغو)، الذي كان أعظم رُماة الشاقور (الفأس) اليدوية. وكان قد وضع عموداً خشبياً على بعد، وأخذ يتدرب على رمي الشاقور عليه، مرة بعد أخرى.

وقد أعطوه كثيراً من الشواقير اليدوية، فقد حسبت خمسة أو ستة مركوزة في حزامه الواسع، وأخرى في يديه، أو منثورة على الأرض حوله.

وبنفس الطريقة كان هيرغر يتدرب على قوسه ونبله. وكذلك (سكيلد)، فقد كان هؤلاء أمهر الرماة بين مقاتلي أهل الشمال. وسهام الشماليين لها رؤوس من حديد، ومصنوعة بدقة كبيرة وقضبانها مستقيمة كالحبال المشدودة. ففي كل قرية أو معسكر

يوجد رجل غالباً ما يكون أعرج أو قعيداً يعرف باسم (المسمان)، يصنع السهام والأقواس لمقاتلي المنطقة. ويؤدون له على خدماته صدقات من ذهب أو محاراً مليئاً بالطعام واللحم، كما شاهدت بنفسي[1].

وأقواس الشماليين في طول قاماتهم تقريباً، وهي مصنوعة من شجر القضبان وطريقة رمايتهم هي شدُّ السهم إلى الأذن، لا إلى العين، ثم إطلاقها. وتنطلق السهم بقوة لدرجة أنها تخترق جسد الإنسان بسهولة، لا تبقى مغروزة فيه وتخترق السهم كذلك لوحَ خشب بسُمك قبضة الرجل. وقد رأيت بعيني قوة هذه السهام، وجربت استعمال واحدة من أقواسهم، فلم أقدر لها، فقد كانت أكبر مني حجماً، وأصلب عوداً.

والشماليون ماهرون في جميع صنوف القتال والقتل بشتى أنواع الأسلحة التي يفضلونها. ويتحدثون عن صفوف القتال التي

---

(١) الظاهر أن هذه الفقرة كانت مصدر تعليق القُسِّ الأستاذ (نول هارلي) سنة ١٨٦٩ حين قال: «إن الحِسَّ الأخلاق بَيْنَ الفايكنج الهمجيين كان منحرفاً ومعكوساً لدرجة أن الصدقات عندهم كانت تعطى لِصانعي الأسلحة». وقد تجاوز ثقة (هارلي) الفيكتورية معرفته اللسانية فكلمة (ألم ALM) الاسكندينافية تعني (إيلم ELM) وهو الخشب الصلب الذي يصنع منه الشماليون القسيّ والنبال. وبالصدفة فقط أن هذه الكلمة لها معنى بالإنجليزية (وكلمة ألمْز ALMS) الإنجليزية تعني صدقة أو إحساناً، والمعتقد أنها مشتقة من الكلمة الإغريقية إلييُوس (ELEOS) ومعناها: العطف.

لا تعتمد على ترتيب الجنود، فكل شيء بالنسبة إليهم قتال بين الرجل وعدوه.

ويختلف الصفان في الحرب حسب السلاح. فالسيف الواسع الذي يلوح به حامله في شكل قوس، والذي لا يستعمل للطعان، يقولون عنه «إنه يتجه إلى خط التنفس»، وتعني ذلك العنق، أي فصل الرأس عن الجسد».

ويقولون عن الرمح، والسهم، والشاقور اليدوية (الفأس)، والخنجر، وأسلحة الطعن الأخرى: «هذه الأسلحة تتجه نحو

---

(١) Lenea Adeps تعني حرفياً: «الخط السمين». ورغم أن الحكمة التشريحية لهذه الفقرة لم تكن محل جدال من طرف الجنود منذ ألف سنة ـ لأن وسط الجسد هو المكان الذي توجد فيه جميع الأعصاب والأوعية الحيوية ـ فإن الاشتقاق الدقيق للمصطلح ظل غامضاً. وجدير بالذكر في هذا المضمار ما ذُكر في إحدى «الأزليات» الأساطير الايسلاندية، من أن مقاتلاً جرح سنة ١٠٣٠ أخرج السهم من صدره، وحين رأى فتات لحم على رأسه، قال بأن الشحم ما يزال حول قلبه، وجميع الدارسين يتفقون على أن هذا تعليق ساخر من جانب جندي يعرف أنه مصاب بجرح قاتل. وهو يتمشى مع المنطق التشريحي.

وفي سنة ١٨٧٤ أشار المؤرخ الأمريكي (روبيرت ميلر) إلى هذه الفقرة من رسالة ابن فضلان حين قال: «رغم شراسة المقاتلين الفايكنج، فمعرفتهم ببناء الجسد ضعيفة. فقد كانوا ينصحون رجالهم بضرب الخط الأوسط من جسد الخصم. ولكنهم يخطئون القلب بفعلهم ذلك، نظراً لأنَّه يقع على اليسار داخل الصدر».

=

الخط السمين[1] أو العريض» ويريدون بذلك وسط الجسم، من الرأس إلى الحوض. فالجرح في هذه المنطقة الوسطى يعني الموت المحقق للخصم. ويعتقدون كذلك أنه من الأفضل ضرب البطن لِلُيونَتِها، من ضرب الصدر أو الرأس.

ومكث بوليويف ورجاله، وأنا معهم، ساهرين في حراسة يقظة تلك الليلة. وأحسست بتعب شديد من طول الانتباه واليقظة. ولم يمض وقت طويل حتى شعرت بإرهاق كأنني كنت في معركة، رغم أن شيئاً لم يقع. ولم يشعر الشماليون بتعب، بل كانوا مستعدين في أية لحظة. وحقاً إنهم أشدّ الناس يقظة على وجه العالم بأسره؛ فهم دائماً على استعداد لأية معركة أو خطر. ولا يجدون شيئاً متعباً في هذا الباب، لأنه شيء عادي بالنسبة لهم منذ الولادة. فهم في كل وقت حذرون يقظون.

= وفي الحقيقة يجب أن ينسب ضعف المعرفة إلى (ميلر) وليس للفايكنج فالرجل الغربي العادي ظل يعتقد أن القلب يقع يسار الصدر، لعدة قرون مضت. ويضع الأمريكيون أيديهم على الجانب الأيسر من صدورهم، فوق قلوبهم لأداء قسم الولاء للعلم. ولنا حكايات تقليدية شائعة جداً عن الجنود الذين نجوا من الموت عن طريق حملهم نسخة من الإنجيل في جيوبهم الصدرية بحيث توقف الرصاصة القاتلة، وما إلى ذلك.

وفي الحقيقة إن القلب يقع وسط الصدر، ويمتد بدرجات مختلفة نحو اليسار. ولكن جرحاً وسط الصدر لابد سيخترق القلب.

وبعد مدة نمت، فأيقظني (هيرغر) بهذه الطريقة الخشنة: شعرت بصوتِ دكٍّ عظيم، وبصفير الريح قرب رأسي، وحين فتحت عيني رأيت سهماً ترتعش على الخشبة على بعد شعرة من أنفي. كان هيرغر قد رمى بها، ووقف هو والآخرون يتضاحكون من فزعي وارتباكي.

وقال لي: «إذا نمت فاتتك المعركة».

فقلت: أن ذلك لن يكون مصدر شِدَّة أو مَشَقَّة بالنسبة لي.

واسترجع (هيرغر) سهمه، وحين لاحظ استيائي من مزاجه، جلس بجانبي، وأخذ يحدثني ويلاطفني. فقد كان في تلك الليلة منشرح المزاج، كثير المرح والمزاح.

وقال لي: «إن (سكيلد) مسحور»، وضحك لذلك.

ولم يكن (سكيلد) بعيداً. وقد تكلم هيرغر بصوت عال، فهمت أنه يقصد أن يسمعه. ولكن هيرغر كان يتكلم باللاتينية التي لا يفهمها (سكيلد) وربما كان هناك سبب لا أعرفه.

وكان (سكيلد) يحدد رؤوس سهامه في انتظار المعركة، فقلت لهيرغر: «ما نوع سحره؟».

فأجاب: «إذا لم يكن مسحوراً فإنه بدأ يتحول إلى عربي، فهو يغسل ملابسه التحتية، ويغتسل كل يوم. ألم تلاحظ ذلك بنفسك؟».

وحين أجبت بلا، ضحك (هيرغر)، وقال: «وماذا ترى بدلا من ذلك؟».

وضحك عالياً لنكتته التي لم أقاسمه الإعجاب بها.

فقال، وهو ما يزال يضحك:

« يفعل (سكيلد) ذلك من أجل فلانة، وهي من حرائر النساء اللواتي استولين على عقله. فمن أجلهن يغتسل كل يوم، ويتصرف كأحمق حيي خجول. أما لاحظت ذلك؟».

وأجبت أيضاً بأنني لم أفعل، فقال هيرغر: «وماذا ترى بدل ذلك»؟.

وضحك كثيراً لنكتته التي لم أقاسمه إياها، ولا حتى تظاهرت بذلك، لأن مزاجي لم يكن رائقاً للضحك.

وهنا صاح (سكيلد)، فالتفتنا جميعاً للنظر إلى التلال وراء ستار الضباب، وهذا ما رأيت: رأيت نقطة ضوء تتوهج عالياً في الجو مثل نجم ملتهب على بعد. وكل المحاربين رأوها فسرت بينهم الهمهمات وصيحات العجب.

وظهر بعدها بقليل ضوء آخر، ثم آخر، فآخر، وحسبت أزيد من دستة، ثم توقفت عن العد، إذا ظهرت نقط الضوء هذه على شكل خط يتلوى مثل ثعبان أو يتموج كجسد تنين.

وقال لي هيرغر «استعد الآن». وأعاد ما يقوله الشماليون: «حالفك الحظ في المعركة». فأعدت عليه أنا ذلك بنفس الكلمات، وابتعد عني.

وكانت نقط النار ما تزال بعيدة، ولكنها كانت تقترب. وسمعت صوتاً ظننته رعداً. فقد كان يشبه دَمْدَمة عميقة بعيدة ضخمها الضباب كما يفعل بجميع الأصوات والحقيقة أن همسة الرجل في الضباب يمكن سماعها بوضوح على بعد مائة خطوة كما لو همسها في أُذنك.

ووقفت أنظر وأنصت، وجميع مقاتلي بوليويف ينظرون وينتظرون كذلك، وقد أمسكوا بأسلحتهم، بينما كان تنين (الكورغون) الوهاج ينحدر إلينا بارقاً راعداً.

وكانت كل نقطة مشتعلة تكبر في حمرة قانية وتتراقص وتلعق. وكان جسد التنين طويلاً يلمع مما جعل منظره مخيفاً. ومع ذلك لم أكن خائفاً، فقد تأكد لي أن ذلك لم يكن إلا صفا من الفرسان يحملون مشاعل، وكذلك كان.

وبعد ذلك بقليل، خرج علينا أولئك الفرسان من الضباب أحجاماً سوداء رافعة المشاعل على خيل سوداء تزفر هاجمة.

وبدأت المعركة.

وفي الحال امتلأ جو الليل بصرخات الألم الرهيبة فقد اصطدم الصف الأمامي من الفرسان بالمتاريس المحيطة بالخندق، وتعثرت الخيل وسقطت ورمت بركابها عن ظهورها، فانغمست المشاعل في الماء. وحاول فرسان آخرون القفز على الحاجز فاخترقتهم الأوتاد الحادة.

واشتعل جانب من الحاجز، فجرى المقاتلون في كل اتجاه.

واخترق أحد الفرسان الحاجز الملتهب، فاستطعت أن أرى ذلك (الفيندول) بوضوح، لأول مرة، وهذا ما رأيت في الحقيقة: كان عبارة عن شكل أسود يركب حصاناً أسود ولكن رأسه رأس دب. أصبت بذعر شديد حتى ظننت أنني سأموت من الرعب وحده. فلم أكن رأيت في حياتي هذا المشهد الشبيه بحلم مزعج.

وفي نفس اللحظة انغرس شاقو (ايكثغو) في ظهر (الفارس) فسقط، وتدحرج رأس الدب عن جسده، فبان تحته رأس إنسان.

وبسرعة البرق انقض (ايكثغو) على الفارس الساقط، وطعنه طعناً عميقاً في صدره، ثم أدار الجثة وسحب شاقوره اليدوي، وعاد إلى القتال. ودخلت أنا المعركة كذلك. فقد رمت بي إلى الأرض ضربة شديدة من حربة جعلتني أدور بسرعة على قدمي.

وفي هذه اللحظة كان عدد من الفرسان قد اخترقوا الحاجز، ومشاعلهم في أيديهم، وبعضهم كانت لهم رؤوس دببة،

والبـعض عـاديون. وأخـذوا يدورون ويحـاولون إشـعـال النـار في المباني، وفي قصر (هيورات). وقاتلهم بوليويف ورجاله بشجاعة.

ووقـفت فـي اللحظة التي انقضَّ عليَّ فـيـهـا أحـد غـيـلان الضباب فوق حصانه. وهذا ما فعلت: وقفت له ثابتاً على الأرض، وأمسكت برُمحي موجهاً إليه، وكنت أظن أن الصدمة ستمزقني، إلاَّ أن الرمح اخـتـرق جـسـده، فصـرخ صـرخـة عظيـمـة، ولكنه لم يسقط عن جواده، بل تابع ركضـه. وسقطت أنا ألهث وفي بطني مغص شديد. إلاّ أنني لم أجرح.

وأثناء المعركة رمى (هيرغـر) و(سكيلد) بسهام كثيـرة حتى إن الجو امتـلأ بصفيـرها. وأصـابوا أهدافاً كثيـرة. وقد رأيت أحد سهام (سكيلد) يختـرق عنق فارس ويبقى هناك، ورغم ذلك رماه (هيرغر) و(سكيلد)، مرة أخرى، بسهام اخترقت صدره ثم استلا سهمين آخرين بسرعة ورمياه بهما حتى اجتمعت في صدره أربعة سهام، وارتفع صراخه عالياً فظيعاً وهو ما يزال راكباً.

وقـد عـرفت فـيـمـا بعـد أن هذا النوع من القـتـال الذي زاوله (سكيلد) و(هيـرغـر) لـم يكن قـتـالاً جـيـداً بين الشـمـاليـين. فـهـم يعتـقـدون أن الحيـوانـات لا قداسـة لهـا، وإن الاسـتـعـمـال الصـالح للسهام هو قتل الخيل لإسقاط ركابها. وهم يقولون:

«إذا نزل الرجل عن جواده أصبح نصف رجل. ويمكن قتله بسهوله».

ولذلك فهم يقتلون الخيل بلا تردد[1].

ورأيت فارساً يخترق الحاجز وقد أحنى ظهره والتصق بجواده الراكض، واختطف جثة الغول الذي قتله (ايكثغو)، ووضعه على عنق الجواد الأسود، وقفل عائدا. فغيلان الضباب لا يتركون قتلاهم حتى لا يراهم أحد في ضوء الصباح.

واستمرت المعركة الطاحنة مدة طويلة على ضوء النيران الملتهبة داخل الضباب. ورأيت (هيرغر) مشتبكاً في معركة قاتلة مع أحد الشياطين، فأخذت رمحاً جديداً، وغرسته في ظهر الغول. ورفع (هيرغر) يده شاكراً لي، وعاد يرتمي داخل غمار المعركة. وهنا أحسست بفخر شديد.

وحاولت انتزاع رمحي من ظهر القتيل فصرعني فارس يركض بسرعة. ومن ثم لم أتذكر في الحقيقة إلا قليلاً.

---

(١) يعتقد المسلمون، حسب الشريعة «أن رسول الله ﷺ حرم القسوة على الحيوان» ويمتد هذا التحريم إلى تفاصيل الحياة اليومية مثل الحديث الذي يوصي بوضع أحمال البهائم حال وصولها حتى لا تُرهَقَ كواهلها دون سبب. وبالإضافة إلى ذلك، فإن العرب كانوا دائماً يحبون تربية الخيل، وتدريبها، والاسكندينافيون ليس لهم شعور خاص نحو الحيوانات، فقد علق جميع الملاحظين العرب تقريباً على قلة عطفهم على الخيل.

ورأيت منزل أحد النبلاء يحترق وتأكله ألسنة اللهب. ولكن قصر (هيورات) الذي كان مرشوشا بالماء، لم تمسسه النار. وفرحت لذلك كأنني كنت أحد الشماليين وهذا آخر ما أذكر.

وفي الفجر استيقظت على أحد يغسل وجهي، وأحسست بالارتياح للّمسات اللطيفة. وفي الحين أدركت أن كلباً يلحسني بلسانه، وأحسست بإحساس العربيد الأحمق وشعرت بخزي لا يوصف[1].

---

(١) أغلب تراجمة مخطوط ابن فضلان السابقين كانوا مسيحيين، ودون معرفة بالثقافة العربية، وقد عكست ترجماتهم لهذه الفقرة ذلك الجهل. ففي ترجمة المترجم الإيطالي (لاكالا) سنة سنة ١٨٤٧ ورد: «وفي الصباح أفقت من غشية سكري كأحد كلاب الشارع، وخجلت جداً من حالتي».

وقفز (سكوفماند) في تعليقه سنة ١٩١٩ بسرعة إلى انستنتاج أنه «لا يمكن تصديق حكايات ابن فضلان لأنه كان دائماً في حالة سكر أثناء المعارك. وهو يعترف بذلك».

أما (دوشاتولي) المختص في (الفايكنج)، فكان أرفق منه في قوله سنة ١٩٠٨: «إن العربي أحس حالاً بنشوة المعركة التي كانت تمثل جوهر الروح البطولية لأهل الشمال».

يقول كُرايتن: «أنا مدين (لمسعود فرزان) العالم الصوفي الذي شرح لي معنى إشارة ابن فضلان هنا.

فقد كان، في الواقع، يقارن نفسه ببطل نكتة عربية قديمة وهي عن سكير يسقط في بركة قيئه على جانب الطريق، ويأتي كلب يلعق وجهه، ويحس السكير بذلك فيظن أن إنسانا طيباً يمسح وجهه، فيدعو له: «جعل الله أولادك من المطيعين». ويرفع الكلب خلفيته ويبول على وجهه، فيقول السكير: «بارك الله فيك لغسل وجهي بماء ساخن».

وتتضمن النكتة في العربية، النهي عن شرب الخمر، والتذكير الضمني بأن الخمر قذرة كالبول.

وابن فضلان يتوقع من قارئه ألاّ يفهم بالمرة أنه كان سكران، بل إنه نجا من تبول الكلب عليه، كما نجا من الموت في المعركة قبل ذلك.

ووجدت نفسي ملقى في الخندق حيث كان الماء في حمرة الدم. فنهضت ومشيت في دخان المعسكر بين جميع أصناف الموت والدمار. ورأيت الأرض وقد تشربت الدم، وكأنه ماء المطر، وبقيت منه عليها برك، ورأيت جثث نبلاء، ونساء، وأطفال كذلك. ورأيت أجساد ثلاثة أو أربعة وقد تفحمت من النار.

وكانت الجثث منتشرة في كل مكان. مما جعلني أنظر أمامي، وأنا أسير، حتى لا أدوس على إحداها لكثرتها وتقاربها.

أما متاريس الدفاع فكثير من أعمدتها احترق وذهب. وفي بعض الأماكن كانت جثث الخيل مسجاة باردة بطعونها. وانتشرت المشاعل هنا وهناك. ولم أر أحداً من مقاتلي بوليويف.

ولم أسمع صياحاً ولا بكاء في مملكة (روثغار)، فأهل الشمال لا يبكون موتاهم وعلى العكس، كان يخيم على المكان صمت وهدوء غير عادي. وقد سمعت صياح ديك، ونباح كلب، ولم أسمع صوت إنسان.

ودخلت قصر (هيورات) الكبير، فوجدت جثتين على المدخل، وخوذتاهما على صدريهما. الأول كان (سكيلد)، أحد نبلاء بوليويف، والثاني (هيلفدان) الذي كان قد جرح من قبل، وهو الآن شاحب وبارد، وكلاهما كان ميتاً. وكان (ريثيل)، أصغر المحاربين،

جالساً في ركن تحيط به الجواري. وكان قد جرح من قبل، وفي بطنه الآن جرح جديد، وحوله دم كثير وأكيداً كان ذلك يوجعه جداً، ومع ذلكِ فلم يظهر إلاّ المرح، فكان يبتسم ويمازح الجواري بقرص نهودهن وأوراكهن. وكن يؤنبنه على إلهائهن عن تضميد جراحه.

وهذه طريقة معالجة الجروح حسب طبيعتها: إذا جرح مقاتل في أطرافه كالذراع أو الساق، فإن الطرف يربط برباط، وتوضع على الجرح قطعة قماش مغلية في الماء.

وقد قيل لي: إنهم يضعون نسيج عنكبوت[1] أو أليافاً من صوف الغنم داخل الجرح لتخثير الدم، وإيقاف النزيف. إلاّ أنني لم أشاهد ذلك.

وإذا جرح المقاتل في الرأس أو العنق، فإن الجرح يغسل جيداً، وتفحصه الجواري فإذا كان الجلد ممزقاً، والعظام البيضاء صحيحة، فإنهن يقُلن عن الجرح: «إنه غير مهم». أما إذا كان العظم مكسوراً أو مفتوحاً فإنهن يقلن عنه: «إن روحه تخرج منه، وقريباً تنتهي».

فإذا كان الجرح بالصدر، فإنهن يلمسن يديه وقدميه، فإذا كانت دافئة، قلن عن الجرح: «إنه غير مهم». أما إذا سعل الجريح

---

(١) ألا يكون هذا ما أوحى باستخلاص مادة البنسيلين للعلماء المحدثين.

وخرج من فمه دم أو قيء، فإنهن يقلن: «إنه يتكلم دماً». ويعدون ذلك أمراً خطيراً. وقد يموت الرجل من مرض «الكلام بالدم»، أو لا يموت، حسب ما قُدِّر له.

فإذا جرح المقاتل في حوضه أطعمنه شُربة من البصل والأعشاب، ثم يَشممن الجروح. فإذا شممن رائحة البصل، قلن: «إنه مصاب بمر»، ويعرفون أنه سيموت قريباً.

وقد رأيت بعيني النساء يطبخن شربة البصل (لريثيل) الذي شرب منها وشمَّت الجواري جروحه فوجدن رائحة البصل. وقد ضحك (ريثيل) من ذلك، وعلق بنكتة ضاحكة، وطلب شراب (الميد)، فجيء به إليه، ولم يظهر عليه أي اكتراث بالمرة.

وفي مكان آخر من القصر، اجتمع بوليويف بمحاربيه للتشاور. وانضممت إليهم فلم يحيوني. وحتى (هيرغر) الذي انقذت حياته لم يهتم لحضوري، فقد كان الجميع منهمكين في حديث في منتهى الجدية. وكنت قد تعلمت بعض لغة أهل الشمال، ولكنها لم تكن كافية لمتابعة حديثهم الخافت السريع، فذهبت إلى مكان آخر حيث شربت بعض (الميد)، وجلست أنصت إلى أوجاع بَدَنِي.

وجاءت جارية لتغسل جروحي التي كانت عبارة عن ضربة في ربلة الساق وأخرى بصدري، ولم أكن أحس بهما حتى عرضت عليَّ خدماتها.

ويغسل الشماليون جروحهم بماء البحر اعتقاداً منهم أنه يحتوي علي قوة علاجية أكثر من ماء العيون. وغسل الجرح بماء البحر موجع له. وحين تأوهت ضحك (ريثيل)، وقال للأمَة:

«إنه ما يزال عربياً»!

فخلجت.

ويغسل الشماليون جروحهم ببول الأبقار الساخن، وقد رفضت ذلك حين عرض عليَّ.

ويعتقد أهل الشمال أن بول الأبقار عقار ممتاز، ويخزنونه في أوان خشبية. وفي العادة يغلونه حتى يختثر وتزكم رائحته الأنوف، وحينئذ يستعملونه في غسل الملابس البيضاء الخشنة[1].

وقيل لي كذلك: إن أهل الشمال قد يذهبون في رحلات بحرية طويلة، من حين لآخر، وحين ينتهي ما معهم من الماء العذب، فإن كل رجل يشرب بوله. وبهذه الطريقة ينجون من الهلاك حتى يصلوا إلى البر.

قيل لي هذا، ولكنني لم أره، والحمد لله.

---

(١) البول مصدر الأمونيا التي هي مادة تنظيف ممتازة.

وحين انتهت مشاورات المقاتلين جاءني (هيرغر)، وقد جعلت الجارية التي كانت تعالجني تلك الجروح تكويني بشكل مذهل، ومع ذلك صممت على أن أظهر بمظهر الشمال، وأتكلف المرح. فقلت له:

«بأي أمر تافه سنقوم الآن؟».

فنظر (هيرغر) إلى جروحي وقال:

«أنت تستطيع الركوب جيداً».

وسألت: «إلى أين؟» وفي الحقيقة فقدت مرحي كله في الحال، لأنني كنت مرهقاً للغاية، ولا قدرة لي إلاَّ على الراحة. فقال (هيرغر):

هذه الليلة سيهاجم التنين الوهاج مرة أخرى. ونحن الآن ضعاف، وعددنا قليل جداً، وخطوط دفاعنا كلها احترقت، وتحطمت، وسيقتلنا التنين الوهاج جميعاً».

قال هذا بكل هدوء. فقلت له:

«وإلى أين سنذهب؟».

وخطر ببالي أن بوليويف ورفاقه، نظراً لخسائرهم الجسيمة، سيغادرون مملكة (روثغار). وكنت في ذلك محقاً.

وقـال لي (هيـرغـر) «الذئب القابـع في وجـاره لا يـنال لحـمـاً، والرجل النائم لا ينتصـر».

وهذا مـثل اسكندنافي. ومنه فـهـمت أن هنـاك خطة أخـرى، وهي أننا سنهاجم على ظهور خيلنا غيـلان الضباب في مواطنها بالجبال والتلال.

وسـألت (هيرغر) دون حماس متى سيكون ذلك، فأجاب:

«في الزوال».

وفي تلك اللحظة دخل طفل القـاعـة، وفـي يده شيء مـصنوع من حجـر. وتفـحصه (هـيرغـر)، فوجده تمثالاً آخـر لامرأة حـامل، ودون رأس، بشـعـة ومنتـفـخـة. فـصـاح (هيـرغـر)، شـاتماً، ورمى بالحـجـر من يده المرتعـشـة. ونادى بالجـارية، فـالتـقطت الحـجـر، ورمت به في النار حيث انشق بحـرارة اللهب وتفتت إرباً صـغيـرة. وألقى بفتاته في البحر كما أخبرني (هيرغر).

وسألته عن معنى الحجر المنحوت فقال:

« تلك صـورة أم أكلة الأمـوات، فـهـي التي تشـرف عليـهم، وتوجههم أثناء الأكل».

وهنا رأيت بوليويف واقفاً وسط القـاعـة ينظر إلى ذراع أحد الأغوال التي كانت ما تزال معلقة بأعمدة السقف. وبعد ذلك نظر

إلى جثتي رفيقيه القتيلين، ثم إلى (ريثيل) المحتضر، فتدلت كتفاه، ودخل ذقنه في صدره. ومشى بجانبهم، وخرج فرأيته يلبس دروعه، ويتقلد سيفه، ويستعد للمعركة من جديد.

*****

صحراء الرعب

ونادى بوليويف بسبعة جياد مُطَهَّمَةٍ، وركبنا في نصف النهار الأول، متوجهين من قصر (روثغار) إلى السهل، ومنه إلى التلال.

وصحبتنا أربعة سلاقي بيضاء ناصعة. وهي حيوانات ممتازة ينبغي اعتبارها أقرب إلى الذئاب منها إلى الكلاب. فهي ذات طبع شرس.

كان هذا مجمل قوتنا المهاجمة، وهي، في اعتقادي قوة ضعيفة ضد خصم عنيد. ومع ذلك فأهل الشمال يؤمنون إيماناً قوياً بالمباغتة والمكر في الهجوم ويساوي الواحد منهم، وباعترافهم، ثلاثةً أو أربعة من غيرهم.

ولم أكن مستعدا لركوب مغامرة حربية أخرى، وتعجبت من أن الشماليين لم يكن لهم نفس الشعور الصادر عن تعبي. وقال (هيرغر) عن هذا:

«إنه دائماً هكذا. الآن أو في (فالهالا)». أي الجنة عندهم أو الآخرة.»

ففي هذه الجنة التي هي عبارة عن قاعة واسعة، يقاتل المحاربون من الفجر، إلى الليل، وبعد ذلك يُبعث الأموات ويشارك

الجميع في حفل عظيم، طوال الليل، بطعام وشراب لا ينتهي. وفي النهار تبدأ المعركة، مرة أخرى، ثم يبعث الأموات ويحتفلون، وهكذا دواليك إلى أبد الآبدين[1]. لذلك فُهُم لا يعدونه شيئاً غريباً أن يخوضوا المعارك يوماً بعد يوم وهم على الأرض.

وخرجنا نقتفي أثر الدم الذي تركه الفرسان المنسحبون في الليلة الماضية. وكانت السلاقي تقودنا متسابقة في اتجاه طريق القطرات الحمراء.

ولم نتوقف إلاَّ مرة لنسترجع سلاحاً سقط من الأغوال المتقهقرة. وكان عبارة عن فأس نصفه خشب، والنصف الآخر شفرة حجرية مربوطة إلى الخشبة بسير من الجلد.

وكانت حافة الفأس حادة للغاية. وكانت الشفرة مصنوعة بمهارة كما لو كان الحجر جوهرة تناولتها يد صَنَّاعٌ لتُرضي غرور سيدة غنية. بهذه الدرجة كانت مهارة الصناعة. أما كسلاح فقد كان عظيماً لحدة حافته. ولم أكن رأيت على وجه الأرض شيئاً مثل ذلك من قبل.

---

(١) يجادل بعض الدارسين الكبار في أن الاسكندينافيين هم أصحاب فكرة المعركة الأبدية، ويقولون إنها فكرة (سلتية). ومهما كانت الحقيقة، فإنه معقول جداً أن يتبنى رفاق ابن فضلان هذه الفكرة. لأن اتصال الاسكندينافيين بالسلتيين كان قد مر عليه ما يزيد على مائة وخمسين سنة في ذلك الوقت.

وقال لي (هيرغر) إن الفيندول يصنعون جميع أسلحتهم من هذا الحجر، أو كذلك يعتقد الشماليون.

وتابعنا مسيرنا إلى الأمام بسرعة جيدة، تسبقنا السلاقي التي كان نباحها يشرح صدري.

وبعد مدة وصلنا إلى التلال. وسرنا خلالها بلا تردد أو توقف، وكل مقاتل من رجال بوليويف الصامتين المتجهمي الوجوه مصمم على بلوغ هدفه. كانت علائم الخوف بادية على وجوههم، ومع ذلك لم يتوقف أو يتردد منهم أحد، بل ظلوا سائرين.

وكان جو التلال بارداً وسط الغابة ذات الأشجار الداكنة الاخضرار. والريح باردة تعبث بملابسنا، وأنفاس الخيل تُسمع كالفحيح. ومن أفواه الكلاب يخرج بخار أبيض كالريش الخفيف، ونحن سائرون إلى الأمام.

وفي الزوال، وبعد مدة من السير، تغير أمامنا منظر الأرض، فأصبح عبارة عن مستنقع آسن، كريه الرائحة، مقفر شبيه بالصحراء، إلا أنه غير رملي ولا جاف، بل هو رطب موحل، وكان يكسو المستنقع رداء شفاف خفيف من السديم.

ويسمي أهل الشمال هذا المكان بصحراء الخوف[1].

---

(١) في بحث لـ (ج. ج. طومينسون) سنة ١٩٢٧، يشير إلى أن نفس التسمية ظهرت في (اسطورة فولسونغا) VOLSUNGA وجادل في أن التسمية كانت تعني مصطلحاً مشتقاً من كلمة (أراضي محرمة TABOO LANDS). =

وشاهدت بعيني أن هذا السديم، أو الضباب الرقيق، وقد حط على الأرض على شكل مجموعات متفرقة من السحب الصغيرة جداً. ففي مكان يكون الجو صافياً. وفي مكان آخر تنتشر غمائم الضباب معلقة قريباً من الأرض على مستوى رُكب الخيل، وفي بعض الأماكن تختفي فيها الكلاب عنا. وبعد لحظة يصفو الجو ونجد أنفسنا في فجوة من الفضاء الواسع. وهكذا كان شكل هذه الأرض.

وجدت هذه المناظر لافتة للنظر. ولكن الشماليين لم يعتبروها شيئاً يستحق الاهتمام، فقالوا إن الأرض بهذه المنطقة تكثر فيها المستنقعات الآسنة والبرك الضحلة والعيون الساخنة التي تتفجر من شقوق في الأرض، ولذلك يتكون بعض الضباب في هذه الأماكن، ويمكث هناك طوال الليل والنهار. ويسمونها أرض البحيرات البخارية.

وهذه الأرض صعبة على الخيل، لذلك كنا نتقدم ببطء. والكلاب كذلك كانت تتحرك ببطء، ولا تنبح بنفس القوة.

= وواضح أن (طومينسون) لم يكن يعرف أن (أسطورة فولسونغا) لم يَرِد فيها شيء من ذلك. وفي الواقع، فإن ترجمة (ويليام موريس) في القرن ١٩، تحتوي على هذه الجملة: «وهناك صحراء خوف في أعلى أطراف العالم». ولكن هذا السطر كان من وضع (موريسون) وقد ظهر في كثير من الجمل في ترجمته الموسعة للأسطورة الجرمانية.

ولم تمض علينا مدة حتى تغير حال جماعتنا: فبعد أن كنا نركض، والكلاب تجري أمامنا نابحة نشيطة، تحول ركضنا إلى مشي بطيء، ولم تعد الكلاب التي كفت عن النباح، راغبة في شق الطريق أمامنا، بل أخذت تتقهقر حتى بدأت الخيل تتعثر بها مما سبب بعض الصعوبات أحياناً.

وكان البرد ما يزال قارساً، بل وأبرد من ذي قبل. وشهدت هنا وهناك بعض كتل الثلج على الأرض، رغم أن الفصل، حسب علمي، كان صيفاً.

وتقدمنا مسافة جيدة بخطوات ثقيلة. وتساءلت أننا عما إذا كنا قد هِمنا على وجوهنا، وأننا لن نعثر على طريق عودتنا في هذا المستنقع أبداً.

وفي أحد الأماكن توقفت الكلاب. ولم يكن ثمة اختلاف في شكل الأرض، ولا علامة أو شيء على الأرض. ومع ذلك توقفت الكلاب كأنها وصلت إلى حاجز أو سور ملموس. وتوقفت الجماعة وأخذنا ننظر هنا وهناك، ولم يكن ثمة ريح يهب، ولا صوت يسمع، ولا طائر يطير، ولا أي حيوان حيٍّ، فقد كان الصمت شاملاً.

وقال بوليويف: «هنا تبدأ أرض الفيندول».

ورَبَتَ الرجال على أعناق خيلهم لتهدئتها لأنها كانت قلقة عصبية، وكذلك كان ركابها.

وَزَمَّ بوليويف شفتيه، وارتعشت يدا (ايكثغو) وهو ممسك بلجام حصانه، وشحب وجه (هيرغر)، وقفزت عيناه من مكان إلى آخر، وكذلك كان الآخرون كل بطريقته.

ويقول الشماليون: «إن للخوف فماً أبيض».

وقد فهمت ما كانوا يقصدون، فقد كانوا جميعاً شاحبين قد ابيضت شفاههم وأفواههم، وما حولها. ولم يبح أحد منهم بخوفه.

وتركنا الكلاب وراءنا، وتقدمنا فوق غطاء من الثلج الرقيق الذي كان ينكسر تحت حوافر الخيل، وداخل ضباب أكثف. ولم يتكلم أحد غير الجياد. وفي كل خطوة كانت تزداد صعوبةُ حَثِّ الخيلِ على التقدم إلى الأمام. وكان على الرجال أن يشجعوها على السير بكلمات ناعمة، وركلات حادة.

وبعد قليل لاحت لنا أشكال غامضة أمامنا، فاقتربنا منها بحذر. ورأيت بعيني هاتين: على جانبي الطريق فوق أعمدة عالية عُلقت جماجم وحوش ضخمة فاغرة أفواهها في وضع الهجوم.

وتابعنا طريقنا. كانت تلك الجماجم لدببة عملاقة يعبدها الفيندول.

وقال (هيرغر): إن جماجم الدببة تحمي حدود أرض الفيندول.

وبعد ذلك رأينا حاجزاً آخر رمادياً بعيداً، وكبيراً. وكان عبارة عن صخرة ضخمة في ارتفاع سرج الحصان، وكانت منحوتة على شكل امرأة حامل بارزة البطن والثديين، وبدون رأس، ولا ذراعين، ولا ساقين. وكانت بشعة المنظر ملطخة بدماء بعض القرابين التي كانت تقطر من جوانبها كخطوط حمراء.

ولم يتحدث أحد بما رأى. ومشينا فاستل المقاتلون سيوفهم استعداداً.

وهنا لاحظت إحدى خصائص أهل الشمال الذين أظهروا الخوف من قبل ولكنهم حين دخلوا أرض الفيندول واقتربوا من مصدر الخوف، زال عنهم الخوف. لذلك يظهر أنهم يفعلون كل شيء بالمقلوب، وبطريقة محيرة. فقد ظهر عليهم الاطمئنان، وبقيت الخيل صعبة المراس ولابد من نخسها لتتقدم.

وشممت رائحة جيفة عفنة مثل التي كنت شممت في قاعة (روثغار) الكبرى من قبل. وبدخولها خياشمي أحسست بالغيثان وضعف القلب.

وسار (هيرغر) على جواد، بجانبي، وقال لي بصوت خفيض: «كيف حالك؟».

ولمَّا لم أكن قادراً على إخفاء مشاعري، فقد قلت له: «إنني خائف».

فرد قائلاً: «ذلك لأنك تفكر فيما هو آت، وتتصور الأشياء التي توقف جريان الدم في عروق أي إنسان. فلا تستعجل الأمور. وافرح بعرفان أنه لا أحد سيعيش إلى الأبد».

وأدركت صدق ما قال، فقلت له:

«عندنا مثل، في بلدنا، وهو: «الحمد لله على أن وضع بحكمته، الموت في نهاية الحياة وليس في بدايتها».

وابتسم (هيرغر)، ثم ضحك قليلاً، وقال: «عند الخوف، حتي العرب يقُولون الحق».

والتحق بوليويف ليقول له ما قلت، فضحك هو كذلك . وسر رجال بوليويف بالنكتة في تلك الظروف.

ووصلنا إلى أكمة، فصعدنا إلى أعلاها، ووقفنا ننظر إلى مضارب الفيندول تحتنا وهي كما شاهدتها عبارة عن دائرة من الأكواخ البدائية المبنية من الطين المخلوط بالتبن على أرض الوادي. وهي بسيطة البناء كما لو أن طفلاً بناها. وفي داخل الدائرة نار كبيرة بدأت تخمد. ولم يكن ثمة خيل ولا حيوانات ولا حركة، ولا أثر للحياة من أي نوع. رأينا هذا من خلال فجوات الضباب.

وترجل بوليويف عن جواده فترجل المحاربون، وأنا معهم. وكان قلبي يدق لانحباس أنفاسي، وأنا أنظر إلى مضارب الشياطين البدائية. وتكلمنا همساً.

وسألت:

«لماذا ليس هناك حركة؟».

فأجاب (هيرغر):

«إن الفيندول مخلوقات ليلية مثل البوم والخفافيش، ينامون بالنهار، وهم الآن نائمون. وسوف ننزل عليهم ونذبحهم وهم يحلمون».

فقلت: «إننا قليلون جداً».

فقد كانت تحتنا أكواخ كثيرة.

فقال (هيرغر): «فينا الكفاية».

وأعطاني جرعة (ميد)، فشربتها شاكراً، وحمدت الله أنه غير حرام، ولا مكروه[1]، وفي الحقيقة بدأت أجد أن لساني أخذ يعتاد على هذا الشراب الذي اعتبرته مراً خبيثاً للغاية. وهكذا فإن الأشياء الغريبة تصبح مألوفة بالتكرار. وهذا ما حدث لي من رائحة الفيندول النتنة، فلم أعد أهتم لها، لأنني شممتها مدة طويلة بحيث لم أعد أشعر بها.

---

(١) يعلق مايكل كرايتن على هذا بقوله: «إن تحريم الإسلام للمشروبات الكحولية ينطبق حرفياً على عصير الفواكه المختمرة، مثل العنب: كالنبيذ. أما المشروبات المختمرة من العسل فهي على الخصوص مباحة للمسلمين «وهذا غلط طبعاً». فما أسكر كثيره فقليله حرام. المترجم.

وأهل الشمال غريبون جداً فيما يتعلق بالشم. فهم غير نظيفين، كما سبق أن قلت، ويأكلون جميع أنواع الأكل والشراب الرديء. ولكنهم يعتزون بأنوفهم أكثر من جميع أعضاء البدن الأخرى. ففي المعارك لا يعتبر فقدان أُذن، أو إصبع أو اثنين، أو يدٍ شيئاً مذكوراً، ولا يهتمون لندوب الجروح، ولكنهم يعتبرون فقد الأنف معادلاً للموت نفسه! وهذا حتى بالنسبة لرانفته العليا التي يعتبرها غيرهم من الناس جرحاً طفيفاً جداً.

أما كسر عظام الأنف في المعركة فهو غير مهم، فكثير منهم أنوفهم عوجاء بسبب ذلك. ولا أدري سبباً لهذا الخوف من قطع الأنف[1].

---

(١) الشرح النفساني العادي للخوف من فقدان أحد الأطراف يكمُنُ فيما يسمى بعقدة الإخصاء. وقد لاحظ (إنجلهارت) في بحث بعنوان: (تشويه صورة البدن في المجتمعات البدائية)، بإحدي النشرات سنة ١٩٣٧، إن كثيراً من الحضارات لها مواقف محددة من هذا الاعتقاد، فمثلاً تعاقب قبيلة (نانامانى) البرازيلية الجرائم الجنسية بقطع الأذن اليسرى ، وهم يعتقدون أن ذلك يخفض من القوة الجنسية. وتعطي مجتمعات أخرى معاني خاصة لفقدان الأصابع، أو بنان الرجل، أو الأنف كما هو الحال بالنسبة للشماليين. ومن الخُرافات الشائعة في كثير من المجتمعات أن حجم أنف الرجل يدل علي حجم عضوه التناسلي.
ويجادل (ايمرسون) بأن الأهمية المعطاة للأنف في المجتمعات البدائية آتية من قيمته الوظيفية منذ العهود التي كان الرجال فيها صيادين يعتمدون كثيراً على حاسة الشم للعثور على الصيد، وتجنب العدو. وفي مثل هذه الحياة يعتبر فقدان الشمّ خسارة عظمى حقاً.

ونزل بوليويف ورجاله مدرعين، وأنا معهم، تاركين خيلنا على التل. وكانت الخيل خائفة بحيث لا يمكن تركها بلا حراسة. وكان لابد من بقاء واحد منا معها، فداعبني الأمل في أن يختاروني لتلك المهمة، ولكنهم اختاروا (هالتاف) الذي كان جريحاً قليل الفائدة.

وهكذا نزلنا نحن التل بحذر بين الأعشاب المريضة، والنباتات الذابلة، منحدرين إلى مضارب الفيندول وتسللنا باحتراس شديد، دون أن ينتبه إلينا أحد، حتى دخلنا قلب قرية الشياطين.

ولم يتكلم بوليويف بالمرة، ولكنه كان يعطي التعليمات والأوامر بحركات من يديه. ومنه فهمت أننا يجب أن ننقسم إلى جماعات من رجلين، وكل اثنين يذهبان في اتجاه مختلف، وكان عليَّ أنا و(هيرغر) أن نهاجم أقرب كوخ، بينما يهاجم الآخرون الأكواخ الأخرى. وانتظر الجميع حتى كان كل اثنين على باب كوخ.

وحينئذ، رفع بوليويف سيفه الكبير (روندينغ) وصرخ صرخة عظيمة، وقاد الهجوم.

ودخلنا أنا و(هيرغر) إلى الكوخ، والدم ينبض في رأسي، وسيفي في يدي خفيف كالريشة. وكنت مستعدا لخوض أكبر معركة في حياتي.

ولكنني لم أر شيئاً داخل الكوخ. فقد كان خالياً عاري الأرض إلا من بعض أسِرَّة التبن البدائية الشبيهة في مظهرها الخشن بعش حيوان.

وخرجنا بسرعة وهاجمنا الكوخ المجاور، فوجدناه خالياً كذلك. وفي الواقع كانت جميع الأكواخ خالية.

وظهرت الحيرة والحزن على رجال بوليويف، وأخذوا ينظرون إلى بعضهم البعض في اندهاش واستغراب.

وهنالك ناداني (ايكثغو)، فذهبنا إلى أحد الأكواخ الذي كان أكبر من الأخرى. ووجدت أن هذا كان مهجوراً مثل غيره، ولكنه لم يكن عارياً، فقد كانت أرضه مغطاة بعظام هشة كانت تتكسر تحت أقدامنا كعظام الطيور لرهافتها وخفتها.

واندهشت لذلك، فانحنيت لأرى شكل العظام. فصُدِمت لرؤية مِحجَر عين آدمية هنا، وأسنان هناك، وفي الحقيقة كنا نقف على بساط من الوجوه البشرية. وكدليل آخر على هذه الحقيقة الفظيعة، وجدنا كومة عالية من الجماجم البشرية في أحد الأركان، مرتبة كالقدور ولكنها ناصعة البياض.

فأحسست بالغثيان، وخرجت من الكوخ لأفرغ جوفي.

وقال لي (هيرغر) إن الفيندول يأكلون مخ الإنسان كما يأكل الواحد بيضاً أو جبنا. وهذه عادتهم. وهي تذهل كل من يفكر فيها. ومع ذلك فهي حقيقة واقعة.

ونادانا محارب آخر فدخلنا كوخاً آخر. وهناك رأيت هذا: كان الكوخ فارغاً إلا من كرسي شبيه بعرش منحوت من قطعة خشب واحدة. وكان لهذا الكرسي ظهر شبيه بمروحة منحوت على شكل أفاعي وعفاريت. وأمام الكرسي انتثرت عظام جماجم، وكان على ذراعه، حيث يضع صاحبه يده، دم وبقايا مادة جبنية بيضاء هي قطع من مُخٍّ آدمي.

وكانت رائحة هذه الغرفة خانقة.

وحوالي الكرسي كانت تماثيل من حجر، كالتي وصفت آنفا، مصفوفة على شكل نصف دائرة حول الكرسي.

وقال (هيرغر): «هنا تجلس للحكم».

وكان صوته خافتاً مبهوراً.

ولم استطع فهم ما قال، فقد كنت فارغ القلب مريض المعدة. فافرغت ما بجوفي على الأرض. وكان بوليويف ورجاله منقبضين، رغم أن أحداً منهم لم يقىء.

ولكنهم التقطوا جمراً وأشعلوا الأكواخ ناراً. فأخذت تحترق ببطء لما بها من بلل.

وهكذا عدنا إلى التل، وركبنا خيولنا، وغادرنا أرض الفيندول، تاركين وراءنا صحراء الخوف.

وحَزِن جميع رجال بوليويف لأن الفيندول فاقوهم ذكاء ومكراً إذ تركوا قريتهم تحسباً للهجوم، معتبرين إحراق أكواخهم خسارة طفيفة.

*****

مجلس الأقزام

وعدنا من حيث أتينا، وسرنا بسرعة أكثر؛ لأن الخيل كانت متلهفة على الرجوع. ونزلنا من التلال، فرأينا السهول المنبسطة عن بعد، على حافة المحيط، وكذلك المضارب وقصر (روثغار) الشامخ.

وانحرف بنا بوليويف في اتجاه آخر، نحو جُرُف صخرية شديدة الانحدار تعصف فيها رياح المحيط. وسرت إلى جنب (هيرغر) وسألته عن هذا، فقال لي: إننا نبحث عن أقزام المنطقة.

وفوجئت كثيراً بهذا؛ لأن أهل الشمال لا يوجد بينهم أقزام، فهم لا يظهرون في الشوارع، ولا يجلسون إلى أقدام الملوك، ولا تراهم يحسبون المال، أو يشتغلون بالسجلات أو بأي شيء مما نعرفه عن الأقزام[1]. ولم يكن أحد من أهل الشمال قد ذكر لي شيئاً عنهم، وافترضت أن قوماً عمالقة مثل هؤلاء لا يمكن أن ينجبوا أقزاماً[2].

---

(١) في بلاد البحر الأبيض المتوسط، ومنذ أيام المصريين، وكان يُعتقد أن الأقزام أذكياء ثِقَات، وكانت تُسند إليهم مُهمات مَسْك الدفاتر وتدبير المال.

(٢) من حوالي تسعين هيكلاً عظمياً مما يمكن نسبته بكامل الثقة إلى عهد الفايكنج بأسكندينافيا، نجد أن متوسط الطول هو ١٧٠ سنتيمتراً (أي خمس أقدام، وسبع بوصات).

ووصلنا إلى مكان به كهوف وكله تجاويف فترجل بوليويف عن جواده، وكذلك رجاله، وتابعنا السير على الأقدام، وسمعت هسيساً، ورأيت نفثات من البخار تخرج من بعض تلك الكهوف. ودخلنا أحدها فوجدنا فيه أقزاماً.

وكان مظهرهم هكذا: حجمهم حجم أقزام عاديين، ولكنهم يتميزون برؤوس كبيرة، وملامح عليها علائم الشيخوخة المتقدمة. كان بينهم ذكور وإناث، وكلهم تبدو عليهم علائم الهرم. وكان الرجال ملتحين وقورين، وللنساء بعض الشعر على وجههن بحيث يشبهن الرجال. وكل قزم كان يلبس ملابس من الفراء أو جلد السمور، وحزاماً رقيقاً من الجلد مزخرفاً بقطع الذهب المطروق.

واستقبلنا الأقزام بأدب، ودون علامة للخوف. وقال لي (هيرغر) إن هؤلاء الأقزام لهم قوى سحرية، ولا يخافون أحداً على وجه الأرض، ولكنهم يخشون الخيل، وهذا سبب تركنا إياها وراءنا. وقال لي (هيرغر) كذلك: إن قوة القزم توجد في حزامه، وإن القزم يفعل أي شيء لاسترجاع حزامه إذا فقده.

وقال (هيرغر) أيضاً بأن مظهر الشيخوخة بين الأقزام شيء حقيقي، وأن القزم يعيش عمراً أطول من أي رجل عادي. وقال بأن هؤلاء الأقزام يتمتعون برجولة قوية منذ شبابهم الباكر، فحتى وهم أطفال تنبت لهم عانات، وأعضاؤهم التناسلية ذات أحجام

غير عادية. وفعلاً، فهذه هي العلامة التي يَعرف بها أهلُ الطفل ما إذا كان وَلَدُهم سيكون قزماً له موهبة السحر، وعليهم أن يأخذوه للكهوف للعيش مع أمثاله. ويحمل أهل الطفل مَولُودَهم القزم إلى الآلهة ويقدمون لها القرابين من الحيوان أو غيره؛ لأن ولادة قزم تُعد من حسن الطالع.

هذه معتقدات أهل الشمال، كما تحدث عنها (هيرغر) ولا علم لي إلاّ بما قيل لي.

وبداخل الكهف تبينت أن البخار والهسيس كانا يصدران عن مراجِلَ عظيمةٍ تُغمس فيها شفرات الفولاذ بعد طرقها لتبريدها. لأن الأقزام يصنعون أسلحة تحظى بتقدير أهل الشمال وإعجابهم. وبالفعل رأيت رجال بوليويف ينظرون بلهفة إلى المعروضات بالكهوف كأي امرأة في دكان يبيع نفائس الحرير.

وسأل بوليويف الأقزام، فوجهوه إلىَ أعلى كهف هناك حيث كان يجلس قزم بمفرده، وهو أكبرهم سناً، وله لحية ناصعة البياض، ووجه كثير التجاعيد. واسمه (تينغول)، وتعني الكلمةُ الحَكَمَ بين الخير والشر، وكذلك العرَّاف.

ولابد أن هذا (التنغول) كانت له كل القوى السحرية التي قال الجميع إنه يملكها، فقد رحب حيناً ببوليويف باسمه،

وطلب منه الجلوس معه. وجلس بوليويف، ووقفنا نحن مجتمعين قريباً منهما.

ولم يقدم بوليويف أية هدايا للتنغول، فالشماليون لا يعظمون الأقزام، ويعتقدون أن خدماتهم يجب أن تعطى لهم بالمجان، ومن الخطأ تشجيع الأقزام بالهدايا على خدماتهم.

وجلس بوليويف، فنظر إليه التنغول، وأغمض عينيه، وبدأ يتكلم، وهو يتحرك إلى الأمام والخلف في جلسته. وكان يتكلم بصوت رقيق كأصوات الأطفال، و(هيرغر) يترجم لي ما يقول هكذا:

«يا بوليويف، أنت محارب عظيم، ولكنك لقيت نظيرك في غيلان الضباب، أكلةِ الأموات. وسيكون بينكما عراك حتى الموت. وستحتاج إلى كل قواك وحكمتك لترد على التحدّي».

وسار على هذا المنوال مدة من الزمن، وهو يتمايل في جلسته، ومجمل قوله هو أن بوليويف كان يواجه خصماً عنيداً، الأمر الذي كنت أعرفه جيداً، وكذلك بوليويف، ومع ذلك فقد ظل بوليويف هادئاً.

ورأيت كذلك أن بوليويف لم يغضب من ضحك القزم عليه، وقد فعل ذلك مراراً. وأضاف القزم.

«جئتني لأنك هاجمت الغيلان في المستنقعات والبرك الآسنة، دون أن تظفر بشيء؛ لذلك جئتني تطلب النصح والتشجيع كما يأتي الطفل أباه سائلاً: «ماذا أفعل الآن؟ فجميع خططي فشلت»».

وضحك التينغول طويلاً على ما قال، ثم انقلب وجهه إلى جد. وقال:

«يا بوليويف، إني أرى المستقبل، ولكني لا أستطيع أن أقول لك أكثر مما تعرف. فأنت وجميع مقاتليك الشجعان جمعتهم أطراف شجاعتكم ومهارتكم للهجوم على الغيلان في صحراء الخوف، فخدعتم بذلك أنفسكم؛ لأن ذلك لم يكن عملاً من أعمال بطل حق».

وشدهت لسماع هذا الكلام؛ لأن ما صنعناه كان، في نظري، عملاً من أعمال الأبطال.

وقال التنغول: «لا، لا، يا بوليويف لقد خرجت في مهمة زائفة. وفي أعماق قلبك البطل كنت تعرف أنها غير جديرة بك، وكذلك كان الأمر بالنسبة لمعركتك مع التنين الوهاج (كورغون). وقد كلفك ذلك عدداً من المقاتلين الممتازين. فما هو هدف خططك؟».

ومع ذلك لم يجب بوليويف، وظل جالساً أمام القزم ينتظره، فقال هذا:

«إن تحدي البطل في قلبه، وليس في الخصم. فماذا يهم لو كنت نزلت على الفيندول في أوكارهم، وقتلت منهم عدداً وهم نيام؟ كان يمكنك أن تقتل الكثيرين، ولكن ذلك لن ينهي القتال إلاّ بقدر ما يقتلُ الرجلَ قطعُ أصابعه. ولتقتلَ رجلاً يجب أن تطعن الرأس أو القلب، وكذلك الشأن مع الفيندول. أنت تعرف كل هذا، ولا تحتاج إلى نصائحي لمعرفته».

وهكذا وبخ القزم بوليويف وهو يتأرجح إلى الأمام والخلف. وتقبل بوليويف تأنيبه، لأنه لم يجب، بل أحنى رأسه.

وتابعه التنغول كلامه:

«لقد قمت بعمل يقوم به أي إنسان، وليس بعمل بطل. فالبطل يفعل ما لا يجرؤ بشر على فعله! وللقَضَاء على الفيندول يجب أن تضرب الرأس والقلب، ومعنى ذلك أنه لابد لك من قتل أمهم نفسها في كهوف الرعد».

ولم أفهم معنى هذه الكلمات.

وزاد القزم قائلاً: «أنت تعرف هذا؛ لأنه كان دائماً أمراً حقيقياً عَبْرَ جميع عصور الإنسان. فهل سيموت مقاتلوك

الشجعان واحداً واحداً؟ أم ستهاجم الأمّ في الكهوف؟ فهذه ليست نبوءةً، ولكنها اختيار بين الرجل والبطل».

وأجاب بوليويف، ولكن جوابه ضاع عليَّ لأنه تكلم بصوت خفيض؛ ولأن الريح كانت تولول وتهز مدخل الكهف. وكيفما كانت كلمات بوليويف، فإن القزم تابع كلامه.

«ذلك جواب البطل، يابوليويف، وما كنت لأنتظر منك غيره. ولذلك سأعينك في مسعاك».

وعند ذلك خرج جماعة من الأقزام أشباهِهِ إلى الضوء من أركان الكهف المظلمة، وهم يحملون عدداً من الأشياء.

وقال التنغول:

«هذه حبال مصنوعة من جلد الفقمة المصطادة في أول ذوبان الجليد، وهذه الحبال ستمكنك من الوصول إلى المدخل البحري لكهوف الرعد».

فقال بوليويف: «شكراً».

وأضاف التنغول:

«هذه كذلك سبع خناجر صنعت بالبخار والسحر، لك ولرجالك. فالسيوف الكبيرة لا تنفع في كهوف الرعد. احمل هذه الأسلحة الجديدة بشجاعة وستحقق كل ما تتمناه».

وأخذ بوليويف الخناجر، وشكر القزم. ثم وقف، وسأل:

«متى نفعل ذلك؟».

فأجاب التنغول:

«الأمس أفضل من اليوم، وغد أفضل من بعد غد. فأسرع، وأنجز أعمالك بقلب ثابت، وذراع قوية».

وسأل بوليويف:

«وماذا سيقع إذا نجحنا»؟.

فأجاب القزم:

«حينئذ سيكون الفيندول قد أصيب بجرح قاتل، فيتخبط في سكرات موته للمرة الأخيرة، وبعد نزعه الأخير سيحل السلام بالأرض، ويعم السلام إلى الأبد. وسيتغنى الناس باسمك عبر قاعات أرض الشمال إلى نهاية الزمان».

فقال بوليويف:

«كذلك يتغنى الناس بأعمال الأموات».

فقال القزم:

«وهو كذلك».

وضحك مرة أخرى، وقهقه بصوت كصوت طفل أو فتاة، وأضاف:

«وكذلك بأعمال الأبطال الذين يبقون على قيد الحياة. ولكن أعمال الرجال العاديين لا يتغنى بها أحد. وأنت تعرف كل هذا».

وخرجنا من كهف الأقزام، ووزع بوليويف بيننا الخناجر، ونزلنا من الجُرُفِ الصخرية التي تعصف فيها الرياح، وعدنا إلى مملكة (روثغار) وقصره الكبير مع هبوط الليل.

كل هذا حدث، وشاهدته بعيني.

*****

أحداث الليلة التي سبقت الهجوم

وجاء الضباب تلك الليلة. نزل من التلال، ولكن بقي مُعَلقاً بين الأشجار، ولم يزحف على السهل.

وفي قاعة قصر (روثغار) الكبرى أُقيمت مأدبة هائلة، وشارك بوليويف ورجاله في الاحتفالات.

وذبح كبشان[1] كبيران وأكِلاَ، وكل رجل شرب قدراً كبيراً من (الميد)، وضاجع بوليويف نصفَ دستة من الجواري، وربما أكثر. ولكن رغم كل هذا اللهو والقصف لم يكن بوليويف ولا رجاله مبتهجين حقاً. فمن حين لآخر كنت أراهم يسترقون النظر إلى حِبَال جلد الفقمة والخناجر الموضوعة في أحد الأركان.

وانضممت أنا الآخر إلى الحفل، لأنني كنت أشعر كواحد منهم لما قضيته في صحبتهم من وقت، أو هكذا بدا لي. وفي الواقع، أحسست تلك الليلة أنني ولدت شمالياً.

---

(١) كتب (دارهام) سنة ١٩٢٤، إن الكبش، كان يؤكل في المآدب لزيادة القُوة؛ لأن ذكر الغنم كان يعتقد أنه أقوى من الأنثى. وفي هذه الفترة، في الواقع، كانت للشاة والكبش معاً قرون.

وحدثني (هيرغر) وهو سكران بحرية عن أم الفيندول، وقال:

«إن أم الفيندول عجوز هرمة وتعيش في كهوف الرعد. وهذه الكهوف تقع بين صخور جرف شاهق غير بعيد من هنا. وللكهوف مدخلان، أحدهما من البر، والآخر من البحر. ولكن مدخل البر يحرسه الفيندول الذين يحمون أمهم العجوز؛ لذلك لا يمكنُنَا الهجوم من جهة البر؛ لأننا إذا فعلنا قُتلنا جميعاً. ولذلك سوف نهاجم من البحر».

وسألته:

«ما هو شكل أم الفيندول هذه؟».

فقال: «لا أحد من أهل الشمال يعرف ذلك، ولكن يقال بينهم إنها عجوز وأكبر سناً من القهرمانة الهرمة التي تدعى ملك الموت. ويقال كذلك: إنها تُفزِعُ من ينظر إليها. وإنها تتعمَّم بالأفاعي وتضعها على رأسها كإكليل، وإنها أقوى مما يمكن تصوره»، وقال: «إن الفيندول يعتمدون عليها في توجيههم في جميع شؤون حياتهم»[1].

وانصرف (هيرغر) عني ونام.

---

(١) يلاحظ (جوزيف كانتريل) أن هناك اعتقاداً في الميثولوجية الجرمانية والشمالية يذهب إلى أن النساء يتمتعن بقوى خاصة، وخصائص سحرية، وينبغي للرجال أن يخافوهن وألاَّ يثقوا فيهن، فجميع الآلهة رجال، ولكن (الفالكيرات)، ومعناها الحرفي (الذين يختارون الذبائح)، نساء ينقلن المحاربين القتلى إلى الجنة. وكان يُعتقد أن هناك ثلاثة (نورنات Norns) =

وفي جـوف الليل، وقـد أشـرفت الاحـتـفـالات علـى النهـاية، والمحـــاربون يجنحـــون إلى النوم، بحث عنـي بوليـــويف فـــجلس بجانبي، وأخذ يشرب (الميد) من قدح قرني، ولم يكن سكراناً، كما لاحظت، وأخذ يتحدث بلسان الشماليين ببطء حتى أفهمه.

قال لي أولاً: «هل فهمت كلام قزم التنغول؟».

قتل: «نعم بمساعدة (هيرغر)».

= أي أقدار تكون حاضرة عند ميلاد كل رجل، وتقرر مسار حياته. وتسمى هذه (النورنات): (أورث) أي الماضي، و(فيرتاندي)، أي الحاضر، و(سكولد) وهو المستقبل. و(الورنات) تنسج قدر الإنسان، والنسج من عمل النساء. وهن يظهرن في الرسوم والصور الشعبية كفتيات. و(فيرد)، التي تحكم القرد هي الأخرى إلهة في معتقدات الأنجلو ساكسون.
والمعتقد أن اقتران المرأة بقدر الرجل هو استمرار لتصورات سابقة للنساء كرموز للخصوبة. فالإلاهات الخصوبة يتحكمن في نمو وازدهار الغلال والأشياء الحية على الأرض».
ويلاحظ (كانتريل) كذلك أننا عملياً، نعرف أن التنبؤ بالمستقبل، والإصابة بالسحر، وبعض الأعمال (الشامانية) (الدينية) هي من اختصاص العجائز في المجتمع الشمالي. وزيادة على ذلك، فهناك أفكار شعبية عن النساء تحمل عناصر كثيرة من الشك والارتياب. وحسب (هافا مال): «لا أحد يجب أن يصدق أقوال فتاة أو امرأة متزوجة؛ لأن قلوبهن مُشَكَّلَة على شاكلة عجلة تدور، فهن غير مستقرات بطبعهن».
ويقول (بنديكسون) إنه: «كان بين الإسكندينافيين الأوائل نوع من تقسيم السلط حسب الجنس، فالرجال يحكمون الظواهر المحسوسة، والنساء يتحكمن في البواطن والظواهر النفسانية، والغيبية».

وكان هيرغر نائماً يشخر بجانبنا في تلك اللحظة.

فقال: «إذن فأنت تعرف أنني سأموت».

قالها بعينين صافيتين ونظرة ثابتة، ولم أجد جواباً، ولا عرفت كيف أرد، لكن وأخيراً قلت له بلغة أهل الشمال:

«لا تصدق نبوءة حتى تؤتي أكلها»[1].

فقال بوليويف:

«لقد رأيت كثيراً من عاداتنا، فقل لي ما هي الحقيقة؟ هل ترسم يعني هل تعرف الكتابة؟.

وقلت نعم، فقال:

«إذَن احرص على سلامتك، ولا تتجاوز حدود الشجاعة. فأنت الآن تلبس وتتكلم كشمالي لا كأجنبي. فاحرص على أن تعيش».

---

(١) هذه صيغة أخرى لقولة شائعة بين أهل الشمال، ومعناها الكامل هو : «لا تحمد النهار حتى يأتي الليل، ولا المرأة حتى تحترق، ولا سيفاً حتى تجربه، ولا عذراء حتى تتزوج، ولا جليداً حتى تعبره، ولا جعة حتى تشربها».
هذه النظرة الحذرة، الواقعية والساخرة نوعاً إلى الطبع البشرى والعالم، كانت مشتركة بين العرب والإسكندينافيين. يعبر عنها العرب، مثل الإسكندينافيين، بأسلوب عادي أو قصصي فكاهي. فهناك قصة صوفية عن رجل سأل فقيهاً: «هَب أنني مسافر بالبادية وأردت الوضوء في غدير ماء، فإلى أي اتجاه أتوجه أثناء الوضوء؟، «فأجب الفقيه»: إلى حيث ملابسك حتى لا تسرق منك»!

ووضعت يدي على كتفه كما رأيت رجاله يفعلون تحية له. فتبسم وقال: «أنا لا أخاف من شيء، ولا أحتاج إلى عطف. وأقول لك أن تهتم بسلامتك من أجلك أنت. والآن الأفضل أن ننام».

واستدار بوجهه عني، وصب اهتمامه على جارية ليستمتع بها على بعد خطوات فقط من حيث كنت قاعداً، فوليت عنه وجهي وأنا أسمع تأوهات المرأة وضحكاتها، حتى غلبني النوم.

*****

كهوف الرعد

قبل انبلاج الفجر، ركب (بوليويف) وفرسانه، وأنا من بينهم ، وغادرنا مملكة (روثغار) سائرين على حافة الجرف المشرف على البحر.

لم أكن في تمام العافية في ذلك اليوم، فقد كنت أعاني من صداع في رأسي. وحموضة في معدتي من احتفالات الليلة السابقة. ولابد أن جميع فرسان (بوليويف) كانوا يحسون بنفس الإحساس، ولكن شيئاً من ذلك لم يظهر عليهم.

وأسرعنا المسير على حافة الجرف الساحلي الوعر، المرتفع جداً. والعمودي الانحدار والمكون من صخر رمادي ينتهي إلى موج البحر الراغي المزبد تحتنا.. وفي بعض الأماكن، على طول هذا الشاطئ، كانت توجد سواحل صخرية، ولكن غالباً ما كان البحر والأرض يلتقيان رأساً، وتتكسر الأمواج على الحائط الصخري كالرعود.

ورأيت (هيرغر) الذي كان يحمل على حصانه حبالاً من جلود الفقمة التي يصنعها الأقزام، وحثثتُ ركوبتي لأسير بجانبه. وسألته عن هدفنا هذا اليوم. وفي الحقيقة لم يعد يهمني ذلك كثيراً لِمَا كنت أعانيه من صداع وبشم.

قال لي (هيرغر):

«هذا الصباح سنهاجم أم (الفيندول) في كهوف الرعد. وسوف نهجم من البحر كما قلت لك البارحة».

ونظرت من فوق حصاني إلى البحر الذي كان يتكسر على صخور الجرف الشاهق وسألت:

«هل سنهجم بمركب؟».

فضرب بيده على حبال جلد الفقمة.

ففهمت منه أننا سننزل معلقين بالحبال على الجرف، ومن ثم سندخل الكهوف بطريقة ما. وفزعت جداً لما ينتظرني. فلم أكن أُحب أن أعلق بالأماكن العالية.

حتى المباني المرتفعة في مدينة السلام كنت أتجنبها، وقد قلت له ذلك.

فرد عليَّ (هيرغر).

«احمد الله، فأنت محظوظ».

فسألته عن سبب سعدي فأجاب:

«إذا كنت تخشى الأماكن المرتفعة فسوف تتغلب على خوفك اليوم. وستكون قد واجهت تحدياً كبيراً، وسيُحكم عليك بأنك بطل».

فقلت له:

«أنا لا أريد أن أكون بطلاً».

فأجاب ضاحكاً:

«أنت لا تقول هذا إلا لأنك عربي».

ثم أضاف: «ولأن لك رأساً صَلْباً» ويعني ذلك عند أهل الشمال الخُمار، أي وجع الرأس الذي يعقب السكر. وهذا صحيح، كما سبق أن قلت.

وصحيح كذلك أنني كنت منزعجاً من فكرة نزول الجرف معلقاً بحبل. وقد كان انزعاجي من الشدة بحيث كنت أفضل عمل أيَّ شيء على وجه الأرض، ولو كان ذلك أن أفقأ عينيَّ! وحتى الموت نفسه كنت أفضله على النزُول معلقاً من الجرف!

وكان مزاجي منحرفاً، فقلت (لهيرغر):

«أنت وبوليويف، ورفاقكم جميعاً يمكنكم أن تكونوا أبطالاً كما يحلو لكم، ولكن لا دخل لي أنا في هذا الشأن، ولن أكون واحداً منكم».

وضحك (هيرغر) من كلامي، ثم نادى (بوليويف)، وكلمه بسرعة، فأجابه (بوليويف) من فوق كتفه. فقال لي (هيرغر).

«بوليويف يقول إنك ستفعل ما نفعل».

وغرقت في اليأس، وقلت (لهيرغر):

«لا أستطيع عمل هذا. وإذا أرغمتموني عليه فسأموت بكل تأكيد!».

فقال (هيرغر):

«كيف ستموت؟».

فقلت: «ستفلت الحبال من قبضتي».

فضحك (هيرغر) بشدة لجوابي وأعاد ما قلته على رفاقه فضحكوا جميعاً على ما قلت. وعندئذ نطق (بوليويف) بكلمات، فقال لي (هيرغر):

«يقول لك (بوليويف) إن الحبل سيُفلِتُ من قبضتك فقط إذا فتحت يديك ولا يفعل ذلك إلا أحمق. ويقول بوليويف، إنك عربي، ولكنك لست أحمق».

وهنا يبدو جانب حقيقي من طبائع الرجال: فقد قال بوليويف بطريقته إنني استطيع التعلق بالحبال، وقد صدقت أنا كلامه بقدر تصديقه له، وأحسست في قلبي بشيء من الاغتباط.

ولاحظ ذلك (هيرغر) فقال:

كل شخص يحمل نوعاً من الخوف خاصاً به. فهناك رجل يخاف الأماكن العالية، وآخر يخشى الغرق، وكلاهما يضحك من الآخر، ويدعوه بالمغفل. ولكلٍّ خوفه المفضل. مثل تفضيل امرأة على أخرى. أو الخروف على الخنزير، أو الكرمب على البصل. ونحن نقول الخوف خوف.

ولم يكن مزاجي مستعداً لفلسفته. وقد عبرت له عن ذلك. ففي الحقيقة كنت أقرب إلى الغضب مني إلىّ الخوف، فضحك (هيرغر) في وجهي وقال:

- احمد الله الذي جعل الموت في نهاية الحياة، وليس في مقدمتها.

فأجبت بجفاف بأنني لا أرى فائدة من التعجيل بالنهاية. فأجاب (هيرغر):

- حقيقة.. ولا أحد يفعل ذلك.

ثم قال:

- انظر إلى (بوليويف) أترى كيف يمتطي صهوة جواده مستقيماً، وكيف يتقدم إلى الأمام، رغم إنه يعرف أنه سيموت قريباً.

فأجبت:

ـ أنا لا أعرف أنه سيموت.

فقال (هيرغر):

ـ نعم .. ولكن (بوليويف) يعرف.

ولم يحدثني بشيء بعد ذلك.

وسرنا مدة طويلة حتى توسطت الشمس السماء. وأخيراً أعطى (بوليويف) الإشارة بالوقوف وعند ذلك ترجل جميع الفرسان، وأخذوا يستعدون لدخول كهوف الرعد.

وكنت أعرف أن هؤلاء الشماليين شجعاناً لحد الطيش. ولكن عندما نظرت إلى هاوية الجرف تحتنا التوى قلبي داخل صدري، وأحسست أنني على وشك إفراغ ما في جوفي في أي لحظة. فقد كان الجرف منحدراً بشكل عمودي، وخال تماماً من كل مقبض لليد أو القدم، وينزل مسافة حوالي المائة خطوة. وكانت الأمواج المتكسرة تحتنا من البعد بحيث كانت تبدو صغيرة جداً كرسم دقيق. ولكنني كنت أعرف أنها كبيرة كأي موج على الأرض، حين ينزل المرء إلى مستواها.

وكان النزول إلى هذه الهاوية، في نظري، جنوناً تعدى جنون أي كلب مسعور. ولكن الشماليين كانوا يزاولون عملهم بطريقة عادية. كان بوليويف يوجه أعمال دق الأوتاد الخشبية القوية في

الأرض، وحولها ربطت حبال جلد الفقمة، ورميت أطرافها من فوق حافة الجرف.

واكتشفنا أن الحبال كانت أقصر من مسافة الجرف، فكان لابد من سحبها مرة أخرى وإضافة حبلين آخرين إليها لتصل إلى القعر.

وحين انتهينا من ذلك، كان لنا حبلان يتدليان على وجه المنحدر. وعندئذ خاطب (بوليويف) جماعته قائلاً:

- سأنزل أنا الأول، حتى إذا بلغت الأرض سيعرف الجميع أن الحبال متينة وأن الرحلة يمكن إتمامها. وسأنتظركم على الحافة الضيقة التي ترونها تحت.

ونظرت إلى هذه الحافة الضيقة فوجدت أن وصفها بضيقة مثل وصف الجمل بالطيبة. فقد كانت في الواقع مجرد شريط من الصخر الأملس ينكسر عليه الموج ويغطيه باستمرار.

وقال بوليويف:

- وحين نصل جميعاً إلى القعر، سنهاجم أم (الفيندول) في كهوف الرعد. كان يتكلم بصوت عادي كما لو كان يأمر أمَةً بطبخ أكلة عادية، أو بالقيام بأي عمل منزلي. ودون أن يزيد على ذلك شيئاً ذهب إلى حافة الجرف.

وهذه هي الطريقة التي نزل بها والتي أثارت إعجابي. ولكن الشماليين اعتبروها شيئاً عادياً. فقد قال لي (هيرغر) إنهم يستعملون هذه الطريقة لجمع بيض طيور البحر في بعض أوقات السنة، حين تبني الطيور أعشاشها على وجه الجرف. وهذه هي الطريقة: يربط الهابط من خصره بمقلاع، ويدليه الجميع على جانب الجرف، بينما هو ممسك بالحبل الثاني المدلى إلى جانبه. وبالإضافة إلى ذلك يحمل الهابط عموداً قوياً من خشب الأرز، مزوداً في نهايته بسير أو حزام جلدي ليربطه على رسغه ليستعمله في التحرك يمنة ويسرة أثناء هبوطه على وجه الحائط الصخري[1].

وبينما كان (بوليويف) يهبط، ويبدو لعيني أصغر فأصغر، رأيت أنه يستعمل الحبل والسير والعصا بمهارة، ولم أنخدع وأعتقد أن ذلك عمل هين. فقد رأيت أنه صعب ويحتاج إلى تدريب.

وفي النهاية وصل إلى القعر ووقف على الحافة الضيقة، والموج يتكسر عليه. وفي الحقيقة صار صغير الحجم بحيث كنا نراه بصعوبة وهو يلوح لنا بيده مشيراً إلى أنه وصل سالماً. وسحبنا المقلاع ومعه عصا الأرز. والتفت (هيرغر) إليَّ قائلاً:

(١) في جزر (الفايرو) بالدانمرك ما تزال طريقة مشابهة لهذه تستعمل لجمع بيض الطيور التي تعتبر مصدراً هاماً لغذاء سكان الجزر.

ـ ستنزل أنت بعده.

فقلت: إنني أحس بضعف، وإنني أود أن أرى رجلاً آخر ينزل حتى أدرس جيداً طريقة النزول.

فقال:

ـ إن الأمر أصعب مع كل هبوط؛ لأنه كلَّما نزل واحد نقص عدد الأفراد الذين سينزلونك، فالرجل الأخير سينزل بلا مقلاع بالمرة، وسيكون ذلك هو «إكثغُو» لأنَّ ذارعيه من حديد. ونزولك الآن هو علامة إكرام منا لك.

وفي عينيه رأيت أنه لا أمل في التأخير. فوضعت في المقلاع، وأمسكت بالعصا في يدي اللتين كانتا تَنزلقان من العرق، كما كان جسدي بأجمعه يتصبب عرقاً، وكنت أرتعش في مهب الريح وأنا أتخطى حافة الجرف. وكانت تلك آخر مرة رأيت فيها الإسكندينافيين الخمسة وهم يمسكون بقوة بالحبل، وقبل أن يختفوا عن نظري. وفي النهاية وصلت.

وخطر ببالي أن أتوجه إلى الله بالدعاء الكثير، وأن أسجل في عين عقلي، وذاكرتي التجارب العديدة التي يمر بها الإنسان وهو معلق بالحبال على جانب هذا الجرف الصخري في مهب الرياح. ولكن حين غاب عني أصدقائي الإسكندينافيون الذين

كانوا يدلونني من فوق نسيت كل ذلك وطفقت أهمس «الحمد لله» عدة مرات كالخارج عن عقله، أو كالعجوز البالغ أرذل العمر الذي كف دماغه عن التفكير ، أو كطفل أو أحمق.

وفي الواقع لا أذكر كثيراً مما حدث ولم يعلق بذهني غير هذا: وهو أن الريح يعصف بالفرد يمنة ويسرة بسرعة تعجز معها العين على التركيز على حائط الجرف الذي كان عبارة عن ضباب رمادي، وإنني ارتطمت بالحائط عدة مرات جارحاً عظامي وسالخاً جلدي، ومرة صدمت رأسي فرأيت نقطاً بيضاء تلمع كالنجوم أمام عيني، وظننت أنني سيغمي عليَّ، ولكن ذلك لم يقع. وبعد مدة بدت لي كأنها عمري بكامله وأكثر! وأخيراً وصلت إلى القعر فضربني (بوليويف) بيده على كتفي وقال لي إنني عملت جيداً.

وارتفع المقلاع، وانكسرت الأمواج عليَّ وعلى (بوليويف) بجانبي، وكافحت من أجل حفظ توازني على هذه الحافة الزلاقة، واستولى هذا على اهتمامي لدرجة أنني لم أشاهد الآخرين وهم ينزلون. فقد كان هدفي الوحيد ألا انجرف إلى البحر. وقد رأيت أمواجاً أعلى من قامات ثلاثة رجال يقف الواحد منهم على كتف الآخر. وحين كانت تتكسر الموجة كنت أقف دون إحساس داخل دوامة قوية من الماء المثلج.

وصرعتني الأمواج عدة مرات، وابتل جسدي بكامله، وصرت ارتعد بعنف لدرجة أن أسناني كانت تقضقض كوقع حوافر فرس يركض.

ونزل مقاتلو (بوليويف) جميعاً سالمين، وكان آخرهم (اكثغو) الذي استعمل قوة ذراعيه الحديديتين. وحين وصل إلى الأرض أخذت ركبتاه ترتعدان بشدة دون أن يستطيع السيطرة عليهما وكأنه رجل يحتضر. فانتظرنا قليلاً حتى عاد إليه هدوؤه.

وحين تكلم بوليويف:

ـ سننزل إلى الماء ونسبح داخل الكهف. سأكون الأول. احملوا حناجركم بين أسنانكم حتى تبقى سواعدكم طليقة لمكافحة التيار.

ونزلت على سمعي هذه الكلمات الجنونية الجديدة في وقت لم أعد أستطيع فيه احتمال شيء أكثر! في نظري كانت خطة (بوليويف) حماقة ما بعدها حماقة.

ورأيت الأمواج تتسحق وتتفجر على الصخور المسنَّنة، ورأيتها ترتد في قوة عملاق لتستجمع قوتها وتندفع إلى الأمام من جديد.. نظرت إليها موقناً أنه لا أحد يستطيع السبح في ذلك الخضم دون أن يسحقه ويحيله إلى فتات من العظم في الحال.

ولكنني لم أحاول الاحتجاج، فلم أعد أدرك أي شيء. فقد كنت، في نظري، أقرب إلى الموت بحيث لم يعد يهمني أن أقترب

منه أكثر. فأخذت خنجري، وأدخلته في حزامي، لأن أسناني كانت تصطك بشدة بحيث استحال عليَّ الإمساك به في فمي.

أما رفقائي الإسكندينافيون فلم يظهروا أية علامة على البرد أو التعب، بل كانوا يستقبلون كل موجة كمنشط جديد، وكانوا إلى جانب ذلك يبتسمون سعداء في توقع للمعركة القادمة، وقد كرهتهم من أجل ذلك!

وانتظر (بوليويف)، وهو يراقب الموج ويختار الوقت المناسب، ثم وثب وسط الموج.. وترددت أنا ولكن أحداً ـ وأعتقد أنه (هيرغر) ـ دفعني فغطست إلى قعر دوامة البحر المخدر من شدة البرودة. وغزلتني الدوامة رأساً على عقب. ولم أكن أرى غير الماء الأخضر. وبعد ذلك رأيت (بوليويف) يسبح تحت الماء فتبعته، ودخل في شبه ممر بين الصخور، ففعلت مثله وهذه طريقته:

كان الموج يجذبه إلى الوراء بقوة محاولاً إخراجه إلى عرض البحر، وكذلك أنا، حينئذ كان (بوليويف) بقبض بشدة على صخرة حتى لا يجرفه التيار وكنت أنا أفعل مثله. وكانت رئتاي توشكان على الانفجار وأنا أمسك بالصخر بقوة. وبعد لحظة كان يندفع الموج فيرمي بنا إلى الأمام بسرعة مفزعة، فنرتطم بالصخور والحواجز، ويرتد الماء فننجذب معه إلى الوراء كما فعل أول مرة، فكنت أفعل مثل (بوليويف) وأتمسك بالصخر.

وأحسست برئتي تحترقان كأنهما على النار، وأيقنت أنني لن أستطيع الاستمرار مدة أطول في هذا الماء المثلج.

واندفع البحر فرمي بي إلى الأمام، وأنا اصطدم هنا وهناك، حتى وجدت نفسي فجأة فوق الماء أتنفس الهواء.

وقد وقع هذا بسرعة كبيرة، وفوجئت لدرجة أنني لم أشعر بالراحة التي كان ينبغي أن أحس بها، ولا فكرت في أن أحمد الله على حسن طالعي ونجاتي. وتنفست بقوة، وحولي رؤوس مقاتلي (بوليويف) فوق سطح الماء يفعلون الشيء نفسه.

ووجدنا أنفسنا في شبه بركة أو بحيرة داخل كهف سقفه قبة من صخر أملس، وله مدخل من البحر هو الذي دخلنا منه. وأمامنا مباشرة كانت أرض صخرية مسطحة. ورأيت ثلاثة أو أربعة أحجام قاتمة مقعية حول نار تتغنى بأصوات عالية.

وفهمت لماذا سُمِّي المكان بكهف الرعد، فقد كان يهتز مع اصطدام كل موجة ويحدث صوتاً رعديا يوجع الآذان، ويبدو أن الهواء نفسه يمتد ويُضغط.

وفي هذا الكهف هجم بوليويف وأصحابه، وانضممت أنا إليهم، فقتلنا الشياطين الأربعة بخناجرنا القصيرة. ورأيتهم بوضوح لأول مرة، في ضوء النار التي كان لهيبها يعلو ويستشيط

مع كل ارتطام للأمواج. أما شكل الشياطين فكان شبيهاً بشكل الإنسان في كل شيء، ولكن ليس كأي إنسان على وجه الأرض. فقد كانوا قصاراً، عراضاً، مقوسين، يكسو الشعر جميع أطرافهم ما عدا أكفهم وأخامص أقدامهم، ووجوههم. وكانت وجوههم وأفواههم وفكوكهم كبيرة وبارزة وبشعة المظهر كذلك أكبر من رؤوس الإنسان العادي، وكانت عيونهم غائرة في رؤوسهم، وحواجبهم كانت كبيرة، وليس لكثافة الشعر، بل لضخامة العظم. وكانت أسنانهم كبيرة وحادة، رغم أن أسنان بعضهم كانت مسطحة من التآكل.

أما في بقية الملامح الجسمانية الأخرى، مثل الأعضاء التناسلية، والمخارج، فكانوا يشبهون البشر. وسمعت من أحد تلك المخلوقات، وهو يحتضر، أصواتاً تشبه الكلام، ولكنني لا أستطيع تأكيد ذلك، فأرويه كما سمعته. ووقف بوليويف ينظر إلى المخلوقات الأربعة الميتة بجلودها الفروية الكثة. وبينما نحن كذلك إذ سمعنا ترتيلاً كأناشيد الجن يتردد صداه، فيرتفع وينخفض مع أصوات الرعد الآتي من ارتطام الموج بالصخر. وكان الصوت يأتي من داخل الكهف فقادنا بوليويف نحوه.

وأتينا على ثلاثة من تلك المخلوقات، وهم منبطحون على الأرض، ووجوههم ملتصفة بالتراب، وقد رفعوا أيديهم في

استعطاف لمخلوقة عجوز كامنة خلف الظلال.. كانوا يرتلون الأناشيد فلم يشعروا بوصولنا. ولكن العجوز رأتنا وأطلقت صرخات بشعة لاقترابنا. وقلت لابد أن تكون العجوز هي أم (الفيندول)، ولكن إذا كانت امرأة فلم أر عليها علامة للأنوثة، فقد كانت من الكبر بحيث يصعب تمييز جنسها.

ووقع بوليويف وحده في عُبَّادها الأربعة فقتلهم جميعاً، بينما انسحبت الأم العجوز إلى داخل الظلال وهي تصرخ صراخاً فظيعاً. ولم أكن أراها جيداً. ولكني استطعت أن أرى أنها كانت محاطة بالأفاعي التي كانت ملتوية عند قدميها، وحول يديها، وعنقها، هذه الأفاعي بدأت تهس وتحرك ألسنتها، وبما أنها كانت تحيط بالعجوز من كل جانب حول جسدها، وعلى الأرض، لم يجرؤ أحد من مقاتلي بوليويف على الاقتراب منها.

وعند ذلك هاجمها بوليويف، فأطلقت صرخة مخيفة حين غرس خنجره في صدرها غير عابئ بالأفاعي. وطعنها عدة مرات فلم تسقط، بل ظلت واقفة، رغم أن الدم كان ينزف منها كأنما يفور من نافورة، وطول الوقت كانت تصرخ صرخاتها المرعبة.

وفي النهاية انهارت وسقطت ميتة، فدار بوليويف وواجه رجاله، عند ذلك رأينا أن هذه المرأة، أم الفيندول، أكلة الأموات، قد جرحته. كان دبوس فضي كالذي يستعمل للشعر، مغروساً في

بطنه، وكان الدبوس يرتعش مع كل نبضة من نبضات قلبه. ونزعه بوليويف فتدفق الدم من الجرح. ولكنه لم يسقط من الضعف، بل وقف وأعطى الأمر بمغادرة الكهف.

وخرجنا من المدخل المواجه للبر. وكان محروساً، ولكن جميع الفيندول هربوا عند سماع صراخ أمهم وهي تموت.

وغادرنا المكان دون مضايقة. وقادنا بوليويف من الكهوف إلى حيث كانت خيلنا، وهناك فقط انهار على الأرض.

وأشرف (إيكثغو) على صنع محفة لحمل بوليويف عبر الحقول إلى مملكة (روثغار) وقد بدا على وجهه حزن غير معروف بين الشماليين، وطول المدة كان المرح يبدو على بوليويف. ولم أفهم كثيراً من أقواله. ولكنني سمعته مرة يقول:

«لن يسر (روثغار) لرؤيتنا؛ لأن عليه أن يقيم مأدبة لنا، وقد أصبح الآن خاوي الوفاض تقريباً».

وضحك المحاربون لهذا، ولأقوال أخرى صدرت عن بوليويف. ولاحظت أن ضحكهم كان من القلب.

وعند وصولنا إلى مملكة (روثغار) استقبلنا الناس بالحماس والهتاف، ودون حزن، رغم أن بوليويف كان مصاباً بجرح خطير، وكان بدنه يتلون بلون الرماد، وقد أخذ يرتعش، ولمع في عينيه بريق رجل مريض محموم.

وأدركت معنى هذه العلامات، وكذلك كل أهل الشمال.

وجيء إليه بزلفة شربة بصل فرفضها قائلاً:

«إنني مصاب بداء الشربة، فلا تتعبوا نفوسكم من أجلي».

وأمر بالاحتفال، وأصر على أن يترأسه بنفسه، وهو مسند في جلسته على أريكة صخرية إلى جانب الملك (روثغار) يشرب (الميد) ويمرح.

وكنت قريباً منه حين قال للملك (روثغار) في خضم الاحتفال :

« ليس لي عبيد ».

فقال (روثغار): «كل عبيدي عبيدك».

فقال بوليويف: «وليس لي خيل».

فرد روثغار: «كل خيلي لك، فلا تشغل بالك أكثر بهذه الأمور».

وظهرت السعادة على بوليويف الذي كانت جراحه قد ضمدت، وعاد اللون إلى خديه ذلك المساء، وبدا وكأنه يزيد قوة مع كل دقيقة تمر من تلك الليلة. ورغم أنني ما كنت أظن ذلك ممكناً، فقد استمتع بوليويف بإحدى الجواري، وقال لي بعد ذلك:

«لا نفع لأحد في رجل ميت».

ونام بوليويف، فزاد لونه شحوباً، وزاد تنفسه ضحالة. وخشيت ألا يستيقظ من منامه. وربما كان هو نفسه فكر في ذلك، فقد نام ممسكاً بسيفه بقوة.

احتضار الفيندول

ونمت أنا كذلك.

وأيقظني (هيرغر) بهذه الكلمات:

«تعال بسرعة»

وسمعت هدير الرعد عن بعد. ونظرت إلى نافذة المتانة[1] فرأيت أن الفجر لم يكن قد طلع بعد. ولكنني حملت سيفي، وفي الحقيقة كنت قد نمت في درعي ولم أهتم بخلعها. وأسرعت إلى الخارج. كان الوقت سَحَراً، والجو مثقلاً بالضباب يدوي فيه رعد كركض الخيل الآتية من بعيد.

وقال لي (هيرغر): «الفيندول قادمون، إنهم يعرفون عن جرح بوليويف القاتل ويريدون الانتقام الأخير لمقتل أُمهم».

وأخذ كل محاربي بوليويف أماكنهم، وأنا معهم وراء التحصينات التي كنا أقمنا ضد الفيندول. هذه التحصينات كانت ضعيفة، ولكن لم يكن لنا غيرها.

---

(١) FENSTRA PORCUS وتعني حرفياً «نافذة الخنزير». وكان الشماليون يغطون نوافذهم بجلود يمطونها عليها بدل الزجاج، وهي ليست شفافة، ولكنها تدخل الضوء.

ووقفنا نحدِّق في الضباب لعلنا نلمح الفرسان الهابطين علينا. وتوقعت أن أخاف خوفاً شديداً، ولكنني لم أشعر به، لأنني كنت قد رأيت شكل الفيندول، وعرفت أنهم مخلوقات إذا لم تكن بشراً، فهي شبيهة بهم شبه القرود بالآدميين، وأنهم يموتون.

لذلك لم أشعر بخوف، بل كنت انتظر هذه المعركة الأخيرة.

وكنت أنا وحدي في هذه الحالة؛ لأنني رأيت أن رجال بوليويف يعانون من خوف شديد رغم محاولتهم المضنية لإخفائه. وصحيح أنه لمّا قتلنا أم الفيندول التي كانت قائدتهم، فإننا كذلك فقدنا بوليويف الذي كان قائدنا فلم يكن هناك مرح ونحن ننتظر ونسمع الرعد يقترب.

وسمعت ضجة خلفي، فالتفت فإذا بوليويف، شاحباً كالضباب، متشحاً بالبياض موثقاً بجروحه يقف مستقيماً فوق أرض مملكة (روثغار)، وعلى كتفيه غرابان أسودان.

وصرخ الشماليون لمنظره هذا، وفرحوا لمقدمه، ورفعوا أسلحتهم في الهواء وصاحوا شوقاً للمعركة[1].

---

(١) هذا الجزء من المخطوط تم جمعه من مخطوط (الرازي) الذي كان اهتمامه ينصب أساساً على الخطط العسكرية. ولا يُعرف ما إذا كان ابن فضلان عرف معنى ظهور بوليو يف أو سجَّله أم لا، (فالرازي) لم يورده في =

ولم يتكلم بوليويف بالمرة، ولا نظر إلى جانب أو آخر، ولا ظهرت عليه علائم التعرف على أحد، بل تقدم بخطوات محسوبة إلى الأمام وتخطى خط الدفاع، وهناك وقف ينتظر اقتحام الفيندول. وعند الهجوم طار الغرابان، وأمسك بوليويف بسيفه (روندينغ) واعترض الاقتحام.

ولا تُوجد كلمات تستطيع وصف هجوم الفيندول في ضباب ذلك الفجر، ولا كم فارس وحصان قتلوا بعد أن ذاقوا أشد العذاب.

وقد شاهدت بعيني (ايكثغو) بسلاحه الفولاذي، وقد أطار أحد سيوف الفيندول رأسه فتدحرج على الأرض مثل لُعبة، ولسانه ما يزال يرتعش في فمه.

= مخطوطه، رغم أن المعنى ظاهر للعيان. ففي الأساطير الشمالية يظهر الإله (أودين) حاملاً غراباً على كل كتف. وهذه الطيور تأتيه بجميع أخبار العالم. وكان (أودين) الإله الأكبر في معبد الشماليين ويعتبر أب الكون وكان يحكم ويدير شؤون الحرب خاصة، ويعتقد أنه يظهر بين الناس من حين لآخر، ولكن نادراً ما كان يظهر في شكله الإلهي، مفضلاً مظهر عابر سبيل بسيط، ولكن يُقال أن العدو يفر لمجرد حضوره. ومن الجدير بالذكر، أن هناك قصة يقتل فيها (أودين) ثم يبعث بعد تسعة أيام، وأغلب الباحثين يعتقدون أن هذه الفكرة وجدت قبل التأثير المسيحي. وعلى أي حال فإن أودين المبعوث ليس خالداً، ويعتقد أنه سيموت في يوم من الأيام.

ورأيت كذلك رمحاً يخترق صدر (رونيط) ويثبته في الأرض فيضطرب كسمكة أخرجت من الماء.

ورأيت طفلة يدوسها حصان بحوافره فيسحقها على الأرض والدم يجري من أذنيها.

ورأيت امـرأة من جـواري الملك (روثغـار) تشطر نصـفين متساويين، وهي تحاول الفرار من فارس يطاردها.

ورأيت كذلك عدداً من الأطفال يقتلون بالطريقة نفسها.

ورأيت الخيل ترمي بركابها فيجتمع عليهم عجزة الرجال والنساء، فيذبحونهم وهم مستلقون على ظهورهم ذاهلين.

ورأيت كذلك (ويغليف)، ابن (روثغار) يفر من حر المعمعة ويختفي في جبن طالباً السلامة، أما الحاجب فلم أره ذلك اليوم.

أما أنا، فقتلت ثلاثة من الفيندول.. وأصبت بجرح في ذراعي فكان ألمه كلهـيب النار، وَغَلى دمي على طول ذراعي وداخل صدري، وظننت أني لا محالة سأنهار، ومع ذلك تابعت القتال.

وأشرقت الشمس من خلال الضباب، وأنبلج الصباح، وأنقشع الضباب، فاختفى فرسان الفيندول.

وفي ضوء النهر رأيت جثثاً في كل مكان، وبينها عدد من جثث الفيندول لأنهم لم يأخذوا قتلاهم.

وكانت هذه حقاً علامة على نهايتهم، فقد تفرقوا في فوضى، وما عادوا يستطيعون مهاجمة (روثغار)، وقد علم بذلك أهل مملكة (روثغار)، وفرحوا له.

وغسل (هيرغر) جرحي، وكان بادي الانشراح، إلى أن حملوا جثة بوليويف إلى داخل قاعة (روثغار) الكبرى. كان بوليويف ميتاً عدة مرات: فقد كان جسده مشذوخاً ومقطعاً في عدة أماكن بعدد من سيوف العدو، ووجهه وبقية أطرافه عائمة في دمه الذي كان ما يزال ساخناً. وحين رأى هيرغر ذلك المنظر انفجر باكياً، وأشاح بوجهه عني، ولم يكن في حاجة إلى ذلك، فقد اغرورقت عيناي أنا كذلك.

ووضع جسد بوليويف أمام الملك روثغار الذي كان عليه أن يلقي خطاباً ولكن الملك الهرم لم يستطع أن يلقي الخطاب، واكتفى بقوله:

«ها هو ذا مقاتل، وبطل جدير بالآلهة، فادفنوه كملك عظيم».

ثم غادر القاعة..

وفي اعتقادي أنه كان خجلان لأنه لم يشارك في المعركة.

وكذلك ابنه (ويغليف)، هرب كأي جبان ورآه الكثيرون، ووصفوا عمله بأنه من أعمال النساء. وهذا كذلك قد يكون أخجل الأب. وربما كان هناك سبب لا أعرفه. ففي الحقيقة كان الملك رجلاً هرماً.

وبعد ذلك همس (و يغليف) للحاجب قائلاً:

«لقد قدم لنا بوليويف هذا خدمة كبيرة، وأعظمها موته بعد إتمامها».

قال ذلك عندما غادر أبوه القاعة. وسمعه (هيرغر) كذلك، وكنت أنا أول من امتشق سيفه، فقال لي هيرغر:

«لا تقاتل هذا الرجل، فهو ثعلب، وأنت جريح..».

فقلت: «ومن يهتم لذلك».

وتحديت (و يغليف) في عين المكان للمبارزة، وأخرج (ويغليف) سيفه.

وفاجأني (هيرغر) من الخلف بركلة قوية، أو دفعة أوقعتني على الأرض منبطحاً على وجهي، واشتبك هو مع (ويغليف) في معركة.

واستل الحاجب سلاحه، وتسلل بحذر ليقف خلف هيرغر ويطعنه من الخلف، ولكنني عاجلته بطعنة عميقة بسيف في بطنه، فصرخ صرخة عظيمة، وهوى إلى الأرض قتيلاً.

وسمع (و يغليف) ذلك، ورغم أنه حارب من قبل دون خَوف، فقد ظهر عليه خوف شديد في قتاله مع (هيرغر).

وحدث أن سمع الملك (روثغار) بخبر المعركة، فعاد إلى القاعة، ورجاهما إيقاف القتال، ولكن دون جدوى. فقد كان (هيرغر) مصمماً على رأيه. ووقف منفرج الساقين قرب جثة بوليويف يلوح بسيفه فضرب (ويغليف)، وذَبَحهُ، وسقط هذا على مائدة الملك، وأمسك بقدحه، وأدناه من شفتيه، ولكنه مات دون أن يشرب.

وهكذا انتهى الأمر.

ولم يبق حينئذ من جماعة بوليويف التي كان عددها ثلاثة عشر إلاَّ أربعة وأخرجنا جسد بوليويف ووضعناه تحت سقف خشبي، وتركناه هناك وفي يده قدح من الميد.

وهناك قال هيرغر للمجتمعين:

«من سيموت مع هذا الرجل النبيل؟».

فتقدمت امرأة، جارية من جواري الملك (روثغار)، وقالت: إنها ستموت مع بوليويف.

وعندها جرت الاستعدادات المتبعة عند الشماليين.

دفن بوليويف

(رغم أن ابن فضلان لا يعين كم مضى من الوقت، فلابد أن بضعة أيام مرت قبل حفل الجنازة).

وأُعدت سفينة على الشاطئ تحت قصر (روثغار)، ووضعت فيها كنوز من ذهب وفضة، وهَيكَلاَ حصانين، كذلك، وأقيمت خيمة وضع بداخلها بوليويف الذي كان جسده قد تخشب بعد موته. وكان جسده في لون الموت الأسود في ذلك الطقس البارد.

وبعد ذلك أُعطيت الجارية لكل من محاربي بوليويف، ولي كذلك، وتعرفت عليها معرفة بدنية، فقالت لي:

«مولاي يشكرك».

«كانت ملامحها وتصرفاتها تشع المرح والسرور الزائد على ما يظهره هؤلاء الناس عادة من بهجة وحبور. وعندما كانت تلبس ملابسها التي كان من بينها حلي جميلة من الذهب والفضة، قلت لها:

«إنك مسرورة».

وكنت أعني أنها فتاة جميلة وشابة، ولكنها ستموت قريباً، وكانت تعرف ذلك معرفتي إياه.

فقالت لي:

«أنا مسرورة لأنني سأرى مولاي قريباً».

ولم تكن في الحقيقية قد شربت (ميداً)، بل كانت تنطق بمكنون صدرها. فقد كان محياها مُنشَرِحاً كوجه طفل سعيد، أو امرأة حامل. فقد كانت تلك طبيعة الأشياء عندهم.

وعند ذلك قلت لها:

«قولي لمولاك، حين ترينه، إنني عشتُ لأكتب».

ولا أدري هل فهمت هذه الكلمات، فقلت:

«تلك كانت رغبة مولاك».

فقالت بسرور عظيم:

«إذن سأقول له».

ثم تابعت طريقها إلى المحارب التالي، ولا أدري هل فهمت معنى ما قلت لها، فأقرب شيء إلى الكتابة عند هؤلاء الشماليين هو الحفر على الخشب أو الحجر الذي يمارسونه في بعض الأحيان، إلى جانب أن نطقي باللغة الشمالية لم يكن واضحاً. ومع ذلك فقد كانت مسرورة، وتابعت طريقها.

وفي المساء، والشمس تغرب في البحر، أعدت سفينة بوليويف على الشاطئ واقتيدت الفتاة إلى خيمة السفينة، وجاءت

القهرمانة العجوز التي تدعى ملك الموت فأدخلت الخنجَرَ بَينَ أضلعها، بينما أنا وهيرغر نُمسك بالحبل الذي خنقها. ثم أجلسناها بجانب بوليويف، وخرجنا.

ولم أكن قد أكلت ولا شربت شيئاً طوال هذا اليوم، فقد كنت أعلم أنني سأشارك في هذه الأعمال، ولم أكن أرغب في أن أعاني من حرج القيء أمام الناس. ولكنني لم أشعر باشمئزاز، أو غثيان من أعمال ذلك اليوم، ولم أُحس بالضعف، أو الدوار وكنت فخوراً بذلك في سري، وكذلك لأن الفتاة في لحظة موتها ابتسمت. وبقيت الابتسامة مرتسمة على وجهها الشاحب بعد ذلك وهي جالسة بجانب سيدها.

وكان وجه بوليويف أسود، وعيناه مقفلتين، ولكن الهدوء كان يخيم على وجهه وهذا آخر ما شاهدت من هذين الشماليين.

وأُشعلت النار في سفينة بوليويف، ودُفعت إلى داخل البحر، ووقف الإسكندينافيون على الصخور يبتهلون ويتضرعون لآلهتهم. وشاهدت بعيني السفينة والتيار يحملها كمحرقة ملتهبة حتى اختفت عن الأنظار، وغطى الظلام أراضي الشمال.

*****

العودة من أرض الشمال

وقضيت بضعة أسابيع أخرى في صحبة المحاربين والنبلاء بمملكة (روثغار) وكان هذا وقتاً طيباً لدماثة أخلاق الناس، وحسن ضيافتهم، وعنايتهم الفائقة بجروحي التي اندملت جيداً، والحمد لله.

ولكنني أحسست بالشوق إلى العودة إلى وطني، فأطلعت الملك (روثغار) على أنني رسول لخليفة بغداد، ولابد أن أنجِزَ المهمة التي بعثني فيها، أو يحل بي غضبه.

ولم يهتم الملك روثغار لشيء من ذلك، وقال لي بأنني مقاتل نبيل، وأنه يرغب في بقائي بأرضه وأعيش حياة المحارب المكرم. وقال لي إنني سأبقى صديقه إلى الأبد، وإنه سيهبني كل ما يستطيع مما أتمنى. ومع ذلك لم يدعني أذهب، تذرع بجميع الأعذار والمبررات لتأخير عودتي، فقال: إنه عليَّ أن أُعالج جروحي، رغم أن هذه كانت قد اندملت، وقال: إن عليَّ أن أسترجع قواي، وكان واضحاً أنني استعدتها.

وأخيراً قال لي: إن عليَّ أن أنتظر تجهيز سفينة. ولم يكن ذلك صعباً. وحين سألت عن مدة تجهيز السفينة، أجاب جواباً غامضاً، وكأن ذلك لا يهمه كثيراً.

وعندما كنت أضغط عليه لأرحل كان يضيق بي ذرعاً، ويسأل عما إذا كنت غير راض عن ضيافته، وكنت مضطراً للإجابة على ذلك بالثناء على لطفه بجميع تعابير الرضا. وبدأت أدرك أن الملك لم يكن أحمق بالقدر الذي تصورت من قبل.

وذهبت إلى هيرغر لأحكي له عن محنتي، وقلت له:

«هذا الملك ليس بالأحمق الذي كنت أظنه».

فرد هيرغر:

«أنت مخطئ، فهو أحمق، ولا يتصرف بمنطق».

وقال لي إنه سيرتب مسألة رحيلي مع الملك.

وهكذا تم الأمر: طلب هيرغر مقابلة الملك على انفراد، وقال له بأنه ملك حكيم وعظيم، وإن رعيته تحبه وتحترمه لحسن قيامه بشؤون المملكة، ومصالح الناس.

وألان هذا الثناء قلب الملك العجوز. فأضاف هيرغر بأن الباقي على قيد الحياة من أبناء الملك الخمسة هو (و ولفغار) الذي كان ذهب رسولاً إلى بوليويف، وبقي هناك بعيداً. واقترح هيرغر أن يدعى (و ولفغار) للعودة إلى المملكة، وأن ترتب فرقة لهذا الغرض؛ لأنه لم يكن للملك وريث غير (و ولفغار).

قال هذا للملك، وتكلم كذلك على انفراد مع الملكة (وايليو) التي كان لها تأثير كبير على زوجها.

وذات مساء وأثناء مأدبة عشاء نادى الملك (روثغار) بتجهيز سفينة ببحارتها لرحلة لإرجاع (و ولفغار) إلى مملكته. والتمست الانضمام إلى البحارة فلم يستطع الملك رفض ذلك.

وقضيت وقتاً كثيراً مع هيرغر أثناء هذه المدة. فقد كان قد اختار أن يتخلف عن الركب.

وذات يوم وقفنا على الجرف ننظر إلى السفينة على الشاطئ، وهي تجهز لسفرنا، وتحمل إليها المؤن فقال هيرغر:

«أنت مقدم على سفر طويل. وسندعو الله ليحفظك».

فسألت أي إله سيدعو، فأجاب:

«أودين ، وفري، وثور، وويرد، ولعدد آخر من الآلهة التي قد يكون لها أثر على رحلتك».

وهذه هي أسماء آلهة أهل الشمال.

فقلت: «إنني أؤمن بإله واحد هو الله الرحمن الرحيم».

فقد كان هيرغر يعرف منذ مدة أن عقيدتي تختلف عن عقيدته، ولكنه حين أخذ يقترب وقت رحيلي، أخذ يسألني عن

عقيدتي، ويكرر الأسئلة، وفي أوقات غير عادية ليفاجئني في حالة سهو ويعرف الحقيقة. وأخَذتُ أسئلَتَه الكثيرة كنوع من الامتحان، كما فعل بوليويف مرة ليختبر معرفتي بالكتابة. وكنت أجيبه بنفس الأجوبة فزادت حيرته.

وذات يوم قال لي، وكأنه لم يكلمني من قبل في الموضوع:

«ماهي طبيعة إلهك «الله»؟».

فقلت له: «الله هو الإله الواحد الذي يملك كل شيء، ويرى كل شيء، ويعلم كل شيء، ويقدر على كل شيء..»

وكنت قلت له هذا من قبل.

وبعد لحظة سألني:

«ألا تُغضِبون هذا الإله أبداً؟».

فقلت: «بلى، ولكنه غفور رحيم».

وهكذا أدركت أنه لن يهتدي أبداً لديني، ولا أنا لدينة، وكذلك افترقنا.

وكان وداعنا في الحقيقة حزيناً. فقد فارقت هيرغر وبقية المحاربين بقلب مثقل. وكان هيرغر يشعر بنفس الشعور. وأمسكت بكتفه لحظة الوداع وأمسك هو بكتفي، وافترقنا، فصعدت السفينة التي حملتني إلى أرض الدنمارك.

ولما ابتعدت السفينة عن شواطئ أرض (فيندن)، اتلفت فرأيت منظر سطوح قصر (هيورات) المتألقة، ووليت وجهي نحو المحيط الكالح الشاسع أمامنا. وحدث..

*****

وهنا ينتهي المخطوط فجأة بنهاية صفحة منسوخة آخرها هاتان الكلمتان المختزلتان «نونك فيت NUNCFIT»، ومع أنه واضح أن المخطوط لم ينته بعد، فإن فقراته الأخيرة لا تزال مجهولة. وهذا طبعاً حادث تاريخي محض. وقد علق كل مترجم على ملائمة هذه النهاية الشاذة التي توحي ببداية مغامرة جديدة، أو ظهور شيء غريب الشيء الذي سنحرم من معرفته لسبب اعتباطي سيظل من أسرار الألف سنة الماضية».

*****

تعقيب

غيلان الضباب

حسب ما أكد (وليام هاولز William Hawells) إنه يُعد حدثاً شاذاً ذلك الذي ينتُج عنه موتُ حيوان حي بطريقة تجعله يبقى محفوظاً كأُحفُور أو مُتَحَجراً لعدة قرون.

وهذا يصدق بشكل خاص على حيوان أرضي صغير وضعيف هو الإنسان. فما سجلته الحفريات عن الإنسان الأول قليل جداً.

والرسوم البيانية التي توردها الكتب الدراسية (لِشَجَرة الإنسان) توحي خطأ بمعرفة مؤكدة، مع أن الشجرة تُشذب وتراجَع كل بضع سنوات. وأحد فروع الشجرة كثيرة المشاكل، والمثيرة للخلاف، هو المعنوَنُ عادة (برجل النياندرثال).

وهو يأخذ اسمه من الوادي الذي عُثر فيه على بقايا نوعه بألمانيا في ١٨٥٦م، قبل صدور كتاب داروين (أصل الأنواع) بثلاث سنوات، وقد امتعض العهد الفيكتوري من تلك البقايا العظمية، وألقى الأضواء على صفات الخشونة والهمجية لرجل النياندرثال وما يزال ذلك الاسم حتى اليوم، مرادفاً في أذهان الناس لكل ما هو بليد ووحشي في الطبع الإنساني.

وقد قرر علماء ذلك العهد، بنوع من الارتياح، أن رجل النياندرثال (اختفى) منذ حوالي ٣٥٠٠٠ سنة، وعوَّضه رجل (الكرومانيون) الذي يبدو على بقاياه العظْميّة نوع من الرقة والحساسية بقدر ما يبدو على جُمجُمَةِ (النياندرثال) من وحشية. وساد الاعتقاد بأن رجل (الكرومانيون) قضى على رجل النياندرثال.

وحقيقة الأمر الآن هي أننا ليس لدينا إلا عينات قليلة جداً من بقايا رجل (النياندرثال). فمن بين أكثر من ثمانين عظماً معروفاً توجد فقط اثنتا عشرة قطعة كاملة، أو مؤرخة بدقة بحيث تضمن دراسة جدِّية، فلا يمكننا في الحقيقة معرفة سعة انتشاره، أو ماذا حدث له.

وقد اختفت الفحوص الجديدة للأدلة المستخلصة من هيكل النياندرثال مع المعتقدات الفيكتورية حول مظهرها المتوحش الشبيه بالإنسان.

فقد كتب (ستراوس) و(كيف) في دورتيهما سنة ١٩٥٧ ما يلي:

«لو بعث رجل النياندرثال، ووضع في قطار نفق نيويورك وهو مستحم حليق الوجه لابس ملابس عصرية. فإنه ، دون شك، لن يجذب انتباهنا أكثر من غيره من الركاب.

وقد عبر انثروبولوجي آخر عن ذلك بقوله:

«قد تعتقد أنه خَشِنُ المظهر، ولكنك لن تعارض في زواج أُختك مِنهُ».

ومن هنا، لم تبق إلاّ خطوة قصيرة لما يعتقده الآن بعض الأنثروبولجيين: من أن رجل النياندرثال، كنوع من الأنواع التشيريحية المتعددة للإنسان المعاصر، لم يختف قط، وأنه ما يزال معنا.

وتؤيد التأويلات الجديدة للآثار الثقافية المعاصرة لرجل النياندرثال كذلك نظرة العطف هذه على ذلك الرجل.

وقد أعجب الأنثربوليوجيون السابقون جداً بجمال وتناسق رسوم الكهوف التي ظهرت في البداية مع رجل (الكورمانيون)، فهذه الرسوم، كأي براهين هيكلية مالت إلى تقوية تصور الناس لحساسية جديدة رائعة عوضت الشكل المتوحش لرجل النياندرثال.

ومع ذلك فرجل النياندرثال كان جديراً بالاهتمام لذاته، فثقافة التي دعيت بالثقافة الموستيرية (Mousterian) نسبة إلى مكان في فرنسا اسمه (لوموستيير) (Le Moustier) تتميز بأعمال حجرية راقية، بل وأرقى من أي مستوى ثقافي سابق. ومن المعروف الآن أن رجل النياندرثال كانت له أدوات عظيمة كذلك.

وأهم ما يثير الإعجاب هو أن رجل النياندرثال كان أول أجدادنا الذين دفنوا أمواتهم بطقوس جنائزية، ففي (لوموستيير) تم العثور على فتى مدفون في خندق في وضع النائم، وقد زُوِّد بعتاد من أدوات حجر الصوان، وبفأس حجرية، وبعض اللحم المشوي، ولا يجادل أي أنثربولوجي في أن هذه الأشياء كانت لاستعمال الميت في شكل من أشكال الحياة بعد الموت.

وهناك أدلة أخرى على المشاعر الدينية: ففي (سويسرة) يوجد معبد لدب الكهوف، وهو حيوان كانوا يعبدونه، ويبجلونه، ويأكلونه في الوقت نفسه. وفي (شانيدار) بالعراق دفن رجل نياندرثال مع زهور في قبره.

وكل هذا يشير إلى موقف من الحياة والموت، وهي فكرة واعية عن العالم تكمن في جوهر ما نعتقده يميز الإنسان العاقل عن بقية الحيوانات، ولابد من أن نختم حسب ما لدينا من أدلة، بأن أول من وقف هذا الموقف هو رجل النياندرثال.

وتتصادفُ إعادة تقييم رجل النياندرثال بشكل عام مع اكتشاف اتصال ابن فضلان (بغيلان الضباب). فوصفُه لهذه المخلوقات يوحي بالشكل التشريحي للنياندرثال، ويطرح السؤال عما إذا كان شكل رجل النياندرثال انقرض فعلاً من الأرض منذ آلاف السنين، أو إنه بقي موجوداً في العهود المؤرخة.

وتشير الأدلة القائمة على القياس إلى الوجهتين معاً، فهناك الأمثلة التاريخية لحفنة من الناس ذوي حضارة تقنية أعلى تَمحُو مجتمعاً بدائياً في ظرف سنوات، وهذه عموماً هي قصة اتصال الأوروبي بالعالم الجديد، ولكن، ومن جهة أخرى، هناك أمثلة على وجود مجتمعات بدائية في أماكن معزولة غير معروفة للشعوب المتقدمة والمتحضرة القريبة منها، وقد وجدت قبيلة من هؤلاء حديثاً في الفيلبين.

ويمكن تلخيص مناقشة مخلوقات ابن فضلان في وجهتي نظر، أحدهما (لجيوفري رايتغودْ Geofey Rightgood) من جامعة أكسفورد، والأخرى لـ (إي دي غُودرِيتش E.D. Goodrich) من جامعة فيلادلفيا.

فغودريتش يقول (١٩٧١):

«إنَّ رواية ابن فضلان تعطينا وصفاً عملياً لرجل النياندرثال يتفق مع السجلات الحَفرية، ومع افتراضاتنا حول المستوى الثقافي لهذا الرجل البدائي. وكان ينبغي أن نقبله حالاً، لو لم نكن قررنا بالفعل أن رجل النياندرثال اختفى دون أثر منذ ٤٠ أو ٥٠ ألف سنة.

«وينبغي أن نتذكر أننا نعتقد باختفائه فقط لأننا لم نجد بقايا له في عهد أقرب. وعدم عثورنا على هذه البقايا لا يعني أنها لا توجد.

«وموضوعياً، لا يوجد سبب لإنكار أن جماعة من النياندرثاليين. قد تكون عاشت إلى عهد قريب في منطقة معزولة بأسكندينافيا. وعلى أي حال. فإن هذا دليل واحد يخالفها ويكفي لتحطيمها، والمطالبة بنظرية جديدة.

ولا يستطيع الواحد معرفة متى يُعثر على ذلك الدليل المخالف. فربما يحدث ذلك غداً، وربما لن يحدث أبداً. إلا إن تاريخ العلم مليء بأطلال مبان شامخة حطمها حادث أو حدث بسيط.

وهذا ما عناه (جيوفري ورَايتوُودْ) حين قال في (الملتقى الدولي السابع للباليونطولوجيا الإنسانية) بجنيف سنة ١٩٧٢م:

« كل ما أحتاج إليه هو جمجمة، أو شظية جمجمة، أو قطعة فك، بل كل ما أحتاج إليه في الحقيقة، هو سن جيدة وينتهي النقاش».

وحتى يوجد ذلك الدليل العظمي فإن التخمين سيستمر، ويمكن لأي واحد أن يتخذ أي موقف يُرضي شعوره الداخلي بما يلائم من الأشياء.

*****



الفهرس